الألفاظ والأساليب المستحدثة

عبد الله كنون

تحيى الأمم بلغاتها كما تحيى اللغات بأممها، فإذا رأيت أمة خاملة الذكر ضعيفة الحول، فإنك لا بد أن تجد لغتها قاصرة متخلفة، تعكس الأوضاع القائمة فيها من مجتمع بدائي وحياة ساذجة وجيل من الناس محدود النشاط والتفكير وبالعكس إذا كانت الأمة حية متطلعة إلى آفاق النمو والتطور، كانت لغتها مستجيبة لحيويتها متفاعلة مع عوامل التغيير الذي تتعرض له، فلا تلبث أن تصير من اللغات ذات الشأن، اسوة بالذين يتكلمون بها.

ولكم رأينا من أمة لم تكن شيئاً مذكوراً هي ولغتها، فما إن مسّها تيار التطور والتغيير، حتى برزت للوجود تأخذ وتعطي وتتبادل أسباب التقدم والرقي مع غيرها من الأمم النامية، بوسيلة اللغة التي دبت فيها نسمة الحياة من أبنائها الناهضين. إنما الغريب أن تموت اللغة بموت أهلها بعد الازدهار والانتشار حتى يصبح فكُّ رموزها من الفتوحات العلمية كما وقع

في لغة قدماء المصريين أعني الهيروغليفية، مما يؤكد أن الصلة بين حياة الأمة واللغة، شيء واقع لامرية فيه.

ويستثنى من ذلك بعض اللغات التي تعد أمّاً لغيرها من اللغات المتفرعة عنها، فهي وإن ماتت بموت المتكلمين بها، بقيت محفوظة في فروعها المنتشرة بين أمم حية، لا تفتأ تستمد منها وتوسع لغاتها بالرجوع إليها اقتباسا وتوليدا واشتقاقا وتنظيرا، وكان هذا من حظ اللغتين اليونانية واللاتينية اللتين تعتمدهما أكثر اللغات الأوروبية المستعملة اليوم لاسيما المنبثقة أصلا من اللاتينية.

والاستثناء الأعظم من هذا هو اللغة العربية، لغة الوحي والتنزيل، التي استهدفت لكثير من عوامل الركود والتخلف، بعدما كانت عليه من النمو والازدهار حتى طبقت أرجاء العالم، وأصبحت لغة العلم والحضارة في بلاد الشرق والغرب، طوال العصور الوسطى واستوعبت ثقافة الهند والفرس وسائر الشعوب القديمة لكنها بعد ذهاب دولتها بسيطرة الأعاجم على العرب وغزو الفرنجة لأرضهم ثم استيلاء الغرب على مقدراتهم المادية والأدبية، واضمحلال حضارتهم حتى أصبحوا عالة على الأجنبي في كل شيء، في هذه الحالة، لم يكن هناك مناص من دخول العربية في عداد اللغات الميتة لولا القرآن العظيم الذي حفظها وحفظ العرب أنفسهم من المصير الذي لقيه غيرهم من الأمم البائدة.

فهنا كانت اللغة هي صمام الأمن وضامن الوجود لأمة الرسالة الخالدة التي يقول كتابها : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، ومن اللطائف في هذا الصدد ما روي عن القاضي إسماعيل أنه قيل له لم جاز

التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن فقال لأن الله تعالى قال في أهل التوراة : ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ فتكفل هو بحفظه، فلم يجز التبديل على أهله، ذكره عياض في المدارك، وهكذا بقيت العربية وبقي العرب فصح ما قلنا به أول هذا الحديث ان الأمم تحي بلغاتها كما تحي اللغات بأممها.

ولا أشير إلى فشل المحاولات التي أريد بها الإيقاع باللغة العربية وإلحاقها باللغات الميتة، كإحلال العاميات الناشئة في مختلف البلاد العربية محل الفصحى، وجعلها كاللغات المنبثقة من اللغة اللاتينية للقضاء عليها وتمزيق شمل الأمة العربية، وكاقتراح كتابتها بالحرف الافرنجي كما حصل في اللغة التركية وغيرها من اللغات التي كانت إلى أوائل هذا القرن تكتب بالخط العربي، لفصلها عن ماضيها المجيد وتراثها العتيد، وغير ذلك مما يوحي به خصومها وخصوم حضارتها، ويتلقفه مع الأسف بعض العَقَقَة من أبنائها عن علم مدخول أو جهل مستحكم، ويرجون له من حين لآخر بين الطلبة والشباب لعله يجد منهم قبولا ورضى، فهذا نوع من الحروب التي تشن على أمتنا العربية في شتى الميادين وكل الأوقات، فتشحذ عزيمتها وتقوى همتها للمزيد من النضال، وإحراز الخَصْل في كل مجال.

غير أن ما لابد من ذكره والتنويه به، هو هذه الجهود المتظافرة، والأعمال المتواترة من أبناء العربية الأبرار، كتابا وشعراء، وأساتذة وصحفيين ومجمعيين، وفي طليعتهم أعضاء مجمعنا القاهري الموقر، لبحث لغتنا الضادية وإحلالها محل الصدارة بين اللغات العالمية الكبرى، كما كانت وستبقى كذلك

بإذن الله مع تفوقها عليها بما تختص به من الريادة في عالم المعرفة الإنسانية والقوامة الروحية على التراث الإنساني لا ينافسها في ذلك أي لغة في العالم.

ويتمثل البعث اللغوي الذي تحرص عليه الجهات والفآت من الناس الذين ألمعنا إليهم في أمرين اثنين :

أولها : الحفاظ على سلامة اللغة من الشوائب التي تكسف نصاعتها كالألفاظ العامية والتراكيب المنافية للفصاحة بمخالفتها لقواعد النحو والتصريف، والاقتباس من اللغات الأجنبية بغير مراعاة لصرف التعريب والترجمة الصحيحة.

وثانيها : سد فراغاتها المعجمية والتعبيرية بما يغنيها ويثريها من الألفاظ والأساليب التي هي في حاجة إليها كالمصطلحات العلمية والتقنية والمفردات والأسماء، التي تعين الأدوات والأجهزة الحضارية الحديثة فإن هذه الأشياء في تزايد مستمر ولابد لمسايرة ركب التقدم من إيجاد الوسائل التي تبلغنا إليه، وأولها الرصيد اللغوي الذي نودعه إياه.

واللغات لا تنمو وتتسع بغير الأخذ والعطاء وقد أعطينا كثيرا من لغتنا للغات الأخرى، ففي الإسبانية ما يزيد على 15 ٪ من المفردات العربية في مختلف مجالات الحياة من اجتماع واقتصاد وعلوم طبية وفلكية وزراعية وغيرها، وأما في الأدب والشعر والقصص والأمثال فإن عطاءنا في ذلك كان هو أساس الإبداع والخلق عند الإسبان ومن تأثر بهم في هذه الفنون، وما تزال أسماء بعض النجوم وبعض الآلات الهندسية وبعض المناطق الجغرافية بل بعض العلوم بذاتها في اللغات الأوروبية الكبرى كعلم الجبر، باللغة العربية، فإذا عدنا لأخذ ما نحن في حاجة إليه من ألفاظ

وأساليب عن اللغات الأُخرى فهي قد سبقت إلى الأخذ عنا، وكذلك سبق أسلافنا فأخذوا عن اللغات القديمة ما يعبر عنه بالمعرب من الألفاظ وصقلوه فصار من صميم العربية ودخل حتى في لغة القرآن الكريم، وما نقص ذلك من قدر اللغة العربية ولا أثر في أصالتها، لأن كيانها محفوظ بقواعد النحوية والصرفية والبلاغية، ولا تدخل كلمة إلى معجمها حتى تصهر في بوتقة هذه القواعد وتصوغها على قالبها وقياسها المعروف والمقبول.

ومن هنا يظهر أن الألفاظ والأساليب المستحدثة ليست كلمات وجملا تقمش من هنا وهناك، ويؤتى بها على غير هدى، لتضخيم المعجم العربي وجعل حجمه أكبر مما هو، فإن الأمر أعظم من ذلك، إن الكم والكيف فيه مقترنان، والحداثة والعراقة ملازمان، وما نستحدثه منه غالبا ما يكون له جذع أصيل في اللغة العربية وطرق تعبيرها نعتمد فيه الاشتقاق والتوليد والنحت والتركيب والمجاز والاستعارة والكناية وغير ذلك مما يؤدي المعنى المراد، ويكون وضعا جديدا يضاهي عمل الواضع الأول، وعمل الواضع كما نعلم هو جعل اللفظ دليلا على المعنى، ومن ثم يكون المستحدث على هذه الطريقة عربيا خالصا لاغبار عليه، اما ان كان مما يقتبس من لغة أُخرى فلا بد من خضوعه لعملية التعريب التي أشرنا إليها آنفاً، وهي عملية معروفة ومتبعة في سائر اللغات، وكلنا نعرف ما عمله الأجانب في إسم نبينا محمد ﷺ يميزوه عن غيره من الأسماء الموافقة له، فالمقتبس على هذا النحو هو أيضا من صحاح العربية الذي يثبت قاعدة تعامل اللغات بعضها مع بعض وقد أسرف بعض اللغويين المتشددين فانكر المعرَّب من الأساس وزعم أنه عربي أصيل.

وعلى كل فقد أضاف القرآن إلى متن اللغة معجما كاملا، لا سيا في المعاني الشرعية والقانونية، ولم يزد على أن خصص العام وقيد المطلق وبين المجمل، فأوجد لكلمات الصلاة والزكاة والوضوء والغسل والذكاة، والأضحية والجهاد والرباط والقراض والسَّلَم والإجارة والجعل وغيرها من مآت الألفاظ معاني ودلالات لم تكن لها من قبل، وهي هي نفس الألفاظ العربية التي كانت موجودة بالفعل وبالقوة ولا علاقة لها بما أصبحت تفيده من بعد، تماما كا فعلنا نحن في كلمة الجريدة والسيارة والباخرة والهاتف والثلاجة والكلّية والجامعة والدستور والقانون والإذاعة والأعلام والإدارة إلى ما لا يحضى من الألفاظ المستحدثة ذات الدلالة الجديدة وإن كانت قديمة.

أما إذا نظرنا في الأساليب القرآنية التي صاغ بها الكتاب العزيز دعوة الإسلام وخاطب العرب بما أهلهم له من إبلاغ رسالته إلى البشرية جمعاء فإننا نجد أمرا عجبا لم تكن هناك كلمة للتعبير عنه قبل وبعد أنسب من الإعجاز، فإنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالخطابة ولا بالسجع ولا غير ذلك مما تعرفه العرب في فنون القول، فكان أن ألقوا باليد وأقروا بالعجز وهم أساطين البلاغة وفرسان البيان حتى كان منهم من سجد لسماع بعض آيات منه، وتسمية جمله وفقره بالآيات هي نفسها من باب الإكبار والانبهار بأسلوبه الرائع، والموضوع بحاله كا يقول علماؤنا في هذا المقام، فإن الكلمات والمفردات هي هي، ما عرفوا وعلموا، ولكن الصياغة شيء آخر، غير ما عهدوا واعتادوا، فلقد روي عن الأصمعي أنه قال سمعت بنتا عربية خماسية أو سداسية تنشد :

استغفر اللـه لـذنبي كلّـه قتلت إنسانـاً بغير حلّـه
مثل غزال نـام في دلّـه وانتصف الليـلُ ولم أصلـه

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك، فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : ﴿**وأوحينا إلى أم موسى ان ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين.

وهذا بعد انتشار الإسلام والعلم والمعرفة وتفتح الأذهان وارتفاع المستوى الثقافي لدى عامة العرب بما يفوق عدة درجات ما كان عليه الخاصة منهم، وحكي عن بعض البلغاء أنه كان يتشدق بمعارضة القرآن حتى إذا قرأ قوله تعالى في قصة الطوفان من سورة هود : ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي**﴾، سقط في يده وعلم أن ما يحاوله إنما هو عبث وليد، وعبارة سقط في يده نفسها هي مما أتى به القرآن ولم تكن العرب تعرفه، وذلك في قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿**ولمّا سقط في أيديهم**﴾ وقد عدها علماء البلاغة من روائع كلم القرآن..

وهذا الذي قلناه في أسلوب القرآن، وقاله العلماء قبلنا، قد عبر عنه رئيس مجمعنا السابق الدكتور طه حسين رحمة الله عليه، بكلام بين واضح مركز يطيب لنا أن نسوقه هنا وهو قوله : «ان القرآن ليس نثرا وليس شعرا ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الإسم، ليس شعرا وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا لأنه مقيد بقيود مخصوصة لا توجد في غيره، وهذه القيود بعضها يتصل بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة. كان وحيدا في بابه، لم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله وتحدى الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن يجدوا إلى ذلك سبيلا».

ورفد الحديث النبوي اللغة العربية بمثل ما رفدها به القرآن أو بقريب منه، لفظا وأسلوبا ولا غرو فهو ﷺ، أفصح العرب، وأوتي جوامع الكلم ولم يفتأ علماء البلاغة، يضعون كلامه في المرتبة الثانية بعد القرآن، وقد تكلم بكلمات لم يسبق للعرب أن نطقت بها كتعبيره عن النساء بالقوارير في قوله : لأنْجَشة الحادي[1] «يا أَنجَشَةُ رفقاً بالقوارير» وكانت هذه الكلمة أبلغ ما سمع في وصف النساء وطبيعتهن الرقيقة وسرعة تأثرهن، وهي تشبه ما يقال الآن في النساء من وصفهن بالجنس اللطيف، ومن بليغ كلامه قوله في غزوة حنين «الآن حمي الوطيس» قال في النهاية : الوطيس التنُّور، وهو كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرْب، ويقال أن هذه الكلمة أول من قالها النبي ﷺ، لما اشتد البأس يومئذ، ولم تسمع قبله، وهي من أحسن الاستعارات ونستطيع أن نقول باطمئنان أن الروح التي نفخها القرآن والحديث في اللغة العربية جعلتها أعظم اللغات السامية أو أُمها كما يقول غير واحد من العلماء، وضمنت لها البقاء على الدوام، وصارت بعد ذلك لا تزداد إلا غنى وثراء لاسيما وقد سار الصحابة على نهج الرسول في إعلاء شأن العربية والتمكين لها في أقطار الأرض بحيث أصبحت اللغات الكبرى في ذلك العهد تبعا لها ووضع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قواعد لضبطها وحفظها من التغيير هي ما سمي بعلم النحو، وهكذا توبعت المسيرة في العصور الوسطى حين نقلت العلوم، والفنون وترجمت كتب

1) أنجشة اسم حبشي كان ذا صوت حسن، وكان يحدو أي يغني للإبل فشرع السير السريع تأثرا بالحداء، وكان هذا في سفر فخشي النبي ﷺ، على النساء اللائي كن معه أن يجهدون السير السريع فقال له هذه الكلمة.

الأوائل في عهد الأمويين والعباسيين فأحضنتها العربية ولم تضق بشيء منها، بل زادت عليها واتسعت بما لم تتسع به لغة قبلها، إذ صارت مستودعا للمعارف البشرية تقتبس منها الأمم والشعوب وتحتذى حذوها في التجديد والإبداع.

ولما أصابها ما أصابها من الفتور بسبب فتورنا نحن في الحقب المتأخرة اعتبارا بقاعدة (اللغات بأممها)، لم تفتأ أن انبعثت من جديد بانبعاثنا وتأثرنا لخطى سلفنا في تنميتها وحقنها بدم جديد، من العمل الذي تقوم به النخبة في هذا المجمع والمجامع العربية الأخرى، وسبق أن قام به جيل النهضة قبل تأسيس هذه المجامع، وهو ما يستحدث من ألفاظ وأساليب بالطرق المتبعة في ذلك من أول يوم أحس العرب فيه بحاجة لغتهم إلى التطور والتنمية ونتج عن ذلك أن صارت العربية أداة طيعة للتعبير عن كل ما يختلج في النفس من أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، وتصوير كل ما تقع عليه العين من مختلف المرئيات ومتنوع المشاهد، وأصبحت تتوفر على عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية والفنية والحضارية التي وضعت حديثا ولم يكن لها وجود قبل زمن قليل، ونبغ فيها الكتاب والشعراء، الذين يضاهون كبار كتابنا وشعرائنا في العصر العباسي الأول ثم هي ما تزال تطوي المراحل وتبغي فوق ذلك مظهرا.

وإذا كان هناك ما يلاحظ على عملنا اللغوي. فهو بطؤه الذي يجعل المسيرة تتعثر أحيانا من عدم إيمان البعض بطاقة العربية وقدرتها على، استيعاب المستجدات من العلوم والفنون والتقنيات، ومن ثم يعارض هذا البعض في تدريس المواد العلمية بالعربية ويتحمل مسؤولية تأخر الركب العربي عن قافلة التقدم التي لا تنتظر أحدا، وأحيانا من تعارض الاتجاهين

المحافظ والمجدد، فحينما يتزمت الأول حتى يمنع مالا يجوز أن يمنع يندفع الثاني فيقع في محظورات لا تقبل بحال، وتحتد المعركة ولا يسفر العمل عن نتيجة إلى أن يأتي التمحيص وربما لا يأتي.

ومثالا على ذلك نذكر لفظ (الفنّان) الذي أطلقه العرب الأولون على حمار الوحش لتفننه في العدو، وكان بعض المعاصرين استعمله في وصف رجل الفن، فلم يرتضه الملتزمون بالنصّ اللغوي، وكان كتاب مثل مصطفى الرافعي يضطرون إلى استعماله فيضعونه بين قوسين للتعبير عن تحفظهم بإزائه، مع أن له أكثر من وجه لتخريجه عربيا، وقد أشرنا إلى ذلك في بحثنا الذي ألقيناه في هذا المجمع منذ سنوات بعنوان السليقة عند العرب المحدثين.

ومثله الجدال الذي يثور من حين لآخر في جمع معجم على معاجم ومشهور على مشاهير، زعما بأن قياس الأول معجمات والثاني مشهورين، وليس هذان بأقيس من معاجم ومشاهير ومن التطاول أن يغير مصحح الطبع إسم كتابي مشاهير رجال المغرب في مقدمته إلى مشهوري رجال المغرب. وحمدت الله على أنه لم يستطع أن يغيره في عنوان الكتاب الخارجي المرسوم بمعرفة خطّاط، ويلجأ المجيزون للجمع المذكور إلى تتبع الكلمات التي جاءت على وزنه للاحتجاج بها، مع أن من المقرر نحويا أن مفاعل هو من باب فعالل الذي قال فيه ابن مالك :

وبفعالل وشبهه انطقا   في جمع ما فوق الثلاثة ارتقى
من غير ما مضى . . . .

وقد ذكروا أن شبه فعالل مفاعل وفياعل وفعاول وغيرها مما هو مثله عددا أو هيئة، وأن خالفه زنة، كفاعيل وفماعيل ونحوها، فهذه كلها جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعي فما فوقه، أصليا أو ميزدا، باستثناء باب كبرى وسكرى وأحمر ورام وكاهل ونحوها، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله : (من غير ما مضى) فإن له جموعا أخرى ذكرها، ويدخل فيها يعنينا هنا أعني مفاعل معجم ومصحف، مما أوله مضموم ومسجد وموطن مما أوله مفتوح ومعول ومضرب مما أوله مكسور، فيقال قياسا معاجم ومصاحف ومساجد ومواطن ومعاول ومضارب، ويقال في مشهور ومرسوم ومفهوم مشاهير ومراسيم ومفاهيم قياسا أيضا.

والأمثلة على اجتهاد بعض اللغويين في حال وجود النص كثيرة، ويكون الخطب سهلا إذا وافق الاجتهاد النص، ولكن المشكلة هي أن يخالفه، وأن يتعصب له صاحبه فتصير عويصة، وكل ذلك مما يعوق مسيرة العمل اللغوي ويبطئ به إلى حد بعيد.

وأما قبل وبعد فإن حرصنا على أن تسير حملة التنمية اللغوية في الطريق السوي ولا تخالف عنه يمينا أو يسارا، ليس فقط لتجنب المعوقات وسرعة الوصول إلى الغرض المنشود، بل ولربط الحاضر بالماضي، والمحافظة على هذه الميزة التي تجعل اللغة العربية حية في اذهاننا كما كانت في اذهان أبائنا وأجدادنا، فلا نبتعد عن مظلة القرآن الذي هو الحارس الحقيقي لها ولنا.

طنجة　　　　عبد الله كَنون

شعر الملحون في الأدب المغربي ومواضيعه

لماذا يسمّى بالملحون؟

محمد الفاسي

الملحون هو الشعر باللغة العامية وقد برز فيه المغاربة وأبدعوا قصائد رائعة في كل فنون الشعر.

وأول ما يتبادر للذهن أنه شعر بلغة لا إعراب فيها، فكأنه كلام فيه لحن. وهذا الاشتقاق باطل من وجوه، لأننا لا نقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون، وإنما باللهجات العامية، ولم يرد هذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب. ولا يعقل أن يسمي أحد شعره بكلمة تنم عن الجهل.

والذي أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى أن الأصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء. ونجد ما يؤيد هذا النظر في قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخمسين «في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد» بعد أن تكلم على الشعر باللغة العامية فقال :

«وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على الصناعة الموسيقية[1]». ومعنى هذا أنهم لا يدخلون أشعارهم في موازين الموسيقى المعروفة، من بسيط وبطايْحي ونحوهما، وإنما يجعلون لها ألحانا خاصة وقد وقفت أخيرا على نص لأحد العلماء الإيرانيين من أهل القرن الثاني عشر الهجري يقول فيه عن الرباعي في الأدب الفارسي : «إن الرباعي الذي يغنى به الملحون يسمى ترانه بالفارسية»[2].

ومن أسماء هذا الشعر عندهم «الموهوب» وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على أنهم يعتبرون الشعر كهبة من الله، وليس هو مجرد نظم وإنما هو إيحاء وإلهام، وكأنه يجري على لسان الشاعر عضوا، لذلك يسمونه أيضا «السجية»، ويميزون بين الأشياخ الذين يقولون الشعر والذين يحفظونه ويغنونه بقولهم «شيخ الشجية» للشاعر و«شيخ القريحة» للمغني.

ويطلقون عليه كذلك لفظة «الكلام» كأن الشعر هو الكلام الحقيقي الذي يستحق أن يحمل هذا الاسم، وغيره كأنه لغو، وكل هذه العبارات تدل على تقدير الشعب لهذا الشعر ونظره إليه بعين الإكبار والإجلال.

وفي الحقيقة، دراستنا للملحون من بين الانتاجات الأدبية الشعبية، فيه تجوز، إذ أخص ميزات الأدب الشعبي أنه لا يعرف قائله، وهذا هو الشأن في الحكايات وفي الأمثال وفي العروبيات التي تغنيها النساء، وفي نحو هذه الأنواع الأدبية الشعبية حقا، أما الملحون فلا يربطه بالناحية الشعبية إلا كون قائليه في الغالب من عامة الشعب، وليسوا كذلك في الغالب من

1) ص 582.
2) دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية تحت كلمة « Rubai ».

المثقفين، بل كانوا أميين، وأما من حيث اللغة العامية فإنها ليست لغة طبقة شعبية منحطة بل هي لغة أرقى من اللغة التي يتكلم بها حتى المتعلمون، لأن شعراء الملحون يدخلون في كلامهم كثيرا من الكلمات الفصيحة بعد إجرائها على الأسلوب العامي، ثم إن من بين شعراء الملحون من لو ترجم إنتاجهم للغة حية لعدوا من أكابر شعراء الدنيا، فينطبق عليهم من هذه الناحية قول ابن خلدون في المقدمة في الفصل المشار إليه آنفا.

«إعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية... إلى أن يقول : «ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر، فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر... فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغةسلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض... ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء». ثم قال في تقدير هذا الشعر بعد أن ذكر أن الكثير من المنتحلين للعلوم يستنكرون لهذه الفنون : «وهذا إنما أتي من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره...»[3].

وهذه الملاحظة العميقة للفيلسوف العظيم ابن خلدون، لا زلنا نشاهد آثارها إلى يومنا حيث إن الكثير لا يقدرون الشعر الملحون، لا لشيء إلا

3) ابن خلدون، المقدمة، ط. بيروت 1961 ص 1124 ـ 1125.

لعدم معرفتهم لطرقه وأساليبه بل للغتـه. بمعنى أنهم لم تحصل لهم الملكـة التي يشير إليها ابن خلدون. وكل من حصلت لـه يتـذوقـه ويعجب بـه ويقبل عليه.

هذا وإن نظم الشعر باللغة العربيـة العـاميـة وجـد في كل عصر وكل قطر، إلا أن أهل الأندلس والمغرب فاقوا غيرهم في هذه الناحية، وذلـك أنهم بعـد أن اهتـدوا إلى التحرر من أوزان العروض القـديـة الضيقـة، واخترعوا الموشح[4] الذي له بحور خاصة، أخـذوا ينظمون بعـد ذلـك في أوزان تشبـه الموشح، ولكن بلغتهم العامية، وهو ما يسمى بالزجل. وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا للكلام على هـذه الأزجـال عنـد أعراب المغرب وعنـد أهل حـواضر الأنـدلس والمغرب، وأتى بـأمثلـة من ذلـك يظهر منهـا أن شعر الأعراب، وإن كان بلغة عامية فهو لا يزال قريبا من الأسـاليب العروضيـة الخليلية، كالتزام قـافيـة واحـدة في القصيـدة وشطرين في البيت. أمـا زجل الأمصـار فـابتعـد شيئـا مـا عن هـذه الأسـاليب. وذكر ابن خلـدون كيف «استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنـا آخر من الشعر في أعـاريض مزدوجـة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد[5].

وذكر أن أهل فاس أقبلوا على النظم على هذه الطريقة. وكان له هنا عبـارة يراهـا البعض كأنهـا تنقيض من أهـل المغرب حيث قـال : «وتركـوا الاعراب الـذي ليس من شـأنهم»[6]. وليس معنى هـذا أنهم لا عـلاقـة لهم

4) انظر عروض الموشح في مجلة «الثقافة المغربية» للمؤلف

5) ابن خلدون، المقدمة ص 1160 بيروت 1961.

6) ابن خلدون، المقدمة ص 1162 بيروت 1961.

بالإعراب، وإنما مقصوده أن النظم في هذه الطريقة لا شأن فيه للإعراب، وإلا فهو يعلم أن شيوخه الذين أخذ عنهم وهو شاب بتونس قبل قدومه على فاس، هم العلماء الذين صحبوا السلطان أبا الحسن المريني إلى تونس، وهم الذين شوقوه إلى التوجه إلى فاس للأخذ عن علمائها. وهو يعلم أن شأن هؤلاء مع الأعراب شأن وأي شأن، فلا ملامة عليه في تلك العبارة.

ثم ذكر أن هذا الشعر المستحدث باللغة الحضرية الفاسية «استفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل»[7]. وقد أورد أمثلة منه لشعراء من أهل تازة ومن أهل زرهون، وقال بعد هذا : «وأما أهل تونس فاستحدثوا في الملعبة أيضا على لغتهم الحضرية إلا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته».

موضوعات الملحون :

إن الموضوعات التي يطرقها أشياخ الملحون يمكن أن نقول عنها من أول وهلة إن سائر النواحي التي نعتادها في الشعر العربي الفصيح نجد لها مقابلا في الملحون، فقد نظموا في الشعر الغنائي بسائر أنواعه من وصفه للطبيعة في قصائد تسمى الربيعيات، أو تحمل أسماء مختلفة كالعرصة، وكالرياض، وكالصبوحي، وكالديجور، أي الليل، وكالفجر، وكالذهبية أي غروب الشمس، ونحو ذلك، ونظموا في وصف مجالس الانس والمرح مع التعرض لذكر محاسن الفاتنات في قصائد تحمل مثل هذه الأسماء : النزهة، والزهو، وشعبانة، والغزال، والمزيان، وجمهور البنات، والفصادة والحجام.

7) ابن خلدون، المقدمة ص 1162 بيروت 1961.

وتسمى بهذين الاسمين الأخيرين القصائد التي يكون موضوعها وصف الحفلات التي كانت تقام بمناسبة الفصد.

وكثير من قصائد هذا النوع التي موضوعها وصف الجمال تعرف باسم من أسماء النساء، كزينب أو فاطمة، حتى إنك لا تكاد تجد اسم امرأة لا توجد قصيدة أو عدة قصائد منظومة فيه، على أن عددا كبيرا من القصائد التي تعرف باسم امرأة هي من باب النوع الغرامي الذي يعبر فيه الشاعر عن عواطف صادقة، ولا يكون وصف الجمال إلا عرضا وليس هو المقصود بالذات. والقصائد الغرامية تحمل أسماء كثيرة، مثل المحبوب، والمعشوق، والجار، والمرسول، والجافي، والهاجر، واللايم، والمرسم أي الحي أو المكان الذي يسكنه المحبوب، والشمعة حيث يشبه احتراقها وذوبانها وصفرتها بصفات العاشق الولهان الذي لا تنقطع دموعه، ويحترق فؤاده وتذبل سحنته. وقد انفرد كثير من الشعراء بأسماء خاصة للقصائد التي عبروا فيها عن هيامهم بمحبوبتهم، مما لا يمكن استيعابه.

ونظم شعراء الملحون الخمريات والقصائد في ذلك، تسمى الدالية، والكاس، والخمرية، والساقي، والساحي، والخمارة، وقد برع في هذا النوع الأدبي جل كبار الشعراء كالشيخ الجيلالي، والسي التهامي المدغري، وسيدي قدور العلمي، والكندور، والحاج ادريس الحنش، وغيرهم. وأكثر الشعراء ينظمون في هذا الموضوع لإظهار براعتهم حتى إنني أحصيت نحو الستين ساقيا لثلاثة وثلاثين من الشعراء.

أما الهجاء فقد برعوا فيه وتفوقوا. ويسمونه «الشحط»، وهو «الدق» عند أهل مراكش. وإذا كان شعر المدح لم يحفظ لأن فائدته مقصورة على

المادح والممدوح، فإن الهجاء لهم به ولوع، ويرون فيه الشعر الصادق، فإنه غالبا ما يصدر عن غضب وتأثر، وذلك أنه كثيرا ما تقوم نزاعات بين أشياخ الملحون حول قضايا ترجع لفنهم وتؤدي إلى مساجلات ومناقضات مما يدفعهم إلى الهجاء. وقد حفظت قصائد كثيرة ممتازة في هذا النوع الأدبي، وهي تحمل أسماء مختلفة منها «الدعي»، أي الذي يدعي المعرفة والتفوق وهو دون ذلك، ومنها المطموس، ومنها ما يحمل اسم القافية كالضادية والواوية مثلا. ومن أشهر القصائد الهجائية «قصر العنان، للشاوي»، وقد ابتكر الغرابلي وبريسول في مساجلاتهما معاني جديدة مقتبسة من الحروب البرية والبحرية، فسموا قصائدهم المهراز (المدفع الكبير)، والقرصان، أي السفينة الحربية التي كان القراصنة يغيرون بها على أعدائهم. وسمى الغرابلي إحدى قصائده بالغطاس قبل أن يخترع ويعرف.

وقد بلغ ولوعهم بالهجاء لدرجة أنه لا تجد قصيدة إلا في ما قل، باستثناء كلام النّبي التهامي المدغري وسيدي قدُّور العلمي، لا يختمها صاحبها بهجاء خصومه ولو بإشارة خفيفة، فإذا أطال فذلك ما يسمى «بالزرب»، ويعنون بذلك أنهم يحيطون إنتاجهم بزرب من الشوك فلا يستطيع أحد من المعاندين الجاحدين الاقتراب منه ولا خرق ساحته، ورغم كل هذا فإنهم لا يحبذون الهجاء الشخصي، أي الذي لا يكون سببه خلافا فنيا أو مساجلة، وإنما مجرد هجو ناتج عن عداوة مثلا، ومثل هذه القصائد يطلقون عليها اسم «فضيحة». وهي لا تقبل ولا تحفظ. ويعاملونها معاملتهم لقصائد المدح، ويرون أن فائدتها شخصية، ولا تعني إلا القائل ومن قيلت فيه.

وينظمـون كـذلـك في الرثـاء ويسمـونـه «العـزاء» أو «العـزو» إلا أن القصائد في هذا النوع بما أنه لا يغني بها فإنها تضيع ولا تحفظ، وإنما نجد بعضها في الكنانيش القديمة مثل رثاء المنصور السعدي لسيدي عبد العزيز المغراوي.

وزيادة على هـذه الأنواع التي توجد في الأدب العربي الفصيح، فقد امتاز شعراء الملحون بطرق مواضيع إما لا توجد مطلقا في الشعر العربي القديم أو الإنتاج فيها كان ضئيلا وضعيفا.

من ذلك، النوع المسرحي الذي مع الأسف لم يلهموا إخراجه في شكل تمثيلي حقيقي، وإنما بقي في طوره الموسيقي المحض، وإن كنت أرى أنهم اقتبسوا هذه المحاورات والمواقف المسرحية التي نجدها في القصائد التي نظمت في هذا النوع من الألعاب التي كانت تجرى بفاس وبمراكش أيام عيد الأضحى، وتسمى الفراجة أو بالشيخ، حيث تعرض روايات هزلية يقوم بتمثيلها أشخاص معروفون بإتقان أدوار خاصة.

وهذا النوع الأدبي يسمى عندهم ترجمة والمواضيع التي يطرقونها متنوعة، لكن أكثرها هو ما يسمى «الحراز»، حيث يصورون شخصا يحب امرأة ويحاول الاتصال بها، فيأتي في صور مختلفة ليحصل على ثقة بعلها الذي يمنعها ويحرزها، لذلك يسمى الحراز، فيصده ولا يترك له مجالا حتى يوفق إلى المجيء في صورة ينخدع فيها الحراز، فيتوصل العاشق إلى مرغوبه.

ومنه أيضا القصائد التي تسمى «الضيف» وهي تصور محبوبا يأتي عند محبه متنكرا في صورة من الصور، ويطلب منه «ضيف الله»، وتقع بينهما

محاورات ثم ينكشف له أنه حبيبه جاء عنده في غفلة من الرقباء. ومنها القصائد المسماة «القاضي»، حيث يصور الشاعر أنه يحاكم محبوبه عند القاضي ويقدم حجج محبته وغرامه حتى يقضي له الحاكم بأنه محق في دعواه.

وتارة يكون موضوع القصائد في هذا النوع المسرحي مفاخرة ما بين أشخاص كالعربية والمدينية، أي البدوية والحضرية، أو كالأمة والحرة، أو كالعجوز والشابة، وهكذا، أو بين أشياء كأزهار ونحوها. والقصائد في هذا المعنى تدعى «خصاما».

ومن المواضيع الطريفة في الملحون الرحلات الخيالية، وهم يصورون أنهم يوجهون طائرا إما لزيارة مكة والمدينة شوقا إلى تلك البقاع المقدسة ليصف المراحل التي يمر بها إلى أن يصل إلى الحجاز، أو يوجهونه إلى الحبيب أو إلى الأصدقاء في بلد بعيد. وفي كل هذه الأحوال توصف الطرق والمنازل التي يمر بها الطائر، والقصائد المنظومة في هذا النوع تحمل عادة أسماء الورشان، والحمام، والمرحول، والطلعة ونحوها.

ومما يمتاز به الملحون أيضا، وهو شبيه بالرحلة من جهة وصف البلاد أو أحياء مدينة من المدن، ما يتخيلونه من أن المحبوبة تركت عند حبيبها حاجة كحلي أو نحوه كتذكار، ثم ضاعت له فأخذ يبحث عنها. وتسمى عادة هذه القصائد باسم الشيء الضائع «كالخلخال»، «والدمليج» أي السوار، «والدواح» و«المقياس»، وهو السوار كذلك، «والسالف»، ويعنون به ضفيرة من شعر المحبوبة.

ومن هذا النوع كذلك قصائد رمزية يشبهون فيها المحبوب النافر الهاجر بحيوان كان يألف المنزل ثم هرب وتلف، فيقوم الشاعر بالبحث عنه

كذلك. ومثل هذه القصائد تسمى «الطرشون»، وهو البـاز الصغير، «والغزال» و«الطير» ونحو ذلك.

ولشعراء الملحون براعـة في الشعر الفكاهي. والمواضيـع التي يطرقـونها في هـذا البـاب كثيرة ومتنوعـة. وتحمل القصـائـد الهزليـة عـادة مثـل هـذه الأسماء : «الزردة» و«الضامنة» و«الفار» و«الطحين» وغير ذلك.

ويختص الشعر الملحون بنوع يسمى عنـدهم «الجفريـات»، وهـو التنبـؤ بـالحوادث المستقبلـة. والـواقـع أنهم يتخـذون هـذا الأسلـوب كطيـة للنقـد السياسي متخذين لهذه الغاية إشارات ورموزا يدركها المعـاصرون ويفهمون مغزاها. وأكبر من برز في هذا النوع الفقيه العميري. وكان أيـام المولى عبـد الرحمن، وله عدة قصائد جفرية منها اللامية (وكثير من قصـائـد هـذا النوع تحمل اسم القافية).

ولمـا انهزمت فرنسـا سنـة 1940 في الحرب الأخيرة، أخـذ النـاس ينتسخون قصيدة جفريـة لأحـد شعراء مراكش يـدعى الموقّت، كان يعيش في أوائل هذا القرن وتسمّى «الزّازية» (أي قافيتها زاي)، فيها للانتقـاص من الفرنسيين والتنبؤ بهزيمتهم.

وتوجد كذلك قصائد سيـاسيـة نظمت بمنـاسبـات وطنيـة كالقصـائـد المسماة «التّطْوانيـات» حول حرب المغرب مع إسبـانيـا سنـة 1859 ـ 1860، وقصـائـد حول فتح بونـابـارت لمصر، وحول دخول الفرنسيين لوجْدة. وقـد نظم الشعراء كذلك في مساندة الحركة الاستقلالية أيـام النضـال. وأشهر من برع في هذا الباب الشاعر الملهم الشيخ العِيسَوي الفَلُوسْ من أهل فاس رحمه

الله. وكل الشعراء المعاصرين نظموا في التنويه بجهاد محمد الخامس قدس الله روحه، ووارث سره جلالة الحسن الثاني نصره الله.

وينظمون في الألغاز ويسمون عادة هذا النوع «السُّولان أو السوّال»، وهذا النوع مطية لإظهار البراعة في الإطلاع على معلومات عن أشياء غريبة يستمدونها من اتصالاتهم وملازمتهم لبعض العلماء ومن مطالعة كتب العجائب والغرائب.

ولهم قصائد تعليمية ينظمون فيها التوحيد والسيرة النبوية والمنازل الفلكية. ومثل هذه القصائد الأخيرة تسمى «ترحيل الشمس»، وممن نظم في ذلك المغْراوي من القدماء، والحاج أحمد الغرابلي من المحدثين.

ومن المواضيع التي نظم فيها بعضهم ما يسمونه بالقصائد «الحسبية» تسمية للشيء بنقيضه، وهي من باب رجوع الشيخ إلى صباه ونحوها، وهي من الشعر الذي لا ينشد إلا في بعض مجالس اللهو أو بين جماعة من الناس ارتفعت من بينهم كل كلفة.

وامتاز كذلك شعراء الملحون بالنظم في موضوع لا نعرفه في الأدب العربي القديم، وهو موجود في الأدب الغربي، وهو مسخ القصائد (ويسمى بالفرنسية مثلا Parodie). وذلك أنهم يعمدون إلى قصائد جدية معروفة، ويقلبون موضوعها إلى الهزل والسخرية. وكثيرا ما يحولونها إلى النوع الحسبي المشار إليه آنفا. وممن اشتهر في هذا النوع من شعراء الملحون أحد شعراء مراكش كان يدعى أحْمر الرّاسْ من رجال أوائل هذا القرن العشرين، ومنهم الفقيه الزرّاق من أهل فاس، وكان يقطن مراكش.

وأم نوع برز فيه شعراء الملحون الشعر الملحمي «الابوبيه» ويسمونه «الغزوات». والحقيقة أن القصائد التي موضوعها حروب المسلمين مع الكفار ليست هي كل الشعر الملحمي في الملحون. فهناك كذلك قصص «إبوبيه» تتعلق بسير الأنبياء والأولياء تتخللها كثير من الخوارق. ومن أشهر شعراء الغزوات والقصص الملحمية سيدي عبد العزيز المغراوي وله في ذلك الموؤودة وجرير والشدادية والشباب الفساني وغيرها، ومنهم سيدي مبارك أبو الأطباق، وهو من ناحية وهران، إلا أن شعره محفوظ ومتداول كثيرا بالمغرب. وقد كان له أثر على شعراء الملاحم عندنا، وهو في هذا مثل الشاعر التلمساني سيدي محمد بن يخلف، ومن آثار سيدي مبارك أبو الأطباق غزوة الصيد بن سلامة الخزمي والإسرائيلية والراحة، وتسمى كذلك غزوة أبيض ابن صلصال، ويقصد بالراحة هنا شفاء سيدنا علي كرم الله وجهه من مرض، وله فتوح إفريقية وغير هذا من القصائد الرائعة في هذا الموضوع الخيالي. أما سيدي محمد بن يخلف، فمن قصائده «الرهيب» (الراهب)، و«الضيافة» ويعني بها ضيافة رب العزّة لعباده، وقصة «الشباب مع أبي جهل» و«أبو يزيد البسطامي مع رهبان الديره وغيرها كثير، وقد كان يعيش في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائل الثاني عشر. وهو يؤرخ قصائده. وما وقفت عليه من كلامه مؤرخ ما بين 1095 و 1120 هـ.

وقد كاد ينعدم هذا النوع، إذ لم ينبغ فيه بعد هؤلاء الشعراء إلى أوائل هذا القرن أحد إلا ما كان من قصيدة أو قصيدتين تعرف لبعض الشعراء وكأنهم كانوا يتعمدون النظم في الغزوات والقصص الملحمية ليبرهنوا على براعتهم وقدرتهم ـ فمن ذلك «النباش» للشيخ الجيلالي و«الصالحية» لسيدي عبد السلام الزفري، و«العيوَاجية» للتّي الكبير ابن عطية،

و«الكهفية» للشيخ غانم القصري، و«النرودية» للغَرابْلي - وفي أوائل القرن أحيى هذا النوع الشيخ المكّي ابن القُرْشي فنظم فيه الشيء الكثير «كالعاشقة مولاة التاج» و«جمجمة» و«البغدادية» و«اليوسفية» و«الشـدّادية» و«الشريفة وسيدُوك النصْراني».

وقد كان رجال الاستعمار أيام الحماية يمنعون إنشاد هذه القصائد في الأسواق. وكان المراقبون إذا تقدم لهم أحد «المداحين» يطلب الإذن في السفر للتجول في المدن والقبائل قصد ترويج بضاعته أول ما يسألونه عنه هل يحفظ الغزوات ؟ فإن أجاب بالنفي أعطي الإذن وإلا منع، لأنهم كانوا يخشون بعث العاطفة الوطنية والدينية في النواحي التي كانت ما تزال بعيدة عن أثر الدعوة الاستقلالية.

وهذه نظرة وجيزة عن جانب من هذا الفن البديع وإني اهتم به وأجمع الإنتاجات التي أبدعها الأشياخ المغاربة ونعني بهذا التعبير «الشعراء» منذ نعومة أظفاري وجمعت من القصائد خمسة آلاف قصيدة ومن الشعراء خمسمائة شاعر ووضعت أسس عروضه ومصطلحاته وتجمع من ذلك كله مؤلف ضخم يحتوي على عشرين جزءا أخذت الأكاديمية الملكية المغربية نشره وسيظهر إن شاء الله جزؤه الأول بعد شهر وقد قدم له صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله برسالة سامية أوضحت قيمة هذا العمل وقدرته تقديرا يشرفني ويشرف أكاديميتنا الفتية جازاه الله خيرا عن الثقافة والعلم.

الرباط   محمد الفاسي

ترجمة رباعيات الخيام

مع إثبات نصها الفارسي

محمد ابن تاويت

آن قصر كه بر چرخ همي زد پهلو   بر دركه أو شهان نهادندى رو
ديدم كه بركنگره اش فاختة   بنشته همي گفت كه كوكو كوكو

☆ ☆ ☆

قصر بمنكبه طبّق السما   عنت لأعتابه أملاك الدُّنا
تجثو على قبته فاختة   تصيح «كوكو ؟» تعني «أين هوه هنا ؟

☆ ☆ ☆

آن قصر كه بهرام دروجام گرفت   آهو بچه كرد وروبه آرام گرفت
بهرام كه گور ميگرفتي همه عمر   ديدي كه چه گونه گور بهرام گرفت

☆ ☆ ☆

قصر به بهرام كان يشرب   تنشي به الظبا ويأوي الثعلب
بهرام من كان يصيد الحمر «گوره»   رأيت كيف صاده ذا القبر «گور»

☆ ☆ ☆

إي مفتي شهر أزتو پركارتريم   با إين همه مستي زتو هشيارتريم
ما خون رزان خوريم وتوخون كسان   إنصاف بده كدام خونخوار تريم

☆ ☆ ☆

أنفـــع منـــــك أيهـــــا المفتي أنـــــا ... ومــع ذا السكر أصحى منــــــك أنــــا
تحســو دمـــا النـــاس وغن العنبـــا ... فـــأنصف، من أسفـــك ؟ أنت أم أنـــا ؟

☆ ☆ ☆

شيخي بزن فـــاحشـــه گفتـــا مستي ... هر لحظـــه بـــدام دگرى پـــابستي
گفتـــا شيخـــا هر أنچـــه گـويي هستم ... أمـــا تـــو چنـــانچـــه مينـــائي هستي

☆ ☆ ☆

شيـــخ لعـــــاهر يقـــول، سكرى ... أنت وصيـــــد لحظـــــة لأخرى
قـــالت، أنـــا كـــذا، وحقـــا قـــائـــل ... فهـــل كا تظهر أنت فـــاعـــل ؟

☆ ☆ ☆

دل سرحيـــــات أگر كا هي دانست ... در مرگ هم أسرار الهي دانست
أمروز كـــه بـــاخـودى نـــدانستي هيچ ... فردا كـه زخـود روى چـه خواهي دانست

☆ ☆ ☆

لـــو أدرك القلب سر الحيـــــاة ... لأدرك الأســـرار للممـــــات
فـــاليوم مع نفســـك جـــاهـل لمـــا ... فكيف تعلم غـــــدا سرا لهـــا ؟

☆ ☆ ☆

أز آمـــــدنم نبـــود گردون را ســـود ... وزرفتن من جـــال وجـــاهش نفـــزود
وزهيـــچ كسي نيزدوگـــوشم تشنـــود ... كاين آمـــدن ورفتم أز بهرچـــه بـــود

☆ ☆ ☆

اتيـــاننـــا لم ينتفـــع بـــه الفلـــك ... ولا غـــا جمـــالـــه من هلـــك
مـــا سمعت أذنـــاي قـــط من أحـــد ... فـــائـــدة الاتيـــان والـــذهـــاب قـــد

☆ ☆ ☆

هرگـه كـه طلـوع صبح أزرق بـاشـد ... بـايـد كـه بكف جـام مروق بـاشـد
گـوينـد بـأفـواه كـه مي تلـخ بـود ... بايد به همه حـال كه مي حق بـاشـد

☆ ☆ ☆

كلمـــا الصبـــح بـــدا لي أزرقـــا ... وجب الجـــــام لكف أرقـــــا
زعمـــوهـــا مرة خمرتنـــا ... وكـــذا حقـــا جرت قـــولتنـــا

☆ ☆ ☆

أبر آمـــد وبـــار برسر سبزه گريست ... بي بـاده ى أرغـوان نمي بـايـد زيست
ايروز كـه إين سبزه، تمـاشـاگـه مـاست ... تـاسبزه خـاك مـا تمـاشـاگـه كيست

☆ ☆

جاء السحاب فبكى المطر   بدون خمر ما حلا العمر
في العشب منا يسرح النظر   لن تكون مرحما ينظر

☆ ☆ ☆

در دهر آنكه نيم ناني دارد   وزبهر نشت آشياني دارد
نه خادم كس بود نه مخدوم كسي   أو شاد بزي كه خوش جهاني دارد

☆ ☆ ☆

من كان في الدنيا له نصف رغيف   يملك عش سكن ولو حفيف
لم يك خادما لغير أو خديم   محررا فليهن بالظل الوريف

☆ ☆ ☆

زان پيش كه أز زمانه تابي بخوريم   بايكدگر أمروز شرابي بخوريم
كاين چرخ فلك به وقت رفتن ما   چندان ندهد أمان كه آبي بخوريم

☆ ☆ ☆

من قبل أن يطوينا الزمان   تشرب فاليوم لنا أمان
ذا الفلك الدوار حين نزمع   يضن باللحظة ما أن نبلع

☆ ☆ ☆

مي خور كه بزير كَل بسي خواهي خفت   بي مونس وبي حريف وبي همدم وجفت
زنهار بكس مكَوتو إين راز نهفت   هر لاله كه بزمرده نخواهد بشكَفت

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر طويلا ستنام   لا أنيسا لا زميلا لا حدام
واحذرن لا تفش سرى لأحد   كل زهر نابل لن يستجد

☆ ☆ ☆

آنكه بكار عقل درميكوشند   هيهات كه جمله كَاونر ميدوشند
آن به كه لباس أبلهي درپوشند   كامروز نه عقل تره مي نفروشند

☆ ☆ ☆

أولئك الألى بعقل يجهدون   هيهات كلهم لثور يحلبون
خير لهم أن يرتدوا البلاهه   فاليوم لا كراث بالنباهه

☆ ☆ ☆

ايكاش كه جاي آرميدن بودي   يا إين ره دورا رسيدن بودي
كاش أزپى صد هزار سال أزدل خاك   چون سبزه أميد بردميدن بودي

☆ ☆ ☆

ياليت للراحة من مكان   أو لانتهاء السبل من أوان
لو بعد آلاف السنين ننتعش   من التراب مثلما العشب نعش

☆ ☆ ☆

قومي متفكر ند در مذهب ودين   جمعي متحيرند درشك ويقين
ناكَاه منادى در آيد زكين   كاي بيخبران ره نه است نه إين

☆ ☆ ☆

في الدين والمذهب قوم فكروا   والشك واليقين جمع حيروا
وفجأة يأتي نداه من كين   أن أيها الجهال ما لذاك حين

☆ ☆ ☆

چون مردن تو مردن يكبار كَي است   يكبار بمير إين چه بيچاركَي است
خوني ونجاستي ومشتي رگ وپوست   انكار نبود زين چه غمخواركَي است

☆ ☆ ☆

إذ أن موتك يكون موتة   فرة موتن لم ذي الكبتة ؟
دم وأنجاس وجلد وعظام   فلا يكن نكرا لماذا الغم طام

☆ ☆ ☆

كَربر فلكم دست بدي چون يزدان   برد اشتمي من إين فلكرا أزميان
أزنو فلك دكَر چنان ساختمي   كازاده به كَام دل رسيدي آسان

☆ ☆ ☆

لو كانت لي هيمنة على الفلك   كنخالقي نزعت عنا ذا الفلك
ولخلقت غيره جديدا   نجد فيه أملا فريدا

☆ ☆ ☆

آبادئ ميخانه زمي خوردن ماست   چون دو هزار توبه دركَردن ماست
كَر من نكنم كَناه رحمت چه كند   اسايش رحمت أزكَنه كردن ماست

☆ ☆ ■

حانتنا تعمر من مشروبنا   بينا ألفا متاب طوقنا
رحمة ما هي بلا ذنب لنا ؟   إنما تزدان من آثامنا

☆ ☆ ☆

يزدان چوكَل وجود ما ميآرست   دانست زفعل ماچه برخواهد خواست
بي حكمش نيست هركَناهي كه مراست   پس سوختن قيامت أزبهر چه خواست

☆ ☆ ☆

حين برا اللـــه لنـــا طين الــوجــود | علم من فطلنـــا مـــاذا سيمــود
بــدون حكـــه مـــا كان ذنبتـــا | فـــالحرق مم سيكـــون حظنـــا

☆ ☆ ☆

در رهكَـــذ رم هـــزار جســادام نهي | كَـــوني كـــه بكَيرمت أكَر كام نهي
يـك ذرة زحكم تـو جهـان خـالي نيـت | حكم تـو كني ومـا عـاصيم تـام نهي

☆ ☆ ☆

في سبلي تضـــــــع ألف شرك | تقـول آخـــذك إن ـ في الـــدرك
وقعت والعـــالم ليس نـــاجيـــا | من حكـــك المــاضي وأدعى عــاصيــا

☆ ☆ ☆

أز آب وكَلم سررشتـــه من چـــه كنم | وين پشم مرا تـورشتـــهٔ من چـــه كنم
هرنيـك وبـدى كـه أز من آيـد بـوجـود | تـوبر سر من نـوشتـــهٔ من چـــه كنم

☆ ☆ ☆

من مـــا وطين نشـــأتي، مـــا أصنـع ؟ | وصـوقتي نسجتهـــا، مـــا أصنـــع ؟
كل جميلي وقبيحي في الـــوجـــود | أنت علي كاتب، مـــا أصنـــع ؟

☆ ☆ ☆

آنــانـك محيـط فضـل وأدب شـدنـد | وز جـع كال شمـع أصحـاب شـدنـد
ره زين شب تـاريـك نبردنـد بيرون | كَفتنـد فسـانـه ودر خـواب شـدنـد

☆ ☆ ☆

أولئـــك الألى بفضـــل وأدب | وبـالكـال أصبحـوا شمـع الصحـاب
لم يهتـدوا للبـل من ليـل الظـلام | قـالـوا أسـاطير وصـاروا في المنـام

☆ ☆ ☆

تـــا بتـواني رنجـــه مكَردان كسرا | بر آتش خشم خـويش منشـــان كسرا
كَر راحت جـاودان طمـع ميـداري | ميرنـج همشــه ومرنجـــان كسرا

☆ ☆ ☆

لا تتعبن متى استطعت أحـــــدا | لا تجلـن بنـــار غيـــظ أحـــدا
إن تــك في دوام راحـــة طمـع | فـاتعب مـداومـا لا تتعب أحـدا

☆ ☆ ☆

آن دهركـــه بـود مـــدتي منزل مـــا | نـامـد بجـز از بـلا وغم حـاصـل مـا
أفسوس كـه حـل نكَشت يـك مشكل مـا | رفيم هـــزار حسرت أنـــدر دل مـــا

☆ ☆ ☆

ذاك دهر مــــــــدة كان لنــــــــا — لم ينــل حــــاصلتنـــا غير العنـــا
أسفـــا مـــا اغـــل من مشكلنـــا — فـــذهبنـــا والأسى يغمرنـــا

☆ ☆ ☆

آمـــد سحرى نـــداز ميخـــانــه مـــا — كـــه رنـــد خرابـــات ديـوانـــهٔ مـــا
برخيز كـــه پركنيم جـــامــــهٔ زمي — زان پيش كـــه پركننـــد پيمانـــهٔ مـــا

☆ ☆ ☆

أتى نـــداه سحرا من حــــانـــة — مجنونتنـــا مـــولـــه الخرابـــة !
انهض لنمــلا قــــدحــــا من خمر — من قبـــل مـــلء كاسهم من جـــذرى

☆ ☆ ☆

برخيز وبيـــا بتـــا براى دل مـــا — حـــل كن بجمال خـــويشتن مشكل مـــا
يــك كــوزهٔ مي بيـــار تـــانــوش كنيم — زان پيش كه كوزه هـا كنند أزكـل مـا

☆ ☆ ☆

انهض لقلبنـــا تعـــال يـــاجيـــل — وحـــل بـــالجمـــال مشكـــلا وبيـــل
وهـــــــات كـــــوز خمرة فنكرع — من قبـــل لكـــد طينتنـــا ليصنعـــوا

☆ ☆ ☆

إي كــوزه گران بكــوش اگر هشيـــاري — تـــاچنـــد كني بركـــل آدم خـــواري
أنكشت فريــــــــدون وكف خسرو — بر چرخ نهـــادهٔ چـــه مي پنـــداري

☆ ☆ ☆

يــــا أيهـــا الخـــزاف إن كنت تعي — إلى متى طينتنـــــــــا لا ترتعي
أصبــــــــع افردون وكف كــري — وضعتـــــا في دولب أمـــــا ترى ؟

☆ ☆ ☆

دى كــوزه كَرى بـديـدم أنـــدر بـــازار — بر پـــارهٔ گلي لكـــد همي زد بسيـــار
وآن كَــل بـزبـــان حـــال بـــأوى ميگفت — من همچـــو تـــو بـــوده ام مرانيكـــودار

☆ ☆ ☆

شـــاهـــدت خـــزافـــا بســـوق أمس — يـــدوس طينـــة شـــديـــد الـــدوس
كانت تقـــول بلســـان حـــالهـــا — أنـــا كـــذا مثلـــك كنت. انتبهـــا !

☆ ☆ ☆

عمرت تـــاكي بخـــود پرستي گـــذرد — يـــادربي نيستي وهستي گـــــذرد
مي نوش كـه عمري كه أجل دربي أوست — آن بـــه كـــه بخـــواب يـــا بمتي گـــذرد

☆ ☆ ☆

إلى متى عمرك يمضي جـاهـدا　　في «اللبس والأيس» ونفس عـابـدا
فـاشرب فـإن المـوت يعقب العمر　　خير لـنا أن ينقضي نـومـا او سكر

☆ ☆ ☆

تـا زهره ومـاه در آسمان گشت پـديـد　　بهتر زمي نـاب كـي هيـچ نـديـد
من در عجبم زمي فـورشـان كايشـان　　به زآنچه فروشند چه خواهنـد خريـد

☆ ☆ ☆

منـذ بـدا القمر والـزهرة مـا　　رؤى خير من طـلا تختـا
عجبت من بـائعي خمر يبتغـون　　أحسن من تلـك التي هم بـائعـون

☆ ☆ ☆

گرزمي مغـانـه مستم مستم　　گر كافر وگبر وبتپرستم هستم
هر طـائفـه بمن گماني دارنـد　　من زان خـودم چنـانكـه هستم هستم

☆ ☆ ☆

إن همت في خمر المجـوس هـا أنـا　　أو قيـل كافر مجـوسي هـا أنـا
كل لـه ظن ولكني أنـا　　مـالـك نفسي حرة كما أنـا

☆ ☆ ☆

روزى كه گـذشتـه است أزو يـاد مكن　　فردا كـه نيـامـده است فريـاد مكن
بر نـامـده وگـذشتـه فريـاد منـه　　حـالي خـوش بـاش وعمر بربـاد مكن

☆ ☆ ☆

لا تـذكرن يـومـا مضى فيما مضى　　لا تجـزعن من غـدنـا فيما قضى
فـالمـاضي والآتي اتركن ذكرهـا　　طيبن نفـسا واعمرن غيرهـا

☆ ☆ ☆

گرگـوهر طـاعتت نسفتم هرگـز　　گرد گنـه أزچهره نرفتم هرگـز
نـوميـد نيم زيرگـاه كرمت　　زيرا كـه يكرا دو نگفتم هرگـز

☆ ☆ ☆

إلا نظمت جـوهر الطـاعـة قـط　　وزحت عن خـدى غبـار الـذنب قـط
فلست قـانطـا ببـاب كرمـك　　إذ مـا زعت واحـدا اثنين قـط

☆ ☆ ☆

يـا رب خردم در خـور اثبـات تـونيست　　وأنـديشـهٔ من بجـز منـاجـات تـونيست
من ذات ترا بـواجبي كي دانم　　داننـده ذات تـو بجـز ذات تـونيست

☆ ☆ ☆

عقلي عاجز لا ثباتك رب … وفكري إلا بمناجاتك رب
فكيف لي أدرك ذاتك يارب … لامدرك ذاتك إلا أنت رب

☆ ☆ ☆

گفتي كه ترا عذاب خواهم فرمود … هرگز من از اين خبر هراسم نفزود
جاي كه تو ئي عذاب نبود آنجا … وآنجا كه تو نيستي كجا خواهد بود

☆ ☆ ☆

قد قلت لي إني سو أعذب … وأنا من ذا قط لست أوجب
فلا يكون حيث أنت من عذاب … وكيف دونك يكون من جناب

☆ ☆ ☆

من بندهٔ عاصيم رضاي توكجاست … تاريك دلم نور صفاى توكجاست
مارا تو بهشت أگر بطاعت بخشي … إين بيع بود لطف عطاي توكجاست

☆ ☆ ☆

إني أنا العاصي رضاك أين هو … أظلم قلبي وصفاك أين هو
إن كنت بالطاعة تعطي جنة … فذاك بيع وعطاك أين هو

☆ ☆ ☆

ناكرده گنه درجهان كيست بگو … وآنكس كه گنه نكرد چون زيست بگو
من بدبكنم وتو بد مكافات دهي … پس فرق ميان من وتوچيست بگو

☆ ☆ ☆

من الذي لم يذنب في الحياة قل … والذي لا يذنب كيف عاش قل
إذا أسأت وجزائي مثلها … إذن فيما الفرق لنا ؟ ربي قل

☆ ☆ ☆

إي همنفسان مرا به مي قوت كنيد … وين چهره كهربا چو ياقوت كنيد
چون مرده شوم به مي بشوييد مرا … وزچوب رزم تختهٔ تابوت كنيد

■ ☆ ☆

يا أشقا النفس اجعلوا راحي قوت … وصيروا مصفر خدى ياقوت
وغسلوني بالخمور ماتتا … واتخذوا تابوتي كرما نابتا

■ ☆ ☆

آنم كه پديد گشتم أز قدرت تو … پرورده شدم بناز در نعمت تو
صد سال بامتحان گنه خواهم كرد … تاجرم منست بيش يا رحمت تو

■ ☆ ☆

أنــا الــذي بقــدرتـك ظهرا ... وبــدلال نعمــة قــد ظفرا
مــائــة عــام سوف أكثر الــذنــوب ... حتى أرى الرحــمــة أم ذنبي يصــوب

☆ ☆ ■

آنها كــه زبيش رفتــه انــد إي ســاقي ... در خــاك غرور خفتــه انــد إي ســاقي
رو بــاده خــور وحقيقت أز من بشنــو ... بــادست هر آنچــه گفتــه انــد إي ســاقي

☆ ☆ ☆

أولا الــذين رحلــوا يــا ســاقي ... نــامــوا بتربــة الغرور ســاقي !
هيــا اشرب الخمر ومني اسمعن ... حقيقــة ـ قــالــوا هراء ســاقي !

☆ ☆ ☆

أفسوس كــه سرمايــه زكف بيرون شــد ... وزدست أجــل بسي جگرهــا خــون شــد
كس نــامــد از آن جهــان كــه برسم أزوي ... كأحــوال مســافران عــالم چــون شــد

☆ ☆ ☆

راس مــالي أمضــا قــد ذهبــا ... كم دمــاء سفــك المــوت هبــا
لا أرى من عــاد من ذاك السفر ... فيخبرني عن حــال السفر

☆ ☆ ☆

سير آمــدم إي خــداى هستي خــويش ... أزتنــك دل وأزتهي دستي خــويش
أز نيست چــوهست ميكني بيرون آر ... زين نيستم بحرمت هستي خــويش

☆ ☆ ☆

شبعت بــالهي من وجــودي ... وضيــق صــدري ويــدي عن جــودي
بــا وجــودي صغتــه من العــدم ... بحرمــة الــوجــود أخرج من عــدم

☆ ☆ ☆

خيام كــه خيمــه هــاي حكمت ميدوخت ... در كــوره غم فتــاد ونــاگــاه بسوخت
مقراض أجــل طنــاب عرش ببريــد ... دلال أمــل بر ايكانش بفروخت

☆ ☆ ☆

خيــام خــائــط خيــام الحكمــة ... وقــع فجــأة بكــور الغمــة
فقطــع المقراض أطنــاب الأجــل ... وبــاعــه دلالــه بــلا أمــل

☆ ☆ ☆

أز تــو برفت جــان پــاك من وتــو ... خشتي تــو نــدهنــد بر مغــاك من وتــو
وآنكــه زبراي خشت كــور دگران ... در كالبــدي كشنــد خــاك پــاك من وتو

☆ ☆ ☆

إذا خلت من جسمنــا الأرواح ... لبنتــان فــوقنــا أشبــاح
ثم من أجــل أجر لغيرنــا ... هم يملأون قــالبــا من تربنــا

دنيانه مقام تست نه جاي نشست فرزانه در أو خراب أو ليتر ومست
بر آتش غم زباده أبي ميزن زان پيشس كه در خاك روى باد بدست

☆ ☆ ☆

ليست لك الدنيا مقاما أو قرار خير بها لعاقل صرع السكر
فاسكب على نار الغموم ما الطلا من قبل أن تصير فارغا يسدا

☆ ☆ ☆

دنيا براد رانده كير آخرچه وين نامهٔ عمر خوانده كير آخرچه
كيرم كه بكام دل بما ندى صد سال صد سال دكر بما نده كير آخرچه

☆ ☆ ☆

دنيا تنيلنا مرادا، ما هي ؟ رسالة لعمر قار، ما هي ؟
فلو بقيت ناعما مائة عام ثم بقيت مثل تلك ما هي ؟

☆ ☆ ☆

سيم أرچه نه مايهٔ خردمندانست بي سيان راباغ جهان زندانست
أزد هت تهي بنفشه سر بر زانوست دركيسه زردهان كل خندانست

☆ ☆ ☆

ذوو العقل إن كانوا لا يكنزون فروض الدنا للفقير سجون
فهذا البنفسج من عدمه يطأطئ، والورد في بسمه

☆ ☆ ☆

درچشم عققان چه زيبا وچه زشت منزلكه عاشقان چه دوزخ چه بهشت
پوشيدن بيدلان چه أطلس چه پلاس زير سر عاشقان چه بالين وچه خشت

☆ ☆ ☆

ما الحسن والقبح لدى المحققين ؟ ما النار ما الجنة عند العاشقين
وما الحرير والسدى للوالهين والريش والحجر تحت المدنفين

☆ ☆ ☆

جزراه قلندران ميخانه مپو جز باده وجز سماع وجز يار مجو
بركف قدح باده وبردوش سبوي مي نوش كن أي نكار وبيهوده مكو

☆ ☆ ☆

لا تسلكن غير سبيل الحانه وغير راح وسماع الغانيه
لكفك الكأس ومتنك الدنان فاشرب جيلي لا تقل ما لا يصان

☆ ☆ ☆

دشمن بغلط گفت كه من فلسفيم   إيزد داند كه آنچه أو گفت نيم
ليكن چودراين غم آشيان آمده ام   آخركم از آنكه من بدانم كه كيم

☆ ☆ ☆

قد زعم العدو أني فلسفي   والله يعلم مقالا ليس في
لكني إذ جئت إلى دار الغموم   فإن دركى ممن أنا لي لزوم

☆ ☆ ☆

چون ميگذرد عمر چه شيرين وچه تلخ   پيمانه چو پر شود چه بغداد چه بلخ
مي نوش كه بعد از من وتو ماه بسي   أز سلخ بغره ايد أز غره بسلخ

☆ ☆ ☆

إذ ينقضي العمر فعلوه سيان   وامتلأ الكأس بلخ كبغدان
فاحس المدام بعدنا الأقار   من سلخها لغرّة تدار

☆ ☆ ☆

إين چرخ چو طاسيست نگون افتاده   دروي همه زيركان زبون افتاده
بر دوستيء شيشه وساغر نگريد   لب برلب ودر ميانه خون افتاده

☆ ☆ ☆

فلكنا كشل طاس قلبا   داخله كل ذكي نكبا
ألا ترى حب بريق للقداح   بين الشفاه دائما دم سفاح

☆ ☆ ☆

تاچند اسير رنكَ وبو خواهي شد   چند ازپي هر زشت ونكَو خواهي شد
كَرچشمهٔ زمزمي وكَر آب حيات   آخر بدل خاك فرو خواهي شد

☆ ☆ ☆

إلى مق للون والانام   تسعى وللطيب في اهتمام !
فلو شربت زمزما وما الحياه   سوف تغور في بطون ذى الرفاه

☆ ☆ ☆

كَر باده خوري تو با خردمندان خور   يا باصنمي لا له رخ وخندان خور
بسيار مخور فاش مكن وزد مساز   اندك خور وگه گاه خور وپنهان خور

☆ ☆ ☆

إذا شربت فاشربن منادما   عاقلا أو وردي خد ناعما
لا تكثر الشرب ولا تفش ولا   تصخب، وأقلل واجرعن مختفيا

☆ ☆ ☆

كَرمي نوشد كَدا به ميرى برسد ‏ ‏ ‏ ور روبهكي خورد بـه شيرى برسد
ورپير خورد جواني آز سر كَيرد ‏ ‏ ‏ ور زآنكه جوان خورد به پيرى برسد

☆ ☆ ☆

لو شرب الخر فقير أمرا ‏ ‏ ‏ أو ثعلب شربها تقسورا
أو الشيخ الهرم جاء يافعا ‏ ‏ ‏ أو الفتى عر شيخا قابعا

☆ ☆ ☆

سر دفتر عالم معاني عشق است ‏ ‏ ‏ سر بيت قصيدة جواني عشق است
إي آنكه خبر نداري أز عالم عشق ‏ ‏ ‏ إين نكته بدان كه زندكَاني عشق است

☆ ☆ ■

العشق سر دفتر المعاني ‏ ‏ ‏ بيت قصيدة الشباب السداني
أيامن لا علم له من عشقنا ‏ ‏ ‏ اعلم فإن العشق هو حياتنا

☆ ☆ ☆

يك نان به دو روز كَر شود حاصل مراد ‏ ‏ ‏ وزكوزهٔ اشكته دمي آبي سرد
ما موركسي دكَرچرا بايد بود ‏ ‏ ‏ يا خدمت چون خودي چرا بآيد كَرد

☆ ☆ ☆

لو كان للمره رغيف يحصل ‏ ‏ ‏ يوميه مع جرعة كوز يوصل
فلم يرى لغيره مأمورا ‏ ‏ ‏ أو خاد ما لمثله مجبورا ؟؟

☆ ☆ ☆

نازم به خرابات كه أهلش أهلست ‏ ‏ ‏ چون نيك نظر كني بدش هم سهلست
از مدرسه بر غاست يك أهل دلي ‏ ‏ ‏ ويران شود إين خرابه دار الجهلست

☆ ☆ ☆

يأهلي أهل للخراب أفخر ‏ ‏ ‏ طالحهم إذا نظرت أيسر
ما لخرجت مدرسة أهل القلوب ‏ ‏ ‏ فلتنهدم دارا لجهل ولغوب

■ ☆ ☆

رفتم وزما زمانه آشفته بماند ‏ ‏ ‏ با آنكي زصد كهر يكي سفته بماند
أفسوس كه صد هزار معنيء دقيق ‏ ‏ ‏ أز بي خردي خلق ناكفته بماند

☆ ☆ ☆

ذهبنا وظل يعيش الزمان ‏ ‏ ‏ ومن مائة جوهرا ما أبانوا
سوى درة، أسفا للمعاني ‏ ‏ ‏ تضن على الجهلا بالتدان

☆ ☆ ☆

مي خوركه مدام راحت روح تو أوست ... آسايش جان ودل مجروح تو أوست
طوفان غم أر در آيد أز پيش وپست ... در باده گريز كشتيء نوح أوست

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر فهي راحة روح ... ولأمان النفس والقلب الجريح
فإذا طوفان غم دهما ... فائتو للخمر فهي فلك لنوح

☆ ☆ ☆

چون حاصل آدمي درين جاي دودر ... جز درد دل ودادن جان نيت دگر
خرم دل آنكه يك نفس زنده بود ... وآسوده كسيكه خود نزاد أز مادر

☆ ☆ ☆

بما لنا في الدار ذات البابين ... غم فؤاد ووفاة لا مين
فإن من سر يعيش لحظة ... ومن هني لم يتهل بتة

☆ ☆ ☆

إين كهنه سرا كه عالم أورا نامست ... وآرامگه أبلق صبح وشام أست
بزميست كه وامنده صد جشيدست ... قصريست كه تكيه گاه صد بهرام أست

☆ ☆ ☆

صرح عتيق قد دعي بالعالم ... مقر صبح ومساء أدهم
مجلسه حوى مائات جشيد ... بقصره اتكا مائات بهرام

☆ ☆ ☆

آن به كه زجام باده دل شاد كني ... وزنامده وگذشته كم ياد كني
وين عاريتي روان زنداني را ... يك لحظه زيند عقل آزاد كني

☆ ☆ ☆

الخير أن تبهج قلبا بالطلا ... وأن تقل ذكر آت أو مضي
وهذه عارية الحياة ... تطلقها من قيد عقل عات

☆ ☆ ☆

تا يار شراب جانفزايم ندهد ... صد بوسه فلك بدست وپايم ندهد
گويند كه توبه كن كه وقتش آمد ... چون توبه كنم تاكه خدايم ندهد

☆ ☆ ☆

ما لم يسقني شرابها الحبيب ... فلكي لخدمتي لا يستجيب
يقال تب توبة آن وقتها ... كيف أتوب وإلهي لا يجيب

☆ ☆ ☆

تـا خـاك مرا بـه قـالب آعختـه انـد | بس فتنه كه زين خاك بر أنگيخته اند
من بهتر أزين غي تـوانم بـودن | كـزبوتـه مرا چنين برون ريختـه انـد

☆ ☆ ☆

بمـا هم قـد وضعـوني قـاليـا | وأي ثـورة أثـاروا التـوربـا
فلست أستطيـع خيرا أن أكـون | فهكـذا أفرغت من كـور الفتـون

☆ ☆ ☆

إين يـك دوسـه روزه نوبت عمر گـذشت | چون آب بجويبـار وچـون بـاد بـدشت
هرگـزغم دوروزه مرايـاد نگـشت | روزى كه نيامدست وروزى كه گذشت

☆ ☆ ☆

قـد ذهبت أيـام هـذا العمر | كالريـح في صحرا ومـا في النهر
لم يـك ذكرى ليـومين شجي | يـوم مضى وآخر لمـا يجي

☆ ☆ ☆

تـاچنـد كنم عرضـهٔ نـادانيء خـويش | بگرفت دل من أز پريشـانيء خـويش
زنـار مغـانـه برميـان خـواهم بست | داني زچـه ؟ أزننـگ مسلمـاني خـويش

☆ ☆ ☆

إلى متى جهـالتي أعرضهـا | نفسي حـانت من شتـات مـا بهـا
سـوف أشـد وسطي زنـارا | تـدري لمـاذا ؟ كـوني مسلم عـارا

☆ ☆ ■

خـورشيـد كنـد صبح بر بـام أفكنـد | كيخسرو روز بـاده درجـام أفكنـد
مي خـوركـه منـادئ سحرگـه خيزان | آوازهٔ «اشربـوا» درأيـام أفكنـد

☆ ☆ ☆

نصبت الشمس شبـاك الصبـح | وصب خرا ملكـه في قـدح
فـاشرب فهـذا سحر يـؤذن | أن «اشربـوا» أيـامكم لتـأمنـوا

☆ ☆ ☆

بر مفرش خـاك خفتگـان مي بينم | در زير زمين نهفتگـان مي بينم
چنـد انكـه بـه صحراى عـدم مي نگرم | نـا آمـدگـان ورفتگـان مي بينم

☆ ☆ ☆

أرى على فراش أرض نـائمين | وتحت أطبـاق الثرى مستترين
وكلمـا لحت صحراء العـدم | رأيت غير هـؤلاء أجمعين

☆ ☆ ☆

برگير زخود حساب اگر باخبری　　کاول توچه آوردی وآخر چه بری
گويي نخورم باده كه ميبايد مرد　　ميبايد مرد اگر خوري يا نخوري

☆ ☆ ☆

حاسب النفس بما أنت خبير　　ما أنت أو فستاني من جرير
إن تقل لا أحسو خمرا سأموت　　فبشرب وبغير ستموت

☆ ☆ ☆

إين صورت كون جمله نقش وخيال　　عارف نبود هركه نداند إين حال
بنشين قدحي باده بنوش باش　　فارغ شو أزين نقش خيالات محال

☆ ☆ ☆

صورة هذا الكون نقش وخيال　　ليس بعارف من لا يفهم حال
فاجلس لشرب قدح واسعد به　　ولا تبال بالنقوش والخيال

☆ ☆ ☆

ما خرقهٔ زهد برسر خم كرديم　　وزخاك خرابات تيم كرديم
شايد بدر ميكدها دريابيم　　آن عمر كه در مدرسه هاكم كرديم

☆ ☆ ☆

بخرقة الزهد سترنا الدنا　　ولصعيد الحان قد يممنا
لعلنا ندرك عند الباب　　عمرا أضاع معهد الألباب

☆ ☆ ☆

من بي مي ناب زيستن نتوانم　　بي باده كشيد بارتن نتوانم
من بندهٔ آن دمم كه ساقي گويد　　«يك جام دگر بگير» ومن نتوانم

☆ ☆ ☆

العيش دون راح لست أستطيع　　بدونها جسمي لست أستطيع
عبد أنا للحظة الساقي يقول　　«خذ كاسا اخرى» وأنا لا أستطيع

☆ ☆ ■

بر دار پياله وسبو إي دلجو　　بر گرد بگرد سبزه زار ولب جو
كين چرخ بسي قد بتان مهرو　　صد بار پياله كرد وصد بار سبو

☆ ☆ ☆

تناول ابريقا وكأسا باللطيف　　وجول روض خضر بالشط طف
فالفلك من قد الحسان قد صنع　　مائة كأس وأباريق وضع

☆ ☆ ☆

أز كَردش روزكَـــار بهرى بركَير — بر تخت طرب نشين بكف ســاغر كَير
أز طـاعت ومعصيت خـدا مستغنيست — بـارى تـو مراد خـود زعـالم بركَير

☆ ☆ ☆

اغتنم حظـك من تلـو الليـال — واطرين عتـيـا بنت الـدوال
فـالهي في غنى عن طـاعـة — وعصـاة فـانعمن في كل حـال

☆ ☆ ☆

سر مست بـه ميخـانـه كَـذركردم دوش — پيرى ديـدم مست وسبـوئي بردوش
كَفتم زخـدا شرم نـدارى، إي پير — كَفتـا كرم أز خـداست، مي نوش وخموش

☆ ☆ ☆

جـزت بحـان ثملا ليـلا أجن — إذا بشيـخ سكر ومعـه دن
قلت أمـا تستحي من ربـك يـا ! — قـال كريم ربنـا فـاشرب أيـا !

☆ ☆ ☆

هين صبح دميد ودامن شب شد چاك — برخيز وصبـوح كن چراي غمنـاك
مي نـوش دلا كـه صبح بسيـار دمـد — أو روى بـه مـا كرده ومـا روى بخـاك

☆ ☆ ☆

طلـع الصبـح وذيـل الليـل زال — فـانهضن بـاكر ودع غمـا وبـال
واشربن يـا قلبي فـالصبـح يـؤوب — نحـونـا لكننـا لسنـا نـؤوب

☆ ☆ ☆

كَوينـد كـه ماه روزه نزديـك رسيـد — من بعـد بكَرد بـاده نتوان كَرديـد
در آخر شعبـان بخورم چنـدان مي — كانـدر رمضـان مست بيفتم تـاعيـد

☆ ☆ ☆

يقـولـون شهر الصـوم آن أوانـه — فمن بعـد لن يرتـاد للشرب حـانـه
سـأكرع في شعبـان خمرا تـرويني — مـدى الشهر حتى العيـد ثم تعـودني

☆ ☆ ☆

مـا لعبت كانيم وفلـك لعبتبـاز — أز روى حقيقتي نـه أز روى مجـاز
بـازيچـه كنـان بـدنم بر نطـع وجـود — رفتيم بصنـدوق عـدم يـك يـك بـاز

☆ ☆ ☆

نحن ألاعيب بنـا الفلـك تـدور — حقـا ومـاذا من مجـاز قـد يحور
لقـد لعبنـا في بسـاط الكـون — ثم اختفينـا واحـدا فـاثنين...

☆ ☆ ☆

كَر آمدنم بن بدى نامدمي ... ور نيز شدن بن بدى كِى شدمي
به زان نبدي كه اندر إين دير خراب ... نه آمدمي، نه شدمي، نه بدمي

☆ ☆ ☆

لو كان باختياري ما أتيت ... وخلقتي بيدي ما خلقت
عدمي خير من وجودي في الشقا ... فلا مجيء لا ذهاب لا بقا

☆ ☆ ■

روزى كه دو مهلتت مي خور مي ناب ... كاين عمر دو روزه بر نكَردد دريـاب
داني كه جهان رو بخرابي دارد ... تونيز شب وروز هي بـاش خراب

☆ ☆ ☆

احْسُ الحيا كل يوم مرتين ... واعلم بأن العمر ليس مرتين
في علمنا أن المصير للخراب ... فكن كنا ليل نهار في خراب

☆ ☆ ☆

نيكي وبدى كه در نهاد بشرست ... شادى وغمي كه در قضا وقدرست
باچرخ مكن حواله كاندروه عقل ... چرخ أز تو هزار بار بيچاره ترست

☆ ☆ ☆

الخير والشر لدى طبع البشر ... والغم والفرح قضاء وقدر
فلا تحل شيئا على الأفلاك ... فدون عقلك قوى الأفلاك

☆ ☆ ☆

چون حاصل آدمي درين شورستان ... جز خوردن غصه نيست يا كندن جان
خرم دل آنكه أز جهان بيرون شد ... آسوده كسى كه خود نيامد بجهان

☆ ☆ ☆

بما ليس للإنس في ذى الحياه ... سوى غصة أو عذاب يراه
فطوبي لمن حاد عن عالم ... وأطيب بن ليس بالقادم

☆ ☆ ☆

بنكَرز صبا دامن كَل چاك شده ... بلبل زجمال كَل طربناك شده
در سايهٔ كَل نشين كه بسيار إين كَل ... أز خاك برآمده ست ودر خاك شده

☆ ☆ ☆

انظر إلى الصبا بها تمزقت ... ذيول ورد وطيور شقشقت
أطل، جلوسا في ذرا الورد فقد ... نبت من ترب وصار ترب رد

☆ ☆ ☆

توبه مكن أزمي أكرت مي بأشد — صد توبه نادمانه دربي باشد
كل جامه دران وبلبلان نعره زنان — در وقت چنين توبه رواكي باشد

☆ ☆ ☆

إذا أحرزت خرا لا تتوبا — فإن لذا زمانا مستجيبا
تفرى الورد إذ غنى البلابل — وإن التوب إذ ذا لن يطيبا

☆ ☆ ☆

خيام تنت بخيمة ماند راست — جان سلطانيكه منزلش دار بقاست
فراش أزل زبهر ديكر منزل — نه خيمه بيفكند چو سلطان برخاست

☆ ☆ ☆

جسمك ياخيام خيمة، وروح — سلطانه، دار البقا لها صروح
موكل الأزل حين يرحل — ينقضها لآخر فينزل

☆ ☆ ☆

أز آمدن ورفتن ما سودى كو — وزتار أميد عمر ما بودى كو
در چنبر چرخ جان چندين پاكان — ميسوزد وخاك ميشود دودي كو

☆ ☆ ☆

أين نفع للمجئ والذهاب — أين لحات سدى العمر الرغاب
في محيط الفلك أرواح الحسان — تتلظى، فرمادا، لا دخان

☆ ☆ ☆

كر أزپى شهوت وهوا خواهي رفت — أز من خبرت كه بي نوا خواهي رفت
بنكرچه كسي وأزكجا آمده — ميدان كه چه ميكني، كجا خواهي رفت

☆ ☆ ☆

إن كنت للشهوة والهوى تميل — فاعلم فأنت في المرام ستفيل
تدبر من أنت ومن أين المجي — وما الذي تأتي وأين تلتجي

☆ ☆ ☆

هرچند كه رنك وبوى زيباست مرا — چون لاله وچو سرو بالاست مرا
معلوم نشد كه در طربخانه خاك — نقاش أزل بهرچه آراست مرا

☆ ☆ ☆

مهمى يكن ريحي ولوني جميل — وقامتي كالبان والسرو القويم
فليس معلوما لدى دار السرور — نقاشي لم أبدعني قبل الدهور

☆ ☆ ☆

كَل كَفت به أز لقاى من روى نيست   چندين ستم كَلابكَر بسارى چيست
بلبل بزبان حال با أو ميكَفت   يك روز كه خنديد كه سالي نكريست

☆ ☆ ☆

قالت الوردة لا أنضر من   وجهي لم عاصر زهر لي مهين
قال بلبل بلسان حاله   ضاحسك يومه باكي عامه

☆ ☆ ☆

مهتاب به نور دامن شب بشكَافت   مي خور كه چنين دمي دكَر نتوان يافت
خوش باش وبر أنديش كه مهتاب بسي   أندر سرخاك يك بيك خواهد يافت

☆ ☆ ☆

شق هدب الليل هذا القمر   فاشربن لحظة عمر تندر
وطب النفس وثق أن القمر   فوق قبرينا طلوع لن يذر

☆ ☆ ☆

آنها كه بفكر در معنى سفتند   در ذات خداوند، سخنها كَفتند
سر رشتهٔ أسرار ندانست كي   أو زنخي زدند، وآخر خفتند

☆ ☆ ☆

أولئك الألى بفكر نظموا   در معاني الذاته حقا وهموا
لا أحد يدرك سر الأحد   قد حاولوا وناموا نوم سرمدي

☆ ☆ ☆

آغاز روان كَشتن إين زرين تاش   وأنجام خراب چنين نيك أساس
دانسته نمي شود بمعيار عقول   سنجيده نميشود بمقياس قياس

☆ ☆ ☆

مبدأ دور طستنا المذهب   ومنتهى خراب راسي الصل
ليس عيار العقل مدركا له   ولا يقاس بقياس كنهه

☆ ☆ ☆

أجرام ساكنان إين ايوانند   أسباب تردد خرد مندانند
هان، تاسر رشته خرد كَم نكني   كانها كه مدبر ند، سر كَردانند

☆ ☆ ☆

أجرام ما يحويه ذا الإيوان   للعقل في إدراكها خسران
احذر تضيع الرشد في أغوارها   من دبروا لدوارهم أعوان

☆ ☆ ☆

جز حكي كه حكم را شايد نيست — حكمي زحكم حق فزون آيد نيست
هرچيز كه هست، آنچنان مي بايد — آن چيز كه آنچنان نمي بايد نيست

☆ ☆ ☆

غير الإله الحق ليس بحاكم — وبغير حكم الله ليس بناظم
كل الوجود تناسقت آياته — وبدون ذا لا مبتغى للعالم

☆ ☆ ☆

هنگام سفيده دم خروس سحرى — دانه كه چرا همي كند نوحه گرى
يمني، كه نمودند در آيينهٔ صبح — كز عمر شبي گذشت وتو بي خبرى

☆ ☆ ☆

تعلم لم يصيح ديك السحر ؟ — إنه يعني لفتهم للنظر
إلى مراة الصبح حق يعلما — أن ذهبت ليلة عمر ندما

☆ ☆ ☆

إين عقل كه در راه سعادت پويد — روزى صد بار، خودترا ميگويد
درياب تو اين يكدمه فرصت كه نه ئي — آن تره كه بدروند وديگر رويد

☆ ☆ ☆

ذا العقل يمى قدما لمده — يقول دوما ادرك لصيده
فأنت لسيت مثل ذا الكراث — يحصد ثم ينمو بالحراث

☆ ☆ ☆

روزى كه جزاى هر صفت خواهد بود — قدرتو بقدر معرفت خواهد بود
در حسن صفت كوش كه در روز جزا — حشر تو بصورت صفت خواهد بود

☆ ☆ ☆

يوم الجزاء فيه كل عمل — يجزى بما يعرفه ذو العمل
فاحرص على حسن الصفات يوم ذاك — فأنت تحشر بما لك هناك

☆ ☆ ☆

آن به كه درين زمانه كم گيري دوست — با أهل زمانه، صحبت أز دور نكوست
آنكس كه ترا به جمله كي تكيه بر أوست — چون چشم خرد بازكني دشمن توست

☆ ☆ ☆

خير بهذا الزمن أن تقلا — خلا وعن صحبك أن تكلا
ذاك الذي إليه قد ركنتا — لربما عاداك إن نظرتا

☆ ☆ ☆

أزجرم حضيض خـــاك تـــا أوج زحـل | گردم همـــه مشكـــلات گردون راحـــل
بيرون جستم زبنـــــدهر مكر وحيـــل | هر بنـد گشـاده شـد، مگر بيـد أجـل

☆ ☆ ☆

من حضيض الترب حتى زحـــــــل | قـــد حللنـــا مشكل الكـــون الجلي
وكسرنـــــا قيـــــد مكر وحيـــل | غير قيـــد واحـــد، قيـــد الأجـــل

☆ ☆ ☆

تـاظن نـه برى كـه أز جهـان مي ترسم | وأز مردن وزرفتن جـــــــان مي ترسم
مردن چوحقيقتي ست زان بـــاكم نيست | چــون نيـــك نـــزيستم أز آن مي ترسم

☆ ☆ ☆

كي لا تظن أنني أخشى الـــــدنـــــــا | أو أنني أخشى الممات والفنـــــــــا
فـــالموت حـق لا أبـــالي أن يــزور | إنمـــا خــوفي من حيـــــاة لا تسر

☆ ☆ ☆

گر من گنـــــــه روى زمين كرد ستم | عفـو تـو أميـــدست كــــه گيرد دستم
گفتي كـــه بـــه روز عجـز دستت گيرم | عـاجـزتر أزين مخـواه كـه أكنـون هستم

☆ ☆ ☆

لـــــــو أنني أذنبت مـــــلء الأرض | فـــالعفـو منـــك يـــا إلهي فرضي
قلت، أنـــــا بيـــــد كل عـــــاجــز | آخـــذ، لا تـــذرني أوهى عـــاجــز

☆ ☆ ☆

أي واقف أسرار ضير همـــــــــه كس | درحـــالت عجــز، دستگير همـــه كس
يـا رب تـو مرا تـوبـه ده وعـذر پـذير | إي تـوبـه ده وعـذر پـذير همـه كس

☆ ☆ ☆

يـــا واقفـــا على خفـــايـــا الضير | فمغـــــذ بيـــــد كل عــــان أسير
وامنــح قبـول تـوبتي يـــالـــــه | يـــا قـــابـل التـوب، غفـورا قـــدير

☆ ☆ ☆

بس خون كسان كـه چرخ بي باك بريخت | بس گـل كـه بر آمـد زگـل وپـاك بريخت
بر حسن وشبـاب أي جـوان غره مبـاش | بس غنچـهٔ نـاشكفتـه برخـاك بريخت

☆ ☆ ☆

لشـــد مـــا الفلـــك دمـــا سفكا | وطـــالمـــا الـــورد نمـــا ثم اتكا
فـلا يغرنـــك الجمـــال يـــا شبـــاب | قرب أكمام نثرن في التراب

☆ ☆ ☆

چندين غم مال وحسرت دنيا چيست   هرگز ديدي كسي كه جاويد بزيست
اين يكدو نفس درتن توعاريت ست   باعاريتي، عاريتي بايد زيست

☆ ☆ ☆

إلى متى الحسرة والغم لما   دنيا، رأيت أحدا دام لها ؟
فما أقل نفسا، جسم يعار   عليك أن تعيش عيش مستعار

☆ ☆ ☆

عالم همه محنت ست وأيام غم ست   گردون، همه آفت ست وگيتي ستم ست
في الجمله، چون در كار جهان مي نگرم   آسوده كسي نيست، وگر هست كم ست

☆ ☆ ☆

عالم عنة وغم كله   وفلك والدنيا شركله
إذا نظرت فيداني الكون   لم ألف نـاعما، وإن فهون

■ ☆ ☆

پاك أز عدم آمديم وناپاك شديم   آسوده درآمديم وغمناك شديم
بوديم زآب ديده در آتش دل   داديم بباد عمر ودر خاك شديم

☆ ☆ ☆

من عدم أتينا طاهرينا   ثم نجسنا بالغموم فينا
كنا من ماء العين في نار القلوب   ثم أضعنا العمر والترب يصوب

☆ ☆ ☆

پيش أز من وتو ليل ونهاري بودست   گرد نده فلك، زبهر كاري بودست
زنهار قدم بخاك آهسته بنه   كان مردمك چشم نگاري بودست

☆ ☆ ☆

من قبلنا كان النهار والليال   وكانت الأفلاك تسري لجمال
حاذر وخفف وطأة التراب   لابد كان مقل الأحباب

☆ ☆ ☆

خوش باش، كه عالم گذران خواهد بود   جان درو، تن، نمره زنان خواهد بود
اين كاسة سرها كه تو بيني، فردا   زير لگد كوزه گران خواهد بود

☆ ☆ ■

طين نفسا دارنا ستنقضي   والروح من أجسامنا ستنتفي
وهذه جماجم أنت ترى   سوف تكون تحت أقدام المضي ؟

☆ ☆ ☆

طوري ست، كه صد هزار موسى ديدست ديري ست، كه صد هزار عيسى ديدست
قصري ست كه صد هزار قيصر بكَذاست طاقي ست كه صد هزار كسري ديدست

☆ ☆ ☆

طور رأى مائة ألف موسى دير رأى مائة ألف عيسى
قصر حوى مائة ألف قيصر صرح رأى مائة ألف كسري

☆ ☆ ☆

فردا علم نفاق طي خواهم كرد باموى سفيد قصد مي خواهم كرد
پيمانه عمر من بسه هفتاد رسيد اين دم نكنم نشاط كي خواهم كرد

☆ ☆ ☆

غدا سأطوي علم النفاق وأقصد الخمر بشيبي الباقي
قياس عمري بلغ السبعينا فإن لم انشط الآن لن أكونا

☆ ☆ ☆

ساقي كَل وسبزه بس طربناك شده ست درياب كه هفتهٔ دگر خاك شده ست
مي نوش وكَلي بچين تادر نكَري كَل خاك شده ست وسبزه خاشاك شده ست

☆ ☆ ☆

طرب الورد مع العشب ياساق بعد أسبوع يرى تربا ياساق
اشرب الخمر ووردا فاقطف فترابا وغثاء سيفي

☆ ☆ ☆

چندين غم بيهوده مخور شاد بزي واندر ره بيداد، تو باداد بزي
چون آخر كار اين جهان نيتي ست أنكَار كه نيتي وآزاد بزي

☆ ☆ ☆

طب ولا تغتم فالعيش رهين كن بهذا الحيف للعدل أمين
فأخيرا عدم هذا المعيش فافترض أنك معدوم تعش

☆ ☆ ☆

أفتاده مرا باسامي ومتي كاري خلقم زچه ميكنند ملامت باري
إي كش هر حرام مستي دادي تامن بجهان نديدمي هشياري

☆ ☆ ☆

منع الخمر والسكر شأني وقع فلم يطر الناس لوما مقع
فليت الحرام ينيل السكر لكي لا أرى صاحيا في البشر

☆ ☆ ☆

زان مي كه حيات جاوداني ست بخور   سرمايةْ لذت جواني ست بخور
سوزنده چو آتش ست ليكن غرا   سازنده چو آب زندگاني ست بخور

☆ ☆ ☆

احسون تلك حياة الخالدين   راس مال لذة للشاربين
حرقة كالنار لكن للغموم   راحة، ماء حياة الناغبين

☆ ☆ ☆

أز درس وعلوم جمله بگريزي به   وأندر سر زلف دلبر آويزى به
زان پيش كه روزگار خونت ريزد   تو خون قنينه در قدح ريزى به

☆ ☆ ■

خير أن تنجو من علم ودرس   الزمن طرة حب لا يغاس
قبل أن يهرق دهر دمكا   أهرقن دم قناني بطاس

☆ ☆ ☆

زان پيش نشان بودنيها بوده ست   پيوسته قلم زنيك وبد ناسوده ست
در روز أزل هر آنچه بايست بداد   غم خوردن وكوشيدن ما بيهوده ست

☆ ☆ ☆

من قبل ذا سلفت لهم أكوان   وتتابع الـوؤما يزدان
ما كان في أزل جرت أقلام   فالغم والمي سدى صنوان

☆ ☆ ☆

دارنده چوتركيب طبايع آراست   باز أزچه فكندش أندركم وكاست
گرنيك آمدن شكستن أز بهرچه بود   ورنيك نيامد اين صور عيب كراست

☆ ☆ ☆

حيثما ركب الطباع البديع   لم ذراها في قلة فتضيع
إن أتت وفق حسنها فلما ذا   كسرها أو بغيره، ما الصنيع ؟

☆ ☆ ☆

من ظاهر نيتي وهستي دانم   من باطن هر فراز وپستي دانم
با إين همه أز دانش خود شرمم باد   گر مرتبه ئي وراى مستي دانم

☆ ☆ ☆

أعلم ظاهر الوجود والعدم   أعلم بما فوق وما تحت قدم
ومع ذا فلأستح من علمي   إن ما ورا السكر يكون علمي

☆ ☆ ☆

مي خوردن من نه أز براى طرب ست   نه زبهر نشاط وترك دين وأدب ست
خوام كه بيخودي برارم نفسي   مي خوردن ومست بود زين سببست

☆ ☆ ☆

ليس شربي الخمر من أجل الطرب   أتنشيء أو ترك دين وأدب
بل لتنفيس على نفسي أغيم   فلشربي ولسكري ذا السبب

☆ ☆ ▪

برجه برجه زجامه خواب إي ساقي   درده درده شراب ناب إي ساقي
زان پيش كه أز كاسهٔ سر كوزه كنند   أزكوزه به كاسه كن شراب إي ساقي

☆ ☆ ☆

هب هب من فراش النوم ساق !   وأنل ثم أنل صهبا يا ساق
قبل صنع الكوز من هامتنا   اسكب الصهباء من كوز ياساق

☆ ☆ ☆

چون نيست زهر چه هست، جز باد بدست   چون نيست هرچه نيست نقصان وشكست
أنكَار كه هرچه هست در عالم نيست   پندار كه هرچه نيست در عالم هست

☆ ☆ ☆

بما أن ليس بيد غير الريح   فعدم من كل معدوم صحيح
فلتفترض كل وجود عدما   وكل معدوم به لا عدما

☆ ☆ ☆

يك دست بمصحفيم ويك دست بجام   كَه مرد حلاليم وكهي مرد حرام
مائيم دراين كنبد فيروز رخام   نه كافر مطلق ونه مسلمان تمام

☆ ☆ ☆

تمكت يد بمصحف ويد   بالجام حل تارة وأخرى رد
فنحن في قبة فيروز الرخام   لا كافرون، لا ولا أهل سلام

☆ ☆ ☆

كَاويست در آسمان ونامش پروين   يك كَاو دكَر نهفته در زير زمين
چشم خردت كَشاي كَرز أهل يقين   زير وزبر دوكَاو چندين خربين

▪ ☆ ▪

ثور على السما اسمه الثريا   وآخر تحت الثرى خفيا
فانظر إن كنت ذا حجى بصير   كم بين ثورين من الحمير

☆ ☆ ☆

آنان كه در آمدند ودر جوش شدند   آشفته ناز وطرب ونوش شدند
خوردند پياله ومدهوش شدند   در خواب عدم جمله هم آغوش شدند

☆ ☆ ☆

أولئك الألى أتوا تجيشوا   بقصفهم وبالدلال دهشوا
لما احتسوا صهباءهم تحيروا   فاحتضنوا جلتهم وغبروا

☆ ☆ ☆

پيرانه سرم عشق تو در دام كشيد   ورنه زكجا دست من وجام نبيد
آن توبه كه عقل داد جانان بشكست   وآن جامه كه صبر دوخت أيام دريد

☆ ☆ ☆

صادني عشقك والرأس اشتعل   كيف لا والجام للكف وصل
كسر المحبوب عقل التوبة   مزقت أيامي قمص المرة

☆ ☆ ☆

دوران جهان بامي وساقي هيچ ست   بازمزمهٔ ناي عراقي هيچ ست
هرچند بر أحوال جهان مينگرم   حاصل همه عشرت ست وباقي هيچ ست

☆ ☆ ☆

لا شيء من دون المدام والسقا   ولا بدون رنة الناي بقا
فكرت في العالم جد فكرتي   فكان حاصلي البقا بالعشرة

☆ ☆ ☆

خيام زمانه أزكسي دار دننك   كو در غم أيام نشيند دل تنكَ
مي نوش بآبكينه با نالهٔ چنكَ   زان بيش كه آبكينه آيد برسنكَ

☆ ☆ ☆

تبرأ الزمان يا خيام   ممن بغمه قضت أعوام
فاشرب بابريق على رن الصناج   من قبل أن يصيبه الصدام

☆ ☆ ☆

أندازه عمر بيش أز شت منه   هرجا كَه قدم نهي بجز مست منه
زان پيش كه كلهٔ سرت كوزه كنند   توكوزه أزدوش وكاسه أزدست منه

☆ ☆ ☆

لا تظن العمر ستين يزيد   دون سكر قدما إيا تحيد
قبل صنع الكون من جمجمتك   لا تضعه والكؤوس من يدك

☆ ☆ ☆

مي نـــوش كم وليـــــك مـتي نكنم | الا بـــــه قـــــدح دراز مـتي نكنم
داني غرضم زمي پرستي چـــــه بـــود | تـــاهچـــو تـــو خـــويشتن پرستي نكنم

☆ ☆ ☆

أشـــرب لكنـــي لـــست أسكـــر | إلا بقـــــدح يـــــده لا تقصر
فهـــل بـــدا؛ لم عبـــدت الخمر لكا ؟ | أنـــي لا أعبـــــد نفـــي مثلكـــــا

☆ ☆ ☆

أز مي طرب ونشـــــاط ومردي خيزد | وأز طبـــــع كتب خشكي وسردي خيزد
كَرباده خوري تـوسرخ روى خواهي بود | أز خـــــوردن سبزه روى زردي خيزد

☆ ☆ ☆

إن الشبـــــاب والنشـــــاط والطرب | في الخمر والجـــــود من طبـــــع الكتب
بحســـوك الخمرة وجهـــــك ينـــور | وأكلـــــك العشب بــــه الصفر يثـــور

☆ ☆ ☆

إين قـــافلـــهٔ عمر عجب ميكَـــذرد | دريـــاب دمي كــه بـاطرب ميكَـــذرد
ســـامي غم فرداي قيـــامت چـــه خـوري | پيش آر پيـــالـــهٔ كـــه شب ميكَـــذرد

☆ ☆ ☆

قـــافلـــة العمر في سيرهـــــا عجب | تنبـــــه اللحظـــــة هــــنى في طرب
يـــســـاقي لم تهم للغـــد العصيب | هـــات الكـــؤوس ليلنـــا وشـــك المغيب

☆ ☆ ☆

مـــائيم در أوفتـــاده چـون مرغ بـــدام | دلخستـــه روزكَـــار وآشفتـــه مـــدام
سركَشتـــــه درين دائرهٔ بي درويـــــام | نـــا آمـده برومراد ونـــارفتـــه بـــه كَـــام

☆ ☆ ■

وقعنـــــا مثـــل طـــائر في الفـــخ | مفـــــؤد دهر ومروع مـــــخ
حيـــاري دائر بـــلا بـــاب ولا | سطـــح، أتينـــا وذهبنـــا لا ولا

☆ ☆ ☆

تـــا هشيـــارم طرب زمن پنهـــانست | چـون مـست شـوم در خردم نقصـــانست
حـــاليست ميـــان مستي وهشيـــاري | من شـــادم أز ان كـــه زنـدكَـــاني آنست

☆ ☆ ☆

مـــا دمت صـــاحيـــا يغيب الطرب | وإن شربت فحجـــاي يـــذهب
والحـــــال بين سكرة الطرب | بهـــا أسر فـــالحيـــاة تحب

☆ ☆ ☆

هر دره كه درروى زميني بودست   خورشيد رخي زهره جبيني بودست
كَرد أز رخ آستين بآرزم فشان   كان هم رخ وزلف نازنيني بودست

☆ ☆ ☆

كل ذرات على وجه الثرى   لحسان أوجهها كانت روا
فانفض عثير ردن مهلا   إنه وجنات حور دابرا

☆ ☆ ☆

مي نوش كه عمر جاوداني إينست   خود خاصية دور جهاني إنيست
هنكَام كَل ومل است وياران سرمست   خوش باش دمي كه زندكَاني إينست

☆ ☆ ☆

اشرب الخمر خلود العمر ذى   ميزة الدنيا أخيرا هي ذى
وقتنبا ورد وخمر ونداام   لحظة اسعد، فإن العيش ذى

☆ ☆ ☆

أز كَردش روزكَار بهري بركَير   بر تخت طرب نشين بكف ساغر كَير
أز طاعت ومعصيت خدا مستغنيست   باري تو مراد خود زعالم بركَير

☆ ☆ ☆

خذ نصيبا لك من تلو الليال   واقتعد عرش سرور من دوال
طاعة مثل عصاة عنها   غني الرب وخذ نعما

☆ ☆ ☆

إي كَل تو بروى دلربا مهاني   إي مل تو بلعل جانفزا مياني
إي بخت ستيزه كار هردم بامن   بيكَانه ترى وآشنا مياني

☆ ☆ ☆

ياورد أنت مشبه وجه الحسان   ياقوتة ياخمر، تبهج الجنان
وأنت يا حظي العثور دائما   عدوي، تبدو كصديق سلما

☆ ☆ ☆

اي چرخ زكَردش تو خورسند نيم   آزادم كن كه لايق بند نيم
كَرميل توبا بيخرد ونا أهلست   من نيز چنان أهل وخرد مند نيم

☆ ☆ ☆

يا فلكا لست رضى بدورك   حررني لست لائقا بقيدك
إن كان ميلك لحمقى وشرار   أيضا أنا مثلهم حمقا وشر

☆ ☆ ☆

أز حـــادثـــهٔ جهـــان زاينـــده مترس | وزهرچـه رسـد چـونيست بـايـنـده مترس
اين يكـــــدمـــــه عمر غنيمت ميـــــدان | أز رفتــه ميـنـــديش وأز آينـــده مترس

☆ ☆ ☆

لا تخش من حـــادث دنيـــا زائـــدا | فـــلا يــــدوم ضرهــــا إن وردا
وعــــــد غنا لحظــــــة من عمر | دع مــــاضيــــا ولا تخف من معتر

☆ ☆ ☆

بـابـاده نشين كــه ملــك محمود اينست | وزچنــك شنـو كـــه لحن داوود اينست
أز آمــــده ورفتــــه دگر يــــاد مكن | حـال خـوش بـاش زانكـه مقصود اينست

☆ ☆ ☆

مـــع الخمر فـــاجلس فمحمـــود ذا | وللصنــــج أصـــغ فـــداوود ذا
من الآتي والمـــاضي لا تــــذكرا | وأنعم بحـــال، فقصـــدنــــا ذا

☆ ☆ ☆

گرمي نخوري طعنـــه مزن مستـــانرا | گردست دهـــد تـــوبـــه كنم يـــزدانرا
تـو فخر بـدين كني كــه من مي نخـورم | صـــد كار كني كـــه مي غـلامست آنرا

☆ ☆ ☆

لا تطعن السكرى إلا تحس الخــــور | فلـــو تمكنت لتبت للغفــــــور
إن قلت فخرا بأنني لا أشربه | فـــائــــة من الـــذنـــوب تركب

☆ ☆ ☆

درسر مگـــذار هيچ سـوداي محـــال | مي خـور همـه سـال سـاغر مـا لا مـال
بــــــادختر رزنشين وعيش ميكن | دختر بحرام بـــه زمــــادر بحـــلال

☆ ☆ ☆

لا تضـع في الرأس حبـــا لمحـــالات | أدمن الخمر بكأس مترعـــــــات
جـــالس بنتـــا لأعنـــاب حرام | بنت اولى من حـــلال الأمهـــات

☆ ☆ ☆

أمروز كـــه نـوبت جـوانيه منست | مي نـوش أز آنكـــه كـــامراني، منست
عيبش مكنيـد أگرچـه تلغشت خـوشست | تلخست أز آنكـــه زنـدگـــاني منست

☆ ☆ ☆

اليـــوم عهـــد صبـــايـــا | فـــاشرب حبـــا منـــايـــا
ولا تعبهــــــــــــــــا مريرة | فـــالمر من محيـــايــــا

☆ ☆ ☆

آن جم پیاله بین بجان آبستن   همچون سمن بسارغوان آبستن
ني ني غلطم كه باده أز غايت لطف   آبيست بآتش روان آبستن

☆ ☆ ☆

انظر إلى كأسنا بالروح حاملة   أو ياسمين بأرجوان حاملة
أخطأت، لا لا، فإن الخمر ألطف من   تين فهي حلت بالنار مائعة

☆ ☆ ☆

در میکده جز بمي وضو نتوان كرد   وين نام كه زشت شد نكو نتوان كرد
مي ده كه كنون پردهٔ مستورئ ما   بدريده چنان شد كه رفو نتوان كرد

☆ ☆ ☆

في الحان لا وضوء إلا بالرحيق   فسيئ الصيت بحسن لا يليق
عاطنيها الآن حجاب سترنا   مزق مزقا رفوه ليس يطيق

☆ ☆ ☆

تاباز شناختم من إين پاي زدستم   إين چرخ فرو مايه مرا دست ببست
أفسوس كه حساب خواهند نهاد   عرى كه مرابي مي ومعشوقه گذشت

☆ ☆ ☆

فمذ علمت الفرق ما بين يدي   ورجلي غل الفلك النذل يدي
يا أسفا حسابي سوف يحتوي   عمرا مضى بدون عشق وروى

☆ ☆ ☆

چون عهده نميشود كي فردارا   خوش دار دمي اين دل پرسودارا
مي نوش به مهتاب إي ماه كه ماه   بسيار بتابد ونيابد مرا

☆ ☆ ☆

بما أن ليس أحد ضامن غد   فافرح مضنى القلب لحظة تعد
ياقرا فاشرب على ضوء القمر   سوف يضي فلا يرى لنا أثر

☆ ☆ ☆

اي چرخ فلك خرابي أزكينهٔ تست   بيداد گري عادت دربنهٔ تست
اي خاك أگر سينهٔ تو بشكافند   بس گوهر قيمتي كه در سينهٔ تست

☆ ☆ ■

يا فلك الدوار بالحقد خراب   عالمنا والظلم عادة لصاب
لو فتحوا صدرك يادنيا التراب   لوجدوا جواهرا كثرا عراب

☆ ☆ ☆

اين كوزه چو من عاشق زاري بوده است   در بند سر زلف نكَاري بوده است
اين دسته كه در كَردن أو ميبيني   دستيت كه در كَردن ياري بوده است

☆ ☆ ☆

كان هذا الكوز مثلي عاشقا   وبقيد للحسان علقا
إن هذى عروة أنت ترى   مرفقا كان حبيبا احتوى

☆ ☆ ☆

برخيز وغخور غم جهان كَذران   خوش باش ودمي به شادماني كَذران
در طبع جهان أكَر وفايي بودى   نوبت بتوخود نيامدى أز دكَران

☆ ☆ ☆

انهض ولا تحزن على دنيا الفنا   وطيبن النفس ولا تنس المنا
لو كان للدنيا وفاء طبع   لما انتهت إليك بعد جمع

دَوْرُ الملاحة المغربيّة في البحَار طوال ألف عام

عبد العزيز ابن عبد الله

البحر الأبيض المتوسط عرف أوائل القرن الخامس الميلادي عصر هدوء طوال مائة عام تحت إشراف الجرمان الذين دشنوا ألفية العصور الوسطى عام 378م بإزاء البيزنطيين في الامبراطورية الشرقية والوندال غربي المتوسط غير أن خلفاء جنسيريك أو جيسيريك Geiseric ou Genseric المتوفى عام 477م وهو أول ملك وندالي في إفريقيا انهزموا أمام فورة البرابرة الأشاوس الذين انحدروا من الجبال فزحزحوا المغيرين إلى مدن ساحلية بجانب «افريكا» الرومانية القديمة.

وكان البحر المتوسط منذ ذلك مركز التجارة العالمية احتكرته بيزنطة طوال القرن الخامس وقبله وكانت التوابل والحرائر هي مادة هذه التجارة مع إيران والهند والصين والدينار الذهبي هو عملة التبادل خاصة في القرنين الثاني والثالث غير أن الامبراطورية الشرقية لم تهتم - رغم سيطرتها

الاقتصادية ـ بقوتها البحرية نظرا لاعتمادها خاصة على طرقها وحصونها البرية يؤكد ذلك سهولة انقضاض الوندال أواخر القرن الخامس انطلاقا من الشمال الافريقي على جزر البليار وسردينية وكورسيكا بل نهبهم لروما عام 455م واندحار حملتين بحريتين رومانيتين غير أن هزيمة الرومان الشرقيين حدتهم إلى التفكير في إنشاء قوة بحرية تبلورت عام 508م في أسطول عدته مائة سفينة مسلحة وخمسة آلاف بحار وكان هذا الأسطول المتواضع قوة عارضة ما لبث نفس الامبراطور وهو انسطاسيوس أن جدده عام 516م بقطع قارة عززت بمواد متفجرة أشبه بما عرف بعد ذلك بالنار الاغريقية.

واحتفظ البيزنطيون بأسطولهم الدائم الحركة منذ عصر جستنيان الأول المتوفى عام 565م فكانت له طوال القرن السابع قواد ودور صناعة في الاسكندرية والقسطنطينية وقرطاج وعكا وسرقوسة والبليار وحتى سبتة وكانت في طليعة القطع البحرية السفن الحربية السريعة الخفيفة الجذافية المعروفة بـ (Dromons).

وظل الأسطول البيزنطي يجول ويصول في البحر المتوسط دون منازع إلى الغزو الإسلامي حيث تعززت السيادة البحرية بمحاولات دعم اقتصادية استهدفت ولو جزئيا استئصال سيطرة فارس الاقتصادية بقطع أرباحها من تجارة التوابل والحرير وذلك باستجلاب دودة القز التي انتشرت بفضلها صناعة الحرائر وأقشة الديباج علاوة على مختلف فنون العمارة وفن الفسيفساء في عديد من الجزر والموانئ والحواضر فكانت القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين أعظم مدينة في الشرق بلغت

حضارتها الأوج وسكانها المليون نسمة[1] وغزت تجارتها حواضر العالم تليها قوة مدينة الاسكندرية التي كانت أعظم مدن البحر المتوسط وربما اخترقت مضيق جبل طارق لتصدير القصدير إلى بريطانيا.

☆ ☆ ☆

وقد استهل العرب فتوحهم في البحر الأبيض المتوسط باحتلال الاسكندرية عام 21 هـ / 641م وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ البحر الأبيض المتوسط دفع الفاتح العربي عمرا بن العاص إلى التفكير في البحر كوسيلة للدفاع إذ ما كادت تبزغ سنة 25 هـ / 645م حتى استعادت بيزنطة في حملة بحرية عارمة مدينة الاسكندرية غير أن الجيش الإسلامي تمكن من إجلاء القوات الرومانية وهدم حصون الاسكندرية درءا لكل خطر في المستقبل وكانت هذه وسيلة عابرة موقتة حدت الأمير معاوية إلى تنظيم أول أسطول بحري قام بأول حملة عربية لغزو البحر المتوسط وقد اتجهت قطع هذا الأسطول - التي أوصلها مؤرخون عرب إلى 1.700 سفينة - عام 28 هـ / 648م إلى جزيرة قبرص البيزنطية كما أغارت على إفريقية التي ثار حاكمها البطريق جريجوري ضد القسطنطينية ونصب نفسه أمبراطورا في حملتين بدأت الأولى عام 27 هـ / 657م والثانية عام 34 هـ /654م ولعل في ذلك العدد من السفن مبالغة لأن البحرية العربية كانت في منطلق نشأتها ولم تكن تتوفر على بحارين نظرا للطابع البري للجزيرة العربية حيث اضطر الخليفة الأموي في دمشق عام 43 هـ / 663م إلى استقدام نوتية فرس لملء بعض ثغور الشام انضاف إليهم عام 49 هـ / 669م

1) كتاب جوستينيان (ص 540) لديهل Diehl المؤرخ الفرنسي المتوفى عام 1944 والمتخصص في تاريخ بيزنطة.

ملاحون عراقيون ومع ذلك بدأ الجانب العربي يتمزز بحريا حيث إن الوالي عمرا بن العاص ما لبث أن أعاد عام 50 هـ / 670م بناء ما حطمه قبل من حصون وقلاع ساحلية في الاسكندرية . كما تعزز اقتصاديا لأن عبد الملك بن مروان ضرب لأول مرة الدينار العربي ونقش عليه حروفا عربية مغفلا صورة القياصرة البيزنطيين مما أحنق جوستينيان الثاني (الذي توفي عام 711م) وانتهت انتفاضته ضد دمشق بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى وأحرز الأمويون نصرا عظيما في الشمال الإفريقي عام 74 هـ / 693م في حملة ضخمة قوامها أربعون ألف جندي بقيادة حسان بن النعمان ما لبثت أن اخضعت عام 76 هـ / 695م قرطاجة التي تفلتت من أيديهم بعد تدخل الكاهنة الجراوية لتعود بعد ثلاث سنوات 79 هـ / 698م) وبموت الكاهنة عام 81 هـ / 700م انقرض الحكم البيزنطي في إفريقيا.

وقد تزايد اهتمام الخليفة الأموي عبد الملك بالأسطول البحري حيث أمر واليه على إفريقية موسى بن نصير ببناء قاعدة بحرية أي دار صناعة ساعده على إنشائها ألف قبطي من بناة السفن بمصر وكان الأسطول العربي قد استولى على جزيرة قوصرة قرب الشاطئ الإفريقي وعلى المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية وقد تبلورت الاستراتيجية البحرية العربية آنذاك في إقامة دار الصناعة بالمكان الأمين الذي قامت فيه حاضرة تونس وذلك بحفر قناة وصلت هذا المكان بالخليج القريب وهجرت قرطاجة آنذاك وقد أنشأ ابن نصير في القاعدة الجديدة مائة سفينة حربية فتعزز الأسطول الأموي عام 85 هـ / 704م بالقطع البحرية الجديدة وأصبح الشمال الإفريقي منطقة بحرية ثالثة عززت المركزين العربيين في مصر وسوريا وقد برهنت السفن الجديدة على فعاليتها حيث أغارت منذ سنتها

الأولى المذكورة على كل من صقلية وسردينية ثم قاد موسى بن نصير شخصيا عام 90 هـ / 708م أسطوله نحو جزر البليار حيث أسر حاكم ميورقة ليظفر بعد سنتين بالاستيلاء على جزيرة سردينية وبذلك استطاع ابن نصير أن يدرأ خطر الأسطول البيزنطي عن الجزر الثلاث وانضم آنذاك إلى العرب الكونت جوليان حاكم سبتة الذي مكن طارقا بن زياد أحد قواد ابن نصير من سفنه الأربع لاجتياز المضيق إلى سفح جبل في الشاطئ الشمالي حمل اسمه بعد ذلك وقد أمد ابن نصير قائده بخمسة آلاف مقاتل ولعله استطاع بناء قاعدة في الشاطئ الإفريقي تنطلق منها جيوشه الزاحفة نحو العدوة الشمالية وبذلك تمكن العرب من «الالتفاف» بين عامي 74 هـ / 693م 99 هـ / 717م حول الجناح الأيمن لقوة البيزنطيين البحرية واختراق مراكز الدفاع البيزنطي في شمال إفريقية «وبذلك يكون الإسلام قد صار كالهلال على ما يقرب من ثلثي شواطئ البحر[2] المتوسط بين نهر الرون وبلاد أرمينية وهنا يجدر أن نقارن بين الأسطول البيزنطي والأسطول العربي ونظامي القوتين إلى أوائل القرن الثامن الميلادي فقد كان أسطول بيزنطة يتألف من مجموعة مركزية وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها شرقي المتوسط وإثنان في غربه[3] والمركز الجامع هو القسطنطينية وكان للأسطول قائد أعلى للامبرالية البحرية يخضع له نائب أميرال وكان لكل منها بحارته ودور صناعته وأحواض بنائه ومعداته البحرية تصدر نفقاتها عن الأقاليم التي ترابط بها.

---

2) كتاب (القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط) ـ ارشيبا لدبويس ـ ص 103 (مكتبة النهضة المصرية 1960).

3) يرابطان في صقلية مع أسطول ثالث عتل في إفريقية إلى نهاية القرن السابع يشمل جزر البليار وسردينية وسبتة والمواقع البيزنطية في اسبانيا.

أما البحرية الأموية فمن الصعب تحديد تنظيماتها بنفس الدقة إلا أن المفروض هو وجود ثلاثة أساطيل لكل واحد منها استقلال ذاتي ويرابط في إقليم خاص به (مصر أو سورية أو شمال إفريقيا) بالإضافة إلى وحدة بحرية (في بحر القلزم أو البحر الأحمر) خاضعة للأسطول المصري وانعقد لواء كل أسطول لأمير من أمراء البحر وكان كل أسطول يواجه الأساطيل القريبة منه في آسيا الصغرى أو صقلية أو الأسطول المركزي في القسطنطينية وقد كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للأساطيل[4] الثلاثة التي اشتركت مجتمعة في الحصار الثاني للقسطنطينية إلا أن الأسطولين العربي والبيزنطي امتاز كلاهما بالاستقلال الذاتي في الغرب أمام مراكز دور الصناعة في العصر الأموي فقد كانت في الفسطاط والقلزم هي القواعد الأولية لبناء الأسطول العربي منذ الانطلاقة الأولى في عهد معاوية وكذلك في عكا التي أصبحت أعظم قاعدة في سوريا في حين أقام عبد الملك بن مروان على غرار سلفه معاوية دار صناعة لأول أسطول عربي في إفريقية بعد عام 81 هـ / 700م ومع ذلك فلم يكن للقوة البحرية العربية أثر في دعم الزحف الإسلامي في اسبانيا وجنوب فرنسا رغم تفوق هذه القوة على السفن الفرنجية ومما يدل على مدى سمة الدعوة والتدين في الحركة الإسلامية في البحر المتوسط آنذاك أن العرب لم يستغلوا فتوحاتهم لاكتساح السوق التجارية في البحر المتوسط عدا التخلص من وطأة ضريبة القموح التي كانت تدفعها مصر للقسطنطينية والتي أصبحت تكدس في الاسكندرية لتوجه بدلا من تموين بيزنطة إلى إمداد مكة والمدينة على أن الفاتح العربي بدأ يضع تشريعات بحرية جديدة مغايرة لما فرضه جستنيان في القرن السابع خاصة بصدد

---

4) Bury (Byzantine naval Policy) p. 39

الإيراد والتصدير وأصبح الشمال الإفريقي الثري خير مصدر للذهب وزيت الزيتون والحبوب والخيول والجمال ما بين 76 هـ / 695 و87 هـ / 705م بالإضافة إلى ما كان يصنع فيه آنذاك من طنافس فاخرة وهذا العهد الجديد الذي خلقه العرب في البحار أدى على الأقل إلى إيقاف التجارة الحرة التي كانت منبع شراء بيزنطة لتصبح تجارة حرة لفائدة الجميع فانطلقت بيزنطة مجهدة نفسها في تخريب الاسيسة الاقتصادية في المتوسط وتفكيك الوحدة التي رجع الفضل إليها قديما في ربط أجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض ورغم ما يدعيه بعض المغرضين من مشوهي تاريخ الفتوح العربية فإن البيزنطيين هم الذين كرسوا كل قواهم الحربية المدمرة للانتصار بين 97 هـ / 715م و135 هـ / 752م على الأمويين ولو على حساب رخاء ورغد البحر المتوسط وقد تدهور الوضع في إفريقية الشمالية من جراء ذلك وخاصة بسبب السياسة العنصرية التي نهجها بعض الأمويين في تخميس البربر مما أدى إلى ثورة ميسرة المضغرى حول طنجة عام 122 هـ / 739م وفي نفس السنة تخربت المدن الجنوبية بفرنسا نظرا لتوقف استغلال بيزنطة لتجارة سورية ومصر مما أدى إلى الكساد الاقتصادي الذي عرفته فرنسا الكارولنجية منذ عام 98 هـ / 716م.

ويظهر أن بيزنطة احتفظت بقوة بحرية فعالة في مياه البحرين المتوسط والأسود إلى أوائل القرن الثامن الميلادي لأن القوة البحرية الأندلسية التي تركزت في إمارة سرقسطة كمركز لحماية حدود الأندلس ضد هجمات الكارولنجيين لم تستعمل إلى عام 182 هـ / 798م الا للإغارة على مرسيليا عام 798م وإيطاليا عام 162 هـ / 778م وناربون عام 177 هـ / 793م مما يدل على أن الأسطول الأموي في الأندلس وجه ضرباته

لامبراطورية الفرنجة لا البيزنطيين الذين كانوا في عداء مسلح مع هؤلاء والحقيقة أن القوة النسبية التي ظهرت بها السفن البيزنطية ترجع أيضا إلى ضعف الأسطول السوري الذي لم يستطع إيقاف انفصال عبد الرحمن الأول الأموي عام 139 هـ / 756م عن الخلافة العباسية التي لم تتمكن حملات أسطولها من الوصول إلى الشواطئ الأندلسية وقد مهد ذلك لانبثاق مملكة الأدارسة المستقلة بالمغرب الأقصى عام 172 هـ / 788م ثم الأغلبية عام 185 هـ / 800م وظلت مصر وحدها خاضعة للعباسيين ورغم ما كان للبحرية العربية من قوة غربي المتوسط فإن العواصم الجديدة كفاس وتونس وقرطبة اتسمت ببعدها عن البحر أي عن خطر الأساطيل الفرنجية لأن بيزنطة بدأت تفقد قوتها البحرية منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ولذلك استطاع الأسطول الأندلسي الإغارة منذ عام 182 هـ / 798م على جزر البليار وبعض مدن الساحل الشمالي إلى أن استفحلت مغامرات السفن العربية عام 199 هـ / 814م بوصول ثوار ربض قرطبة[5] الذين استطاعوا فرض سيطرتهم على الاسكندرية مدة اثنى عشر عاما حتى طردهم العباسيون الذين تحركت نخوتهم منذ عام 191 هـ / 806 هـ ـ بعد عشرين سنة من خمود الأسطول السوري فأغار أسطولهم على (قبرص) ثم في العام التالي على (رودس) مع فرض جزية سنوية أصبحت القسطنطينية تدفعها لبغداد ولعل تدخل أسطول الأغالبة في إفريقية عام 190 هـ / 805م هو الذي أسهم في هزيمة البيزنطيين برا وبحرا لا سيا بعد أن فرض الأغالبة اتفاقية لعشر سنوات مع بطريق صقلية جددت عام 198 هـ / 813م دون أن

5) الأندلسيون الربضيون الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم فنفاهم ونزلوا بالأسكندرية ثم أقاموا في جزيرة كريت التي انتزعوها من البيزنطيين وجعلوا منها وكرا للقرصنة.

يحول ذلك بينهم وبين مهاجمة سردينية في السنة نفسها ـ رغم تعرض مائة سفينة عربية للغرق من جراء العواصف ـ ثم الإغارة على صقلية عام 209 هـ / 820م واحتلال سردينية في السنة التالية وهذا التناسق الذي كان تلقائيا أحيانا ـ بين أساطيل المسلمين في سورية والأندلس والشمال الإفريقي والذي تحدى سلطان بيزنطة هو الذي حدا شرلماني الذي كان يعاني الأمرين من ضغط لبيزنطة والأندلس معا ـ إلى إنشاء أسطول ضخم بلغ ألف سفينة بحرية في قاعدتين إحداهما على ساحل طرطوشة وبرشلونة (التين احتلها شرلماني عام 197 هـ / 812م) والأخرى على طول الساحل الإيطالي مما ساعد الأسطول الجديد على الانتصار قرب جزيرة ميورقة عام 198 هـ / 813م وفي ساحل بونة (بالجزائر) عام 213 هـ / 828م مما أتاح للبيزنطيين أن يتنفسوا الصعداء ولو لفترة قصيرة إلى أن قامت ثورة داخلية صقلية أطاحت بقوة القسطنطينية البحرية بين عامي 206 هـ / 821م و208 هـ / 823م وقد انكشف ذلك عام 212 هـ / 827م عندما أغار الربضيون النازحون عن الاسكندرية على جزيرة (كريت) ونزلوها دون مقاومة وظلوا مثارا للرعب للامبراطورية البيزنطية طوال قرن ونصف قرن.

وفي تلك الأثناء استطاع الأغالبة مهاجمة صقلية أحد مفاتح المتوسط وانتصروا على أسطولها البيزنطي بسفن انطلقت من سوسة بلغت ما بين السبعين والمائة سفينة مجهزة بعدة آلاف من الرجال وبذلك انفتح عهد جديد انهارت فيه قوة بيزنطة البحرية وازدادت السيادة الإسلامية على البحار لا سيا بعد أن تعززت قوة الأغالبة تلقائيا بأسطول الأندلس وهي الدولة الوحيدة في غرب البحر المتوسط التي لم تخضع للسيطرة التجارية

البيزنطية وقد ظل التجار البندقيون يواصلون نشاطهم الاقتصادي بفضل مسالمتهم للمسلمين ومخالفاتهم لاتجاهات السياسة البيزنطية التي حظرت على البندقية ومثيلاتها مثل نابلي الاتجار مع الموانئ الإسلامية في شمال إفريقيا ومصر وسورية على أن تجار الشمال الإفريقي قاموا بما قام به آنذاك الإيطاليون بالنسبة لأوربا ـ بدور الوساطة بين سورية ومصر من حيث ينقلون السلع المختلفة بحرا لتوزيعها على البلاد الإسلامية في الغرب وبذلك انتقلت ثروة التجارة البحرية إلى أيدي المغاربة وساعد على ذلك تدهور البحرية العباسية حتى في البحر الأحمر الذي كان ممرا لنقل توابل الشرق وقد انهارت هذه التجارة أوائل القرن الثامن الميلادي إذا استثنينا نشاط اليهود الذين كانوا يعبرون برزخ السويس إلى بحر القلزم وعدن ثم بلاد الصين لا سيما وأن القناة التي حفرها عمرو بن العاص بين النيل والبحر الأحمر كانت قد طمرتها الرمال ومن مظاهر ثراء المغرب آنذاك أن الدرهم الفضي ظل عملة الرواج السائدة في الشمال الإفريقي وخاصة في فاس حيث سكت عملة تحمل تاريخ 185 هـ / 801م وتوجد قطعة منها في متحف كاركوف بروسيا. هذا بينما ساد استخدام الدرهم الفضي الذي سكه الأمويون.

وقد سقطت صقلية فعلا في قبضة الأغالبة عام 831م ثم جزيرة قوصرة عام 835م بفضل أسطول إفريقي اشتمل على حراقات وهي سفن تقذف بلهب النفط ضد صمود النار الاغريقية التي كان يستخدمها البيزنطيون وهو سلاح عربي سري جديد مكنهم من المزيد من السيطرة على البحار وحيث بلغت هجماتهم حتى المراكز البيزنطية في كل من البحر الايوني (بين إيطاليا واليونان) والادرياتي وقد احتل مسلمو كريت أو شمال

إفريقية عام 224 هـ / 838م ـ إقليم (برنديزي) رغم تدخل أسطول بندقي من ستين سفينة كما أقام مسلمون في مدينة باري Bari (على الادرياتيك) عام 228 هـ / 841م دولة إسلامية تماثل دولة بالرم في صقلية استمر وجودها أكثر من ثلاثين عاما اعترفت بغداد لها بالاستقلال والسيادة ولم يستطع حصار لويس الطويل لمدينة باري زحزحة المسلمين عنها عام 850م / 236 هـ وبذلك أصبح بحر الادرياتيك عرضة لغارات الأساطيل العربية ولم ينج من هذه الهجمات البحرية حتى أسطول البندقية كما أنزل المسلمون عام 232 هـ / 846م قوات على سواحل الأراضي البابوية إلى ضواحي روما ذاتها مما حرك القسطنطينية لإرسال أسطول إلى (سرقوسة) عدته ثلاثمائة سفينة فأحرز الأسطول الإسلامي نصرا عظيما في معركة بحرية فقد البيزنطيون فيها مائة سفينة وهي أخطر هزيمة مني بها الأسطول البيزنطي منذ عام 226 هـ / 840م وقد واصل الأسطول الإسلامي فتوحاته فاستولى على جزيرة مالطة عام 257 هـ / 870م وتعزز بذلك نفوذ الأغالبة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية ومع ذلك لم تند حر قوة بيزنطة البحرية بصورة تامة لأنها جددت أسطولها عام 272 هـ / 885م ولم يمنع ذلك السفن الإسلامية من غزو قلورية عام 275 هـ / 888م والحاق هزيمة شنعاء بالبيزنطيين وتحطيم سفنهم عام 282 هـ / 895م فانصاعوا لصلح فقدت القسطنطينية فيه سيادتها الموقوتة على مياه صقلية وغرب إيطاليا حيث أنزل الأغالبة بعد سبع سنوات الضربة القاضية في حملة بحرية عام 290 هـ / 902م سقط بجموع الجزيرة الصقلية في قبضتهم غير أن الصراع بين الأقاليم الإسلامية كان يوقف انتفاضات الأسطول العربي ولو إلى حين فقد استولى الفاطميون على تونس عام 297 هـ / 909م

وأصبحوا سادة القيروان وما لبث مسلمو صقلية أن هبوا ضدهم عام 301 هـ / 913م فحطموا فرقة بحرية إفريقية قرب المهدية واستمر الحرب سجالا إلى عام 305 هـ / 917م حيث سيطر الفاطميون على الجزيرة بعد أن قضوا المدة السالفة في غارات هوجاء ضموا إثرها مصر إلى نفوذهم ولكن قوة بحرية جديدة مشتركة بين بيزنطة وإيطاليا (بزعامة نيقولا الصقلي Nicolas (Pincingly) وكذلك قوات من الأملاك البابوية أغارت على مواقع المسلمين وحررت البلاد الإيطالية بعد نصف قرن من مضايقات السفن الإسلامية لها إلا أن محاولات هذا الأسطول الجديد فشلت أمام سفن أصغر جزيرة إسلامية في المتوسط التي احبطت غارتين بيزنطيتين قد جهزت آخرتها بسبعين سفينة حربية شاركت فيها اليونان فأحرز مسلمو كريت عام 225 هـ / 839م نصرا باهرا دمروا فيه الأسطول البيزنطي الذي تجهز بعد أربع سنوات في القسطنطينية 229 هـ / 843م. لإعادة الكرة من جديد فعجز حتى عن الاقلاع من موانيه طوال عشر سنوات إلى عام 239 هـ / 853م بفضل قوة تجهيزات (كريت) وحنكتها البحرية وظلت القسطنطينية تستعد طوال ربع قرن إلى عام 266 هـ / 829م للاجهاز على هذه الجزيرة التي أقضت مضاجعها فتحطم هذه المرة جزء من الأسطول الكريتي في خليج (كورنث) Corinthe فتوقف الصراع ربع قرن آخر إلى عام 292 هـ / 904م حيث وجهت كريت أقسى ضرباتها على ثاني حاضرة في الامبراطورية البيزنطية هي (سالونيك) التي استسلمت تحت نيران قاذفات اللهب الكريتية واقتيد إثنان وعشرون ألف أسير من سكانها إلى مختلف الأقطار الإسلامية[6] دون أن يثني ذلك نخوة بيزنطة التي تحطم أسطولها

6) القوى البحرية... ارشيبالد ص 224.

مرة أخرى عام 298 هـ / 910م وظل التهديد الكريتي منصبا على بحر إيجي والأسطول البيزنطي إلى عام 311 هـ / 923م وقد جرؤ قبل ذلك على مهاجمة إنطاكية سنتي 213 هـ / 828م و227 هـ / 841م فهب العباسيون بأمر المعتصم لتعزيز أسطول كريت والشمال الإفريقي فبنوا عام 228 هـ / 842م أسطولا من أربعمائة قطعة تحركت إلى بحر إيجي ولكن العواصف الهوجاء تلقفته قرب سواحل آسيا الصغرى فلم تبق منه سوى أربع سفن غير أن الغارات البيزنطية توالت إلى عام 266 هـ / 879م بالانتصار على أهل كريت ثم ما بين 267 هـ / 880 و273 هـ / 886م بهزيمة الأغالبة وأهل صقلية نظرا للصراعات الداخلية التي صرفت أهل طرسوس (بتركية) وسورية ومصر بسبب امتداد النفوذ الطولوني ـ عن أعدائهم البيزنطيين فكان لاستعادة العباسيين سلطتهم بمصر عام 292 هـ / 904م أكبر الأثر في ظهور قوة بحرية إسلامية جديدة ظلت مع الأسف إلى عام 308 هـ / 920م تواجه خطرا إسلاميا هذه المرة هو خطر الأسطول الفاطمي الذي انهزمت مع ذلك قطعه السبعون وبذلك تدعمت جزيرة (كريت) إلى أوائل القرن العاشر الميلادي بأسطول مسلمي طرسوس وسورية ومصر زاده فعالية ظهور عدو جديد لبيزنطة هو الروس أصحاب (كييف) وجنوب روسيا وهم أسكند ناويون وسويديون قاموا منذ سنة 246 هـ / 860م بغارة واسعة على القسطنطينية استغلوا هزيمتها النكراء عام 245 هـ / 859م قرب صقلية على يد أسطول الأغالبة وأغاروا ثانية عليها بعد نحو نصف قرن (عام 295 هـ / 907م).

وفي هذه الأثناء بقي الأسطول الأموي قابعا في الأندلس نظرا لعدائه للعباسيين ومجاملته للبيزنطيين غير أن التقاعس لم يصل إلى حد مساعدة

الفرنجة ضد المسلمين لأن الامبراطور (تيوفيل) طلب من عبد الرحمن الثاني منذ 225 هـ / 839م العون ضد مسلمي صقلية وإفريقية فلم يستجب إلا بالمجاملة السلبية.

والواقع أن الأسطول الأندلسي كان متجها إلى عدو آخر ناصب الإسلام العداء غربي أوربا فتركزت قطعه منذ أوائل القرن التاسع الميلادي على طول الساحل الشرقي بين طرطوشة وبلنسية وباقي السواحل الكارولنجية وبدأت غاراتها عام 224 هـ / 838م على مرسيليا إنطلاقا من جزر البليار واتخذت قواعد لها عند مصب الرون في جزيرة كامرج Camargue مما اضطر شارل الأصلع Charles II le Chauve ملك فرنسا وامبراطور الغرب (840م ـ 877م) ـ إلى الانصياع بتوقيع صلح مهين عام 250 هـ / 864م فاستكانت هذه المنطقة لبعض الراحة من غارات الأسطول الأموي الذي واصل تجهيزاته بإقامة قواعد عام 275 هـ / 888م على سواحل (بروفانس) وحوض الرون الأدنى وهي مناطق قاست المرائر من الغزو الإسلامي طوال 84 سنة مما أدى إلى انتشار النفوذ الإسلامي في جبال الالب والممرات بين فرنسا وإيطاليا إلى البحر المتوسط ومع ذلك فإن الأسطول الأموي ظل ضعيفا لعجزه عن الصمود في وجه غارات الشماليين عام 230 هـ / 844م عندما هاجم أسطول القراصنة الاسكندناويين لشبونة بثمانين سفينة تجاوزت في نهبها وسلبها مدينة اشبيلية الأندلسية إلى حاضرة نكور بالمغرب الأقصى غير أن هؤلاء الشماليين لم يجرؤا على مراسي بني الأغلب القوية ولا حتى بعض المرافئ الأندلسية التي كانت لها أساطيل بحرية بين دانية وطرطوشة ويظهر أن قرطبة الأموية لم تستطع إنشاء أسطول لها إلا في عهد عبد الرحمن الثالث لأن القطع التي استهدفت بها

الاغارة على جليقية المسيحية عام 266 هـ / 879م غرقت بمجرد بلوغها مياه المحيط نظرا لرداءة تجهيزاتها وضعف ملاحيها.

وهكذا يمكن القول بأن البحر المتوسط كان أوائل القرن العاشر الميلادي موزعا بين مسلمي جزر البليار غربا وصقلية في الوسط وكريت شرقا قبل ظهور الأسطول الأموي الجدد وبالرغم عن انتعاش أسطول بيزنطة الذي بدد عام 941م قوة بحرية روسية تحركت لمهاجمة القسطنطينية بألف سفينة تحت قيادة إيجور Igor أمير كييف فإنه أخفق في حملته عام 338 هـ / 949م ضد كريت التي ظلت في قبضة المسلمين ومنذ استقر سلطان الفاطميين في صقلية عام 305 هـ / 917م انطلقوا يوالون غاراتهم على قلورية وسلى نو ونابلى التي لم يتجدها سوى الخنوع بدفع الجزية للعرب لا سيما بعد أن هاجمها الفاطميون عام 317 هـ / 929م بأربع وأربعين سفينة وأرسلوا عام 324 هـ / 935م أسطولهم ضد كورسيكا وجنوة حيث حرقوا الكثير من السفن ثم حولوا نشاطهم إلى إيطاليا البيزنطية قبل عام 339 هـ / 950م إذ أغاروا من جديد على قلورية فلم يعد السلام للمنطقة إلا بتجديد الجزية وأصبحت المراسي الإيطالية تتخلص من سيادة بيزنطة التي عجزت عن إنقاذها من ضغط الأسطول الإسلامي وكان الرستميون والأدارسة حلفاء للأمويين بالأندلس فاضطر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث خوفا من مغبة نوايا جيرانه الفاطميين إلى تشييد أسطول ضخم استولى عام 319 هـ / 931م على سبتة وأحرق عام 333 هـ / 944م معظم سفن قراصنة الشمال في اشبيلية وبالفعل أغار الأسطول الفاطمي عام 343 هـ / 954م انطلاقا من صقلية على الأندلس فهاجم المرية قاعدة

الأسطول الأموي الرئيسة فانتقم الأمويون بإرسال سبعين سفينة ضد الشواطئ الإفريقية وبالرغم عن جولات جوهر الصقلي أقدر قواد الفاطميين ضد الجزائر والمغرب الأقصى فإن قوة عبد الرحمن الثالث ظلت مسيطرة على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبي مهددة قوة الفاطميين في صقلية وشمال إفريقية.

والواقع أن روح القرصنة كانت سائدة آنذاك سواء عند المسلمين أو المسيحيين وكانت أوكارهم في جزر المتوسط وموانيه مستقلة داخليا بتشجيع من السلطات الرسمية التي كانت تشاركهم التمتع بقسط من أسلاب القرصنة مما سيكون له مثيل في بحبوحة القرن السادس عشر الميلادي حيث نهجت (اليزابيث) ملكة انجلترا نفس السياسة وهذا لم يمنع من وجود أساطيل نظامية لدى الأغالبة والفاطميين والأمويين الذي تساوقت تنظيماتهم فكان أمير البحر لدى الأمويين هو المشرف على مائتي سفينة في المرية وبجاية وأحد القادة الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة كما كان قسيم الخليفة في السلطان هذا يحكم البر وذلك يسيطر على البحر وقد كان لكل سفينة قبطان مسؤول عن الأسلحة والمحاربين وكبير للبحارة أو رئيس يتولى إدارة الشرع والجاذيف وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو أصحاب المناصب العليا إذا لم يتول القيادة كبير أمراء البحر بنفسه ويظهر أن نظام الأسطول الإسلامي في الشرق كان شبيها بالنظام البحري غربا فكان كلاهما مجهزا بمركب نفطي مشابه للنار الاغريقية في شكل حراقات قاذفات للهب ترمي سفن الأعداء بمادة سريعة الاشتعال كما وقع عندما أحرق الفاطميون أسطول البحر التيراني عام 324 هـ / 935م.

ويظهر أن سفن الامبراطورية البيزانطية كانت أكثر ضخامة رغم اضطرارها إلى ملازمة الدفاع دون الهجوم إذ اتضح أن أساطيل بيزنطة كانت تدرب على تجنب ملاقاة العدو إلا في حلات الضرورة القصوى حيث كانت تعتبر سندا فقط للقوات البرية ومع ذلك فقد ظلت القوة البرية لدى المسلمين موازية للقوة البحرية حيث ظلت الحدود بين الطرفين بالأندلس من عام 212 هـ / 827م إلى عام 349 هـ / 960م[8] هي هي دون كبير تغيير إلا أن القوات البحرية الأموية تدخلت عندما حاول القشتاليون توسيع حدودهم صوب الجنوب وحتى بالنسبة لبيزنطة كان الخطر البري يأتي من جهة البلغار والقبائل الأسيوية الرحالة.

وفي هذا العام (960م) كان الأسطول البيزنطي الذي هاجم جزيرة كريت يضم ألفي سفينة حربية (1360 للسفن والامداد) ومنها ما كان به 250 مجدفا في أربعة صفوف من المجاديف ومنها سفن كانت صالحة لانزال الجنود مع القدرة على الرسو بالشاطئ بفضل زلاقات تعبر من فوقها إلى البر وقد حدا هذا الخليفة العزيز الفاطمي إلى بناء أسطول حربي من ستمائة قطعة في مثل هذه الضخامة بدار صناعة جديدة بالمقس عام 995م وقد وصف لنا ناصرى خسرو الرحالة الفارسي في القرن الحادي عشر إحدى هذه السفن بأنها تبلغ 275 قدما طولا و110 أقدام عرضا إلا أن مؤامرات بيزنطية خربت دار صناعة المقس عام 995م بواسطة عملاء من التجار اليونانيين الذين ألقي عليهم القبض آنذاك وأعدموا واستمر بناء الأسطول

---

8) راجع كتاب الخطط الحربية Tactita (ليو ص 989).

بعد ذلك إلا أن الظاهرة المزعجة في خصوص تطور الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط ـ رغم توفره على العدة الكافية من الأخشاب والحديد لبناء السفن ـ هي انعدام وحدة بحرية شاملة تضم أشتات أساطيل الدول الإسلامية المحيطة بالبحر فكان للوسط أسطوله في صقلية وللغرب قوته في الأندلس ولشرقه أسطول أضخم في كريت وسورية ومصر توحدت قطعه في عهد الطولونيين والاخشيديين إلا أن الاصطدام بين هذه القوات البحرية الثلاث لم يقع إلا أوائل القرن العاشر بظهور الفاطميين الذين وجهوا ضرباتهم للمصريين والأندلسيين معا من عام 302 هـ / 914م إلى 339 هـ / 950م فكان من مظاهرها وجود ثلاث خلافات إسلامية بقرطبة والمهدية وبغداد[9] ومع ذلك فإن سيادة الأسطول الإسلامي كان لها كبير الأثر على إنعاش التجارة الدولية بين شقي البحر المتوسط الشرقي والغربي لا سيا بعدما تم تصنيع الأندلس وإفريقيا الشمالية بالإضافة إلى امتداد الزراعة من خلال انتشار نباتات المناطق الحارة كالليمون والبرتقال والأرز وتوت دود القز وقصب السكر ففرض الغرب الإسلامي سياسته الاقتصادية في المتوسط بتوسيع تداول الذهب مظهر رخائه وثرائه ـ في شكل الدينار الذي أصبح عام 950م نقدا دوليا بينما كان مقتصرا حوالي 184 هـ / 800م على شمال إفريقية وسورية ومصر وقد سك عبد الرحمن الثالث منذ أوائل القرن العاشر الميلادي دينارا أندلسيا على قاعدة الذهب لا الفضة واستمر ذلك بالمغربي الأقصى وحتى في صحرائه الممتدة إلى حدود السنغال من عهد المرابطين[10] إلى القرن الماضي وقد أحدث هذا التطور تغييرات جذرية في

9) القوى البحرية... ارشيبالد ص 252.

10) حيث بلغ 3,960 غرام من الذهب ثم ارتفع أيام الموحدين إلى قيمته في صدر الإسلام وهي ما بين 4,729 و4,25 غرام.

اقتصاديات المتوسط وازنت بين التصنيع والتنقيبات المنجمية والزراعة وهنا ظهر عنصر جديد كان له أثره في المساس بميزان القوى في المتوسط ففي الوقت الذي كان المسلمون يغيرون على إيطاليا حيث هاجموا مدينة بيزة عام 395 هـ / 1004م انطلاقا من الشواطئ الإفريقية ومن الأندلس معا - مواصلين هجماتهم على طول الشواطئ الإيطالية - ظهر النورمان لأول مرة فأحدق الخطر بصقلية الإسلامية وعاصمتها (بالرم) فاستنجدت ببني زيرى حكام المهدية[11] الذين سارعوا إلى تقديم العون وكان المعز بن باديس قد بنى أسطولا فسارع حوالي 418 هـ / 1027م إلى إرسال أربعمائة سفينة لنصرة أهل صقلية قضت على معظمها عواصف عاتية قرب جزيرة قوصرة وأنقذت صقلية أحداث أخرى مكنتها من مواصلة الصراع بجنب شمال إفريقية حتى أصبحت شواطئ اليونان عام 424 هـ / 1032م هدف البحرية الإسلامية ولكن أسطولا بيزنطيا استطاع عام 421 هـ / 1035م أن يقضي على الأسطول الإسلامي في شواطئ ليسيا Lycia (من آسيا الصغرى) فجنحت صقلية للسلم بسبب خلافاتها الداخلية بين العرب والبربر واعترف أميرها بسيادة القسطنطينية التي اكتسحتها مع ذلك عام 430 هـ / 1038م غير أن البيزنطيين ما لبثوا أن انهاروا عام 434 هـ / 1042م فتدهورت قوتهم البرية والبحرية وفقد الأسطول الفاطمي في نفس الوقت الكثير من مقوماته وكان النورمان من طوائف غرب أوربا التي شاركت في غزو صقلية عام 430 هـ / 1038م كما شاركت عام 409 هـ / 1018م مع القراصنة الفرنسيين في المحاربة بجانب أمير برشلونة ضد مجاهد بن يوسف

---

11) كانت لهم دار صناعة بالمهدية مكنتهم من بناء مائتي سفينة دفعة واحدة في المرة الأولى منذ عام 407 هـ / 1016م.

العامري فتبلور في ذلك كله الاتساع الأوربي الغربي جنوبا نحو البحر المتوسط وكان العامري هذا أحد ملوك الطوائف الذين ورثوا عرش الأمويين فأعد انطلاقا من حاضرته في دانية أسطولا قويا ضم به جزر البليار إلى أملاكه عام 405 هـ / 1014م ثم هاجم عام 406 هـ / 1015م سردينية على رأس مائة وعشرين سفينة وظل هذا الأسطول يهدد شواطئ المسيحيين حيث أغار على إقليم برشلونة عام 409 هـ / 1034م وتساوق ظهور النورمان مع الانتعاش المفاجئ للقوة البحرية في كل من بيزة وجنوة وكامل ساحل إيطاليا الشمالي الغربي فطردتا العامريين من سردينية عام 407 هـ / 1016م بل تجرأتا 426 هـ / 1034م على مهاجمة (بونة) الجزائرية وقد استطاعت (بروفانس) في نطاق بحرية أوربا الغربية أن تطرد المسلمين من ربوعها ولم يستهل عام 435 هـ / 1043م حتى أصبح هؤلاء البحارة الإيطاليون أصحاب القوة الداهمة في مياه هذا البحر الذي ظهر في منتصف القرن الحادي عشر بمظهر جديد كان أقل مجاليه استيلاء بيزنطة على كريت وقبرص وشمال سوريا وانحصرت الطريق البحرية بين بلاد الغرب والشرق الإسلامي في سبل وعرة على طول الشاطئ الإفريقي بين سوسة والاسكندرية وذلك نظرا لانهيار كريت حامية شواطئ مصر وقبرص حامية السواحل السورية وهذا التقدم الذي طرأ على المجال الملاحي في القرن الحادي عشر الميلادي يرجع في الحقيقة إلى طروه تغييرات جذرية في مجتمعات أوربا الغربية في نفس الوقت الذي طرأ انحلال خطير على المسلمين شرقا وغربا خاصة بعدما تقاعست الارستقراطية العربية عن الجهاد بالأندلس تاركة الحبل على الغارب لمرتزقة مسيحيين مغامرين وقد تبلور هذا التطور الذي تدرج نحو نصف قرن إلى انتصار أساطيل غرب أوربا

الإيطالية على قوتي المسلمين والبيزنطيين البحريتين وأصبح الأوربيون عام 494 هـ / 1100م سادة كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية في فلسطين وسورية بالإضافة إلى سيطرتهم على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب.

وزاد الطين بلة اكتساح بني هلال وبني سليم لمصر وتونس عام 444 هـ / 1052م فانهار بنو زيرى وتبعهم الحماديون في قلعتهم (قلعة بني حماد) وتجمع المهاجرون من اشتات الدولتين في منطقة التلال (منطقة القبائل الصغرى) وعقد صاحب المهدية معاهدة حلف وصداقة مع روجير عام 468 هـ / 1075م كما انتكس الشرق في سورية ومصر حيث ثارت عام 452 هـ / 1060م جيوش العبيد والمرتزقة موالي الفاطميين والغريب أن المرابطين تحركوا في نفس السنة وحاولوا توحيد الراية الإسلامية عام 479 هـ / 1086م إلى بجاية وكانت قوة بيزة قد هاجمت في العام التالي 480 هـ / 1087م بأربعمائة سفينة مدينة المهدية معقل الزيريين على ساحل تونس واستطاع ملك قشتالة أن يحتل طليطلة عام 478 هـ / 1085م وأجبر المعتمد بن عباد أمير اشبيلية على الانصياع وأسهمت المدن الإيطالية في هذا الزحف الصليبي على الأندلس كما شاركت قوة النورمان التي انطلقت تدعم عدتها الحربية منذ أن استولى على زعامتها روبرت جسكارد عام 435 هـ / 1043م فاعترف البابا بمركزه كامبر تابع للبابوية وظهر أخوه روجر في جنوب إيطاليا حيث كان يشرف على كتائب نورماندية فاستطاع بست وخمسين سفينة احتلال مدينة بلرم عاصمة المسلمين بصقلية ثم استولى عام 480 هـ / 1087م على سرقوسة وأكمل احتلال الجزيرة بعد ثلاثين سنة من الغزوات الموصولة اعقبها عام 483 هـ /

1090م بالاستيلاء على مالطة رغم معارضة السفن البندقية له فتفاعل كل ذلك لخلق ما سمي بالحرب الصليبية الأولى حيث خرجت عام 490 هـ / 1096م من غرب أوربا أشتات من البشر يقودها بطرس الناسك ووالتر المفلس حيث وصلت إلى القسطنطينية كقوات اقطاعية تستهدف الغنائم في مسارها وكان أسطول جنوة والبندقية هو الذي أعان الجيوش الصليبية عام 494 هـ / 1100م على الاستيلاء على (يافا) دون أن يستطيع أسطول الفاطميين الوصول إلى المياه السورية لصد الصلبيين الذين بادر الأسطول المرابطي إلى مطاردتهم شرقي البحر المتوسط إلى سواحل الشام[12] والواقع أن القطع البحرية التي أنشأها يوسف بن تاشفين قد خاضت غمار المتوسط في شقيه وانبرى الزعيم المرابطي قبل الحرب الصليبية الأولى لتحرير إمارات الطوائف فاحرز في معركة الزلاقة عام 479 هـ / 1086م ضد الفونس السادس ملك قشتالة (1065 ـ 1109م) نصرا تردد صداه في الشرق والغرب وذاع صيت القائد الظافر الذي لقب منذ ذلك بأمير المسلمين مع استمرار دعوته لدار الخلافة العباسية تركيزا للوحدة الكبرى وتكونت امبراطورية واسعة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى) والأندلس تحت الحكم المرابطي ثلاثة أرباع قرن (إلى عام 537 هـ / 1142م وقد خلدت أغنية رولان (Roland) نشاط المرابطين في البحار.

وقد اقترن ظهور الموحدين بتزايد هجرة فلاسفة وعلماء الأندلس أمثال ابن رشد الذي يعتبر أول من تحدث عن العالم الجديد وراء بحر الظلمات على أن صلة العرب عموما والمغاربة خصوصا بالقارة الأمريكية ليست وليدة الكشف فى آخر القرن الخامس عشر الميلادي عما يسمى بالقارة

12) تحدث بذلك الفونسو السابع (راجع دوزى ـ تاريخ الإسلام).

الجديدة بل هي عريقة في التاريخ تمتد جذورها إلى ما قبل الميلاد فقد انتقل الفينيقيون الكنعانيون العرب من الشمال الإفريقي بعد هدم القائد الروماني (سيبيون) لمدينة «قرطاج» عام 146 ق.م. إلى مناطق من المحيط الاطلنطيقي أدى بهم التطواف حولها طوال ثلاث سنوات للوصول إلى أمريكا الجنوبية حيث أسسوا مراكز تجارية تشهد الحفريات بوجودها بعد هذا التاريخ بقليل، ويتجلى ذلك بصورة واضحة من الرخامة التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد (الاديزلونيتو)[13] وهي تحمل تاريخ 125 ق.م.

13) ضمنها الجزء الأول من كتابه (الانطروبولوجية راجع أيضا مجلة «تقويم المنصور» للأستاذ توفيق المدني (عدد 1343 هـ) حيث نشر صورة للرخامة وبحثا حول كشف الفينيقيين للبرازيل، وكتابا حول وصول الفينيقيين إلى (كولومبيا) لإبراهيم هاجر صدر بالاسبانية في (بونس - إيريس) بالأرجنتين (مجلة المعرفة عدد 10 دمشق).
وذكر ابن الوردي في جغرافيته أنه يوجد وراء الجزر الخالدات جزائر عظيمة وصفها وصفا ينطبق على وصف بلاد أمريكا. وابن الوردي عاش في القرن الرابع عشر أي قبل كولمب بأكثر من مائة سنة (عبد القادر المغربي - محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ج 2 ص 33) وقد لاحظ أن ابن عربي ذكر أن وراء المحيط الاطلنطيقي اما من بني آدم وعمرانا وقد عاش قبل كولمب بثلاثة قرون (ص 233). وتحدث صاحب (مسالك الأبصار) نقلا عن شيخه الاصفهاني قبل كولمب بمائة وخمسين سنة عن احتمال وجود أرض وراء المحيط وقد توفي الاصفهاني عام 749 هـ - 1348م.

a) – American A.C. by Prof. Batty Tell (1977).
b) – The cam Befor Colombus : Africans in the New Wold by prof.
Ivan Van Sertima (1977). Rutgers University
prof. Tell – Harvard University
c) – Africa and the Discovery of America (3 volumes) by prof. lea Viner or Welner (1923).
d) – Cauvet, les Berbères en Amérique, Alger 1930.

وهل يرجع إسم (برازيل) إلى إسم القبيلة البربرية المسيلية بني برزل أول البرازلة الذين هاجروا من الجزائر في القرن العاشر الميلادي إلى الأندلس ومنه أيام ملوك الطوائف إلى أمريكا - وذكر توفيق المدني أول من اكتشف أمريكا (أضواء على التاريخ الإسلامي في الجزائر - محاضرة نادي المؤتمر الإسلامي - القاهرة 1959 - المدخل إلى الإسلام للدكتور محمد حميد الله ص 195 ط باريس 1963).

أي بعد احتلال الرومان لقرطاج عقب نزوح الفينيقيين عنها بنحو العشرين سنة وهي مكتوبة باللغة البونية حيث توجد عشرات «الالفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا يخفى حق على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق[13]، ومعلوم أن اللغة البونية تركزت في المنطقة في اعقاب انتشار الحضارة الفينيقية انطلاقا من مدينة «قرطاج» على طول ساحل الشمال الإفريقي غربي البحر الأبيض المتوسط[14] وقد بدأت البونية تختلف تدريجيا عن الفينيقية الكنعانية تحت تأثير اللهجات المحلية أي البربرية التي تأثرت هي الأخرى بهجرة أهل اليمن من (حمير) في فترات متوالية خاصة بين مصامدة الأطلس الكبير وصنهاجة الأطلس الأوسط وكتامة السهول[15].

وقد بدأت اللغة البونية تتوغل بعمق في ربوع المغرب الأقصى حوالي 480 ق.م. بعدما تسربت فلولها منذ عام 1101 ق.م. وهو تاريخ تأسيس

14) ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي : «هنا احنا بني كنعان فرنم حقره حل «يمكن نقلها إلى عامية الشمال الإفريقي كما يلي : «هنا احنا بني كنعان من فرام حملنا الحقرة» ومعناها بالفصحي : «هنا نحن بني كنعان من فرام تحملنا الاحتقار «وما زالت العامية المغربية تستعمل إلى الآن كلمة (حقرة) بمعنى احتقار وكلمة (احنا) بمعنى نحن وكذلك في أقطار عربية أخرى كالعراق.

15) أوصل صديقنا المرحوم العلامة محمد المختار السوسي الألفاظ البربرية العربية الأصل إلى أزيد من خمسة آلاف في دراسة مقارنة ما زالت مخطوطة وهي في معظمها كلمات ظاهرة المصدر العربي الجاهلي تندرج في ضروريات الحياة البدائية وتعتبر من أبرز مقومات اللغة في المجتمعات البشرية الناشئة كان البرابرة يستعملونها منذ أعرق العصور في مخاطباتهم اليومية (راجع كتابنا «تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث» ـ ط. القاهرة 1969 ص 26).

مدينة (ليكسوس الفينيقية)[16] وظلت البونية متغلغلة في البادية المغربية حسب تـأكيـدات الأسقف الإفريقي (سـان ـ أجسطين) إلى عهـد الفتـح الإسلامي في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضـارة اللاتينيـة التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثا تمتد أضلاعه من طنجـة إلى وليلي إلى شالة مع سلسلة من المدن الرومانية على طول شاطئ المحيط[17] وقد أعاد التـاريخ نفسه فكان (ابن رشد) الطبيب الفيلسوف (المتوفى عـام 595 هـ / 1199م) أول من تحدث عن القارة الجديـدة في (بلاط الموحـدين) بمراكش ومنه انطلقت فكرة وجود أرض يـابسة وراء المحيط. وقـد اعترف (كريسطوف كولومب) نفسـه[18] بـأنـه لم يشعر بهـذا الوجود إلا بعد قراءة

---

16) تقع قرب «العرائش» وهي التي بنيت على إنقاضها مدينة (تشمس) الإسلامية (راجع كتابنا «الفن المغربي» باللغتين العربية والفرنسية).

17) انكر ابن خلدون نقلا عن (ابن حزم) عروبة هذه القبائل رغم إجماع نسابة العرب على ذلك مستندا إلى أن مؤرخي مصر لم يشيروا إلى مرور الحميريين من (دلتـا) النيـل وهي دعوى واهية، لأن المرور كان من الصحراء الجنوبية عن طريق (بحر القلزم) وهو ممر أقرب إلى المغرب وكان مطروقـا إلى القرن الثـالث الهجري حسب (ابن خرداذبـه) ثم القرن العـاشر حسب (الحسن بن محمد الوزان) (المعروف بليون الافريقي) الذي رافق إحدى القوافل في هذه الطريق ومظاهر الشبه والوحدة القـائمة اليوم بين اليمن والمغرب تشهد بصحة ذلك خاصة في ميدان الموسيقى والرقص والهندسة المعارية واللهجة وقد وردت على المغرب من (عمان) فرقة فلكلورية لهجتها قريبة جداً من (تشلحيت) وقد نشر المؤرخ الألماني كتابا بعنوان : «البلاد بدون ظل»، Helfrit (Pays sans ombre).
أبرز فيه مجالي هذه الوحدة.

18) عاشت الجالية الرومانية ضمن هذه المدن في قفص مقفل بعيدة عن المجتمع البربري المحيط بها وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون غربيون دهشوا أمام هذا التجاوب العميق بين الفينيقيين والمغاربة مما مهد للفتح الإسلامي بانتشار «لغة قريبة من العربية» قبل الميلاد بقرون

كتاب (الكليات) في الطب لابن رشد «في مخطوطته اللاتينية» على أن مجلة «نيوزويك» الامريكية[19] قد أكدت أن العرب انطلقوا قبل عام 1100م (أي عام 494 هـ أي قبل (كريسطوف كولومب) بأربعة قرون من «أنفا» (أي الدار البيضاء الحالية) فرسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي.

وقد حدثنا الشريف الإدريسي في نزهته عن «الفتية المغررين» الذين غامروا انطلاقا من «مرسى آسفي» في ثبج المحيط ووصلوا إلى بعض الجزر النائية كل ذلك انسياقا مع ما أشيع آنذاك خاصة بالأندلس من احتواء غرب «المحيط الاطلنطيكي» على جزر مكثفة تستحيل في نهاية المطاف إلى أرض يابسة شاسعة.

والواقع أن الموحدين الذين انطلقوا من الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى لتوحيد المغرب العربي هم الذين واصلوا حمل مشعل الإسلام في البحر المتوسط حيث ظل العرب وحدهم سادته[20] طوال أكثر من قرنين وقد لخص ابن خلدون هذه الظاهرة بقوله : «وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر (أي الرومي) وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام

= وذلك خلافا لما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته (ج 1 ص 53) من أنه «لا عربية في المغرب قبل الإسلام اتفاقا» فكلمة «قرطاج» مثلا أصلها (قربة حداش) (صحفت إلى قرتاش بتعطيش الجيم) ومعناها القرية الحديثة بالنسبة لأول مدينة فينيقية أسست في المنطقة وهي عتيقة Utique في نفس العام الذي أسست فيه مدينة «ليكسوس» المغربية وكذلك «حتبعل أصله حن (من الحنين) وبعل أي نعمة أي نعمة الله وكان إسم أبيه هو «هاملكار» أي حامي القرية وهو الذي حارب الرومان في صقلية.

19) أكد ذلك رونان Renan في كتابه : Averroïs et l'Averroïsme Paris, 1923

20) في (عدد أبريل 1960).

إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب العربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قواد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون[21] رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المومن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعا، ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي... إلى أن قال : «وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه...» وهنا أشار إلى أن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر والشام تتابعت في عهده أساطيل النصارى ضد ثغور الشام لم تقاومهم أساطيل الاسكندرية فأوفد الأيوبي ليعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ (من بيت بني منقذ ملوك شيزر الخ).

نعم استطاع عبد المومن بقطع بحرية بلغت الأربعمائة[22] تخليص إفريقية من النورمانديين والضرب على أيدي الهلاليين والسلميين بعد أن بنى أعظم قاعدة استراتيجية في المتوسط هي قاعدة جبل طارق في سنة الأخماس (555 هـ / 1160م) وقد رابطت منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على

---

21) جوستاف لوبون - حضارة العرب - الطبعة الفرنسية ص 284.

22) ذكر ابن خلدون في تاريخه (ج 6 ص 161) أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين عام 416 هـ الذي غزا صقلية وكذلك محمد بن ميمون.

وادي سبو قرب سلا وحدها مائة وعشرون قطعة وقد جعل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن من هذا الأسطول أعظم أسطول في المتوسط[23].

وقد ازدهرت حضارة جديدة في البحر المتوسط من الأندلس إلى ليبيا إلى الصحراء بزعامة يعقوب المنصور منذ ظفره على الصليبية المتكتلة في وقعة الأرك (591 هـ / 1195م) أي بعد وقعة حطين بنحو عقدين من السنين وشعر البابا اينوسان الثالث (عام 1198 ـ 1217م) بالخطر الداهم فتكاتفت البابوية مع ملك قشتالة الفونس الثامن (1158 ـ 1264م) وأسقف طليطلة رودريك جينيز للكر من جديد على الإسلام المتوثب في وقعة العقاب (609 هـ / 1212م) التي كانت هزيمة شنعاء ضعضعت مقومات الامبراطورية الموحدية في الغرب في نفس الوقت الذي بدأ المسيحيون يندحرون في مصر خلال الحرب الصليبية الخامسة (616 هـ / 1219م) حيث طردوا نهائيا من الأماكن المقدسة بعد معركة غزة 642 هـ / 1244م واتجه المرينيون يلمون الشمل معيدين للبلاد وحدتها في حدودها الإفريقية مع الحفاظ على جانب من الأسطول مكنهم من الجواز مرارا إلى الأندلس لإنقاذ الدولة النصرية (دولة بني الأحمر) التي ضيق عليها الخناق الفونس العاشر.

وفي عام 684 هـ / 1285م نزل السلطان يعقوب المنصور المريني في الجزيرة الخضراء بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بازائها فبرزت الأساطيل وكان عدد قطعها آنذاك ستا وثلاثين متكاملة في عدتها ـ وهو

---

23) ابن أبي زرع (القرطاس ج 2 ص 164 / الاستقصا ج 1 ص 158 وج 2 ص 128.

جـالس بشـور قصره فلعبت برأى منـه في البحر وتجـاولت وتنـاطحت وتطاردت كفعلها مع العدو في ساحة الحرب[24].

وظلت سبتـة منطلق الإنقاذ إذ عنـدما حـدث الخلاف بين يعقوب المنصـور المريني وابن الأحمر عـام 678 هـ / 1279م تجمعت بمرفـأ سبتـة أسـاطيل منهـا خمس وأربعـون قطعـة لأبي حـاتم العـزفي واثنتـا عشرة لابن الأحمر انطلقت من المنكب والمرية ومالقـة وخمس عشرة قـدمت من بـادس وسلا وأنفا التحمت مع أربعمائة قطعة للعدو فلكتها وأسرت قائدها (الملنـد) الذي نقل أسيرا إلى فاس[25] وكان أبو الحسن بن كاشـة قـائـد البحر بسبتـة عام 709 هـ / 1309م أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة وعندمـا عـاد أبو الحسن المريني عـام 750 هـ / 1349م من تـونس بعـد مقـام طـال عـامـا ونصف عام وبعد أن عقد لابنه أبي الفضل نزل أسطولـه بمرسى بجـايـة بعـد خمس ليال من اقلاعه من تونس ثم أبحر من جديد فتكسرت أجفانه وقـذف الموج بـالسلطـان على حجر قرب السـاحل من بلاد (زواوة) حيث تـداركـه جفن من بقيـة الأسـاطيـل وكانت الأسـاطيـل (حسب نفح الطيب) نحـو السمائة غرقت كلها وهلك من أعلام المغرب نحو أربعمائة عالم منهم (محمـد بن سليمان السطي) شـارح (الحوفي) و(محمـد بن الصبـاغ المكنـاسي) وأبو العبـاس (الزواوي) وقد ذكر الأبي في شرح مسلم عنـد كلامـه على أحـاديث العين أن مصاب هذا الأسطول بنظرة عائن كان معروفا بتلـك الـديـار[26] وكان ابن

---

24) اندري جوليان ـ تاريخ إفريقيا الشمالية ص 412.
25) (الاستقصا ج 2 ص 30).
26) (الاستقصا ج 2 ص 25).

فرحون زيد هو قائد أسطول بجاية أيام الحفصيين وقد شارك[27] بست عشرة قطعة بحرية في (وقعة طريف) عام 740 هـ / 1339م.

أما الأسطول المريني فقد ورد وصفه في رحلة أبي عنان المريني المسماة (فيض العباب) لإبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج مع ذكر أسماء بعض رؤسائه وشاراته وأعلامها وموسيقاهم، أما الأسطول السعدي فلم يكن له دور كبير في الحروب ولكنه استفاد ماديا من هجمات القراصنة على شواطئ الأندلس وكان وجوده يشكل وسيلة ضغط على إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تذكران ما قام به الأسطول في عهود المرابطين والموحدين والمرينيين وكان قد مر قرنان اثنان على انهيار الأسطول المريني في عهد أبي الحسن فكانت المحاولة الجديدة عام 956 هـ / 1549م جديرة بإثارة الانتباه وقد أصبح القراصنة يعيثون في البحار وفي مراسي المغرب فرابط القرصان من أتراك الجزائر في العرائش حيث امتدت أوكار قرصانية في موانيء أخرى كتطوان وبادس بل ان القرن الخامس عشر شهد استيلاء البرتغاليين على معظم المراسي في مصبات الأنهار المغربية الأمر الذي حال دون قيام أسطول مغربي وقد بدأ ذلك باحتلال سبتة عام 818 هـ / 1415م فلهذا حاول محمد الشيخ السعدي تكوين أسطول بحري بالإضافة إلى وحدات كانت في ملك رؤساء تطوان وبادس فقام ورش بحري في بادس بالريف قرب غابات البلوط والأرز والصنوبر وورش آخر في سلا وقد بنيت أربعة مراكب في بادس وأربعة أخرى في سلا عام 956 هـ / 1549م بالإضافة إلى مركبين مجدافيين أو شراعيين وثلاثة مراكب مجدافية وطلب محمد الشيخ من أبي

---

27) (الاستقصا ج 2 ص 84).

حسون الوطاسي أمير بادس التعاون معه على صنع مائة مركب ومائة أخرى مسطحة لنقل الجند ولكن أبا حسون لم يكن يثق بالسلطان السعدي ففر إلى مليلية في نفس السنة ولعل السعديين كانوا يستهدفون من أسطولهم تحرير الجيوب البرتغالية الثلاثة التي كانت تقاوم خلال الحصار نظرا لما يتوارد عليها من إمدادات من جهة البحر ولكن الحرب التي نشبت بين المغرب والجزائر عام 959 هـ / 1551م وتهديد الأتراك للمغرب حال دون استمرار السعديين في تعزيز أسطولهم فاضطروا إلى مساعدة الإسبان ضد الأتراك.

ففي عهد عبد الله الغالب بالله كان الأسطول الحربي يتوفر على نحو ثلاثين مركبا بلغت الأربعين عند بداية ثورة الأندلسيين في جبال غرناطة عام 976 هـ / 1568م ومهما يكن فإن الأسطول احتفظ بهذا العدد من القطع عام 985 هـ / 1577م في عهد المولى عبد المالك ولم يكن أسطول (دايات) الجزائر أكثر عددا ولكنه كان أجود نظرا لتقلص التقاليد البحرية بالمغرب خلال قرنين ومع ذلك فالمهم هو شعور الملوك السعديين بأن تعزيز وضعهم في إفريقيا والبحر المتوسط لا يمكن أن يتم بدون أسطول إذ بفضل هذا الأسطول اضطر البرتغاليون إلى الجلاء عام 957 هـ / 1550م عن مراكز قوية في الساحل المغربي مثل أصيلا والقصر الصغير ويظهر أن المنصور السعدي استعاض عن سياسة التوسع عبر المتوسط وخلال الأندلس بالتوسع جنوبا نحو الصحراء والسودان لهذا لم يعد للأسطول وجود بالمغرب في القرن السابع عشر الميلادي إذا استثنينا أسطول القراصنة بجمهورية سلا والرباط في الفترة المتراوحة بين 1040 هـ / 1630م و1050 هـ / 1640م

حيث بلغت وحداته الحربية نحو الثلاثين امتد نشاطها القرصني إلى «تيرنوف» وإيرلندا والجزر الخالدات[28].

ولم يكن لأحمد المنصور في سلا عدا ثمانية مراكب لمحاربة الإسبان[29] وقد أشار صاحب «تاريخ الدولة السعدية» إلى الأسطول السعدي في العرائش وسلا وحاول مولاى زيدان بعد معاهدة 1610م / 1019 هـ بين المغرب وهولندا تكوين أسطول يجلب ربابينه من هولندا وقد صنعت بالفعل قطع أولى لهذا الأسطول هي ثلاث سفن وقيل خمس[30] كما وصل إلى آسفي أربعة مراكب[31] وقد هاجم الإسبان هذا الأسطول فاغرقوا باخرتين في سلا[32] نعم في عام 1019 هـ / 1610م توجه القائد أحمد بن عبد الله إلى (روتردام) وطلب تزويد السلطان بعدة سفن حربية فوافق المجلس على ذلك وقرر إنشاء ثلاثة أو أربعة مراكب من حمولة مائتي طن مع تجهيزها بالملاحين والمدافع وعين لها قائد أعلى هو **Martin Van Rysbergen** مع إمكان تزويد المغرب بالربابين والسفن والعتاد وقد امضيت في 24 دجنبر 1610م 1019 هـ ضمنت عدم تصادم مراكب البلدين في البحر وعدم بيع نهب القراصنة ضد السفن الهولندية في أسواق المغرب، ويظهر أنه بعد أن طلب السلطان مولاى زيدان من هولندا أن تصنع له أربع سفن عاد فطلب منها عام 1621م / 1031 هـ بناء فرقاطتين أي

---

(28) (الاستقصا ج 2 ص 66).

(29) هبريس ـ عودة م ■ (1972).

(30) دوكاستر ■ ق 1 إنجلترا م 1 ص 504).

(31) (درة الحجال ج 1 ص 313).

(32) دوكاستر ـ س. أ. هولندا م 2 عام 1612 / فرنسا م ■ عام 1611.

حراقتين[33] وقد وجهتا إلى المغرب بخفارة بارجة حربية عام 1922م ولكنها وصلتا إلى مياه إنجلترا وعادتا لعدم استطاعتها مواجهة أمواج عرض المحيط أما بخصوص المراكب الأخرى في المتوسط فقد نقل محمد داود في تاريخ تطوان[34] عن رحلة محمد بن علي الرافعي إلى الحجاز أن المؤلف نزل بجزيرة (رودس) التركية في مركب الرئيس محمد عروج فوجد في الجزيرة ثلاثين سفينة منها واحدة فيها خمس طبقات و75 مدفعا من النحاس وان تلك السفن صنعها السلطان محمد خان بالقسطنطينية.

وكانت الأساطيل القرصنية محط رعاية المولى الرشيد بمصب أبي رقراق لأنها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الأوربي الذي بدأ يتعلل آنذاك بأبسط الأسباب للتدخل في المغرب وكان هذا الأسطول يقض مضاجع الغربيين الذين انبثوا على الساحل فالإنجليز في طنجة والبرتغاليون في البريجة (الجديدة) والإسبان في المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما طفق الفرنسيون يمخرون بسفنهم الحربية على طول المراسي المغربية بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الأبيض المتوسط حيث حصن المولى الرشيد مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور وصارع الإنجليز الذين كانوا يعملون وراء الخضر غيلان.

وأول من وضع الأسس لبناء أسطول وطني قوي هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان للمغرب في عهده (حسب الناصري) خمسون سفينة منها ثلاثون حراقة (أو فرقاطة) بقيادة ستين رئيسا أو ضابطا يشرفون على خمسة آلاف بحار وألفين من الرماة إلا أن الرحالة (هوست)

---

33) (م 2 ص 534 ـ فرنسا).

34) (دوكاستر ـ س. أ. السعديون ج 3 ص 188) و371.

أوصل عدد هذه المراكب إلى اثني عشر فقط وقد انحدرت عام 1180 هـ / 1766م إلى عشرة حسب شيني Chénier[35] ويظهر أن الأسطول العلوي ارتفع بعد بضع سنوات أي 1185 هـ / 1771م إلى عشرين قطعة وهكذا شرع السلطان سيدي محمد بن عبد الله منذ بداية عهده في صنع مراكب في (دار الصناعة) بأبي رقراق جهز كل واحد منها ببطاريات يبلغ عدد مدافعها ما بين 26 و36 على أن بعض المراكب مثل الحراقة التي كانت تحت امرة الرايس الطرابلسي بلغ عدد مدافعها خمسة وأربعين وكانت بتطوان أيضا دور لصناعة السفن في العهد العلوي وقد وجه السلطان سيدي محمد ابن عبد الله إلى كل من (السويد) و(إنجلترا) شبانا من مدينة الرباط للتدريب على بناء السفن والمراكب[36] كما وجه ستائة رجل من (آية عطا) بالصحراء وأربعمائة من تافلالت إلى طنجة للتمرن على المناورات البحرية[37].

والواقع أن السلطان محمد بن عبد الله ركز مقومات الحضارة وواصل تحرير الثغور وكون أسطولا قوامه خمسون سفينة معظمها حراقات حربية تحتوي على ستين قائدا «وأربعين ألف» بحار ووطد العلاقة مع الدول الإسلامية والدول الأوربية على السواء وأمضى معاهدات مع الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها ومع أمم بروتستانتية كالدول الاسكندنافية تحقيقا للتوازن مع الدول اللاتينية الاستعمارية ومدافعة

---

35) ج 1 ص 392 ط تطوان 1379 (راجع حق تملك حطام السفن في العهد السعدي في (دوكاستر ـ السعديون ـ السلسلة الأولى م 1 ص 186).

36) مذكرة القنصلية الفرنسية العامة (الدار البيضاء عام 1943 ص 103).

37) ؟؟؟؟؟؟؟

للبابوية الناقة وكانت أوربا في غمرة من الاضطرابات زادها تأججا انبثاق الاستعمار الناشئ والتسابق نحو غزو الشرق الأقصى وتعزيز الصناعة الأوربية بمواده الأولية بينما كانت الامبراطورية العثمانية تسير في طريق الأفول تحت ضربات الاحلاف الأوربية ـ وخاصة منها الحلف المقدس عام 1815 ـ التي أدت إلى تجريد ملك المغرب سليمان بن محمد بن عبد الله (1206 هـ ـ 1238 هـ) ـ (1790 ـ 1820) من أسطوله بدعوى مساندته للقراصنة وحاول نابليون آنذاك الضغط على المغرب للانضمام إلى كتلة الحصار القاري[38] وشعر العرش المغربي بالدور الذي بدأت فرنسا تقوم به لاحتلال الشمال الإفريقي.

وفي نفس الفترة كانت بعثة من الخبراء الأتراك تقوم بتكوين رماة في الجيش المغربي وفي عام 1204 هـ / 1789م أواخر أيام السلطان سيدي محمد ابن عبد الله كانت البحرية المغربية تتكون من 6 إلى 8 فركاطات تحتوي على مائتي فجوة للمدافع بالإضافة إلى 14 أو 18 مدفعا و12 غليونة وهي مراكب شراعية صغيرة وفي أول عهد مولاي سليمان عام 1208 هـ / 1793م بلغت عشر فراكيط وأربع قلعية شراعية وأربعة عشر غليونة وتسعة عشر مركبا مدفعيا مجهزة بستة آلاف بحار ممتاز وفي عام 1299 هـ / 1820م ثلاث قلعيات وأربعين مدفعا وثلاثة عشر مركبا مدفعيا[39] وكانت البحرية الملكية تتوفر عام 1793م / 1208 هـ عند اعتلاء المولى سليمان أريكة

38) تاريخ الرباط Caillé ص 132.

39) Bloc Continentel هي الحركة التي هدف بها الامبراطور الفرنسي عام 1806م إلى إقفال جميع الموانئ في وجه إنجلترا لتضييق الخناق عليها اقتصاديا.

العرش عشر على حراقات (أو فرقاطات) وأربع قلعيات (أي سفن شراعية ذات قلوع) وأربعة عشر غليونا (مثل التي كان الهولنديون يستعملونها للصيد) وتسعة عشرة من زوارق الإنقاذ المجهزة بالمدافع كل ذلك بتعزيز من ستة آلاف بحار من الملاحين ذوي الشهرة[40] وقد اعترض الأسطول المغربي عام 1217 هـ / 1803م الأسطول الأمريكي المحاصر لطرابلس ففك هذا الحصار ثم بدد أسطولنا عمارة ثانية[41] وكانت مدة اجتياز البواخر لعرض البحر الفاصل بين فرنسا والمغرب يتطلب فترة طويلة فقد قطعت السفينة الفرنسية التي حملت سفير فرنسا لدى المولى إسماعيل سانت - أولون في مايه 1693 ثمانية وعشرين يوما بين فرنسا وفرضة تطوان[42] وكانت السفن تدعى أحيانا باسم خاص مثل (غراب دار الصنعة) الذي تحدث عنه خالد البلوي في رحلته (تاج المفرق) حيث ركب فيه من المرية إلى الحج عام 735 هـ / 1334م فنقله من المرية إلى هنين[43] وقد تطور على نفس النسق الأسطول الرحماني (1243 هـ / 1827م) بين المد والجزر إلى عام 1322 هـ / 1904 أي قبيل الحماية حيث كانت للمغرب سفن حربية منها «الحسنى» و«سيدي التركي» و«التريكي» و«البشير»[44] ويتعزز اليوم هذا الأسطول الملكي بصورة سيصبح معها قديرا على مواجهة مختلف تيارات التجارة البحرية وذلك بسفن ضخمة تمخر عباب البحار والمحيطات لنقل

---

40) (وصف وتاريخ المغرب - كودارج 1 ص 156).

41) نفس المصدر ص 156.

42) (محمد بن علي الدكالي - جريدة المغرب رقم 346).

43) وثائق دوكاستر - س. 2. الفلاليون - فرنسا م 4 ص 1 (1693 - 1698).

44) مرسى هنين مركز في ساحل تلمسان توجد فيه بلده (تاجرة) التي ينتمي إليها عبد المومن بن علي (معجم البلدان ج 8 ص 484) أنشأ جامعها أبو الحسن المريني.

البضائع المغربية إلى جميع أنحاء العالم لا سيا وأن 98 ٪ من المبادلات الخارجية تتم بالطرق البحرية.

المغاربة ومهنة الملاحة :

إن المغاربة لم يكونوا «بحريين» فهم لم يكونوا يهتمون كثيرا قبل اليوم بفن (الملاحة البحرية) حتى في المراسي نفسها ومعظم القراصنة - حتى الذين يوصفون بأنهم سلاويون إنما هم أعلاج أجانب أما سكان العدوتين فالقليل منهم هم الذين تعاطوا هذه المهنة التي اتسع نطاقها نوعا ما بعد توارد الأندلسيين خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين على مصب أبي رقراق وكان لهذه الملاحة نظامها وقوانينها التي كانت تحاول أن تكفل حرية البحار ذلك أن حماية الأشخاص وأمتعة التجار مهما تكن جنسياتهم كانت في نظر المغاربة شيئا طبيعيا وضروريا للتجارة إلى حد أنها كانت تخول لجميع الأجانب «حتى ولو كانت المعاهدات تسمح للحكومة العربية بإنكارها» ذلك ما أكده (لاطرى) الذي أبرز أن روح العطف والحسنى والنزاهة التي أذكت الحكومة العربية إزاء التجار الأجانب قد تجلت في التشريعات المتعلقة بالتهريب وكذلك في التدابير المنصوص عليها في المعاهدات فحتى لو لوحظ انتهاك القانون فإن الجمارك تتقاضى رسومها كما لو أن السلع قدمت بصورة عادية إلى الديوانة ولكن العقوبة تكون آنذاك أدبية[45] معناها أن التاجر الذي يدخل سلعة خفية ويكشف عمله «يفقد سمعته وشرفه فلا يحظى بعد ذلك بثقة العرب» ولم تكن هنالك مدرسة لتخريج الربابين بمعنى الكلمة

45) الاستقصا ج 4 ص 183).

اللهم إلا المدارس التطبيقية وهي (دور الصناعة) التي أسست منذ عهد المرينيين أهمها (دار الصناعة) بباب المريسة بسلا ودار الصناعة بتطوان والورش الذي أسسه العلويون قبالة جامع حسان بالرباط ولعل أول مدرسة حملت هذا الاسم هي (متحف الاودايا) الذي كان يتخرج فيه ربابنة البحر وقد عرفت هذه المدرسة منذ عام 1309 هـ / 1891م[46] وكان لكل مركب أو سفينة ربانها أو رئيسها (ويسمى الريس أو الرايس) وكان لبعض المواني قائد يشرف على البحرية في نطاق عمالته كما كان الحال بتطوان حيث أشرف على البحرية بها القائد أحمد لوقاش المعروف عند الإسبان[47] وقد ولى الخليفة الناصر الموحدي السيد عبد الله بن طاع الله على قيادة البحر بعد أن كان قد عينه قبل واليا على جزيرة ميورقة ومن هؤلاء الرؤساء والربابين : العربي حكم الرباطي رئيس البحر أيام سيدي محمد بن عبد الله[48] وكذلك العربي المستاري والرايس عواد السلوي وقنديل (ص 177) وهو غير قنديل محمد السلوي رئيس المركب الذي كان في ملك المولى إسماعيل وقد أسر في فرنسا وافتدي عام 1688م / 1100 هـ[49] والكوار الرباطي رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[50].

---

46) كما لاحظ (بيركولوطي) (الفصل 27 ص 123).

47) Routh. Tangier p. 221

(مجلة هسبريس ـ تمودة م 9 ص 344 (1968)).

48) (تاريخ الضعيف ص 177 خ).

49) (دوكاستر ق 2 العلويون (م 4 ص 340 ـ 344) (وق 2 ـ فرنسا م 3 ص 172)).

50) (تاريخ الضعيف ص 177).

الأسطول الفاطمي المغربي :

قسم المقريزي السفن المصرية إلى حربية وهي سفن الأسطول للغزو والنيلية وهي سفن تجارية لحمل الغلال والأحطاب وغيرها في النيل إلى أعلى الصعيد أو أسفل الأرض وذلك بالإضافة إلى نوع ثالث للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي للتجارة أو نقل الحجاج إلى جدة :

وأهم القطع :

1 ـ **الشواني الحربية** (جمع شيني أو شينية أو شونة) تعرف بالاغربة أو الغربان تطلى بالقار مع قلوع بيضاء.

وهي مركب طويل له مائة وأربعون مجذافا مزود بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وقد وصفها ابن حمديس الصقلي مخاطبا الحسن بن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى :

أنشأت شواني طائرة وبنيت على مساء مدنا
ببروج قتال تحسبها في شم شواهقها قننا

2 ـ **الحراريق** (جمع حراقة) : لاحراق سفن العدو بالنفط تلى الشواني في الأهمية وأصلها للأغالبة لها نحو مائة مجذاف.

3 ـ **الحرابي أو الحربيات** (جمع حربية) : نوع من الشواني أصغر حجما منها وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسي الأموي : يقول فيها ابن حمديس.

وحربية ترمي بمحرق نفطها فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا

4 ـ **الطرائد** (جمع طريدة : سفن مخصصة لحمل الخيل تسع أربعين فرسا تفتح عادة من الخلف وكذلك لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح وانتقال الناس.

5 ـ **الشلنديات** (جمع شلندي خففت إلى صندل) : سفن كبيرة الحجم لنقل المؤن والسلع وهي مسطحة من أعلى لتمكين الغزاة من مقاتلة أعدائهم من ظهرها بينما يجذف الجذافون تحتهم وهي تشبه المسطحات ولعلها كانت تسمى في الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية (ابن عذاري ج 4 ص 383 / الحلل الموشية ـ طبعة تونس 1329 هـ ص 99) ويقترن اسم الصنادل مع الشواني والمسطحات في مصر الفاطمية.

6 ـ **المسطحات** : تحمل أسلحة الأسطول وهي المراكب الحمالة بالأندلس (نزهة المشتاق للادريسي ص 179).

7 ـ **البطس** (جمع بطسة) مراكب كبيرة ذات عدة طوابق لها أحيانا أربعون قلعا تستخدم لنقل الأزواد والميرة وجموع كبيرة من المحاربين قد يصلون إلى سبعمائة (النوادر السلطانية لابن شداد ـ القاهرة 1964 ص 49).

■ ـ **المركب الغيطاني والمركب العجزي** : يحملان عددا كبيرا من الركاب وأموال طائلة (نظم الجمان لابن القطان ـ تحقيق د. محمود مكي ص 233).

9 ـ **الأعزاري** : مركب صغير أيوبي وفاطمي لحمل الأزواد.

10 ـ **المركوش** : مركب صغير لنقل مياه الشرب (سعته مائة أردب).

أما المراكب التجارية فمنها الشواني (لحمل الغلال وفيها أهراء ومخازن وصهاريج لمياه الشرب) والمراكب السفرية لنقل الركاب من بلد إلى بلد والسفن النيلية أهمها العشاريات كانت تعرف في العصر المملوكي بالحراقات لنقل الغلال السلطانية أو لنزه الخلفاء وكبار القوم وكان عددها خمسين وفيها أنواع لطاف يقال لها السماويات لأنها مكشوفة للسماء أما النوع الثالث من السفن فهي المتنقلة في البحر كانت تسمى الجلاب أو الجلبات (جمع جلبة) لم يكن يستعمل فيها مسمار ـ حسب ابن جبير ـ لأنها مخيطة بأمراس القنبار وهو قشر جوز النارجيل وكثيرا ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر.

ملاحة الخليج وأسطوله :

كانت السفن تدخل الخليج العربي قبل فتح قناة السويس محملة بالبضائع من الشرق الأقصى خاصة للتوابل لتنقل براعن طريق العراق فسورية فموانئ البحر المتوسط إلى أسواق أوربا وازدادت أهمية الخليج العربي البحرية والتجارية في مطلع الحركة الاستعمارية التي استهدفت التوسع شرقا لتأمين الاتصال البحري مع الهند ويمتاز الخليج بأقل نسبة من الأخطار الطبيعية التي تجابه الراكب في البحار الأخرى نظرا لقلة الأمواج العالية (لا يتجاوز عمق المياه على أكبر تقدير الأربعين مترا) وقصر الشتاء وقلة الرياح الموسمية واعتدال الرياح العادية مما أدى إلى قيام مرافئ عديدة على شطان الخليج[51] تساعدها البوصلة في حالة اشتداد الرياح.

51) الملاحة في الخليج العربي لعيسى أحمد النشمي الكويت.

أما السفن والمراكب فكانت تتجه من الكويت إلى اليابان وتخوم افريقيا غربا إلا أن دور الصناعة بالخليج كانت تستعمل الخشب وحده دون حديد ثم ضخم حجم هذه المراكب مع الأيام وهذه السفن أنواع :

1 ـ البوم : للشحن والأسفار البعيدة طوله يصل إلى 150 قدما وعرضه 30 قدما وحمولته ما بين 300 و750 طنا ويستعمل في مجموع الخليج.

2 ـ البغلة : يستعمل لنفس الغرض ويفضله أهل صور جنوبي مسقط وحمولته أقل إذ لا يتعدى 400 طن.

3 ـ الشوعى : مركب للغوص حمولته ما بين 50 و75 طنا وطوله يصل إلى 75 قدما وعرضه 20 قدما.

4 ـ السنبوك : نوعان يماني للشحن والأسفار البعيدة وآخر صغير للغوص وهو أصغر وحمولة الأول تصل إلى 200 طن وطوله 150 قدما.

5 ـ الجالبوت : للشحن والأسفار المتوسطة المدى وهو مفضل للساحل الإفريقي الشرقي حمولته تصل إلى 70 طنا وطوله إلى مائة قدم.

6 ـ الكوتية : نسبه البوم والبغلة يفضله أهل الهند تصل حمولته إلى 400 طن وطوله إلى 150 ق.

7 ـ البتيل : مركب قليل الاستعمال خاصة للغوص في بعض مناطق الخليج قريب الشبه من الشوعى.

الأسلحة البحرية :

اللتوت والدبابيس والمستوفيات : هي عمد من حديد مستطيلة مضرسة في حين أن الدبابيس مدورة والمستوفيات مربعة يبلغ عمودها ذراعين مع مقبض مستدير.

السيوف والرماح والفووس : وهذه الأخيرة لها رأس نصف مستدير حاد النصل وتسمى الفأس أحيانا بلطة أو طبر.

الأقواس والنشاب : منها قسي لرمي قوارير النفط الكلاليب والباسليقات ، خطاطيف حديدية للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلاليم من الجبال لمقاتلة ملاحيها أما الباسليقات فهي سلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من حديد تستخدم في القتال على سطح السفن.

التوابيت : صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت ويرمون بها الأعداء ثم يحتمون في التوابيت وقد يرمون قوارير النفط أو جرار النورة فتعمى الرجال بغبارها.

والنفط البحري كان يجهز من قطران وكبريت ومواد شديدة الالتهاب ولا تنطفئ نيرانها بملامسة الماء ويطلق النفط من آلة نحاسية أو حديدية تسمى النفاطة ويستعمل المنجنيق أحيانا للرمي.

المجانيق والعرادات : آلاف لقذف أحجار ضخمة مضرية تقذف بواسطة الشد على لوالب وقد يرمى بها للنفط أو اجرار الزيت المغلي.

والعرادة آلة تشبه المنجنيق وهي دونه في الحجم تستخدم لنفس الغرض.

وقد ذكر النويري[52] أن مجاهدا مغربيا عرض على الأمير سيف الدين الاكز (767 ـ 768 هـ) بمصر سلاحا جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفام مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول في مسدودة الفم الضيق بمشاقة كالقنابل اليدوية اليوم تعمى الأبصار.

أما دور الصناعة فقد أسس المعز الفاطمي وابنه العزيز دار صناعة بالمقس وكان بها عام 386 هـ ستمائة مركب وكان بمصر أربع دور أخرى إحداها بالاسكندرية أقيمت منذ الفتح الإسلامي وكان على رأسها إبراهيم التازي المغربي والثانية بدمياط والثالثة بجزيرة مصر المعروفة بالروضة وهي أول دار صناعة أسست بفسطاط مصر عام 54 هـ والرابعة دار صناعة مصر أقامها محمد الاخشيد عام 325 هـ وكان الخشب الضروري لبناء السفن يجمع في (حواصل البضاعة) في القاهرة تشتمل على الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات (صبح الأعشى ج 3 ص 475).

وقد أسس الفاطميون ديوان الجهاد أو العمائر لتيسير الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية وكان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر[53] ويختص بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها.

---

52) في كتاب الالمام نقل صاحب (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام) أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم ـ 1972 ص 323.

53) صبح الأعشى ج 3 ص 492.

مصادر في البحر والبحرية في المغرب :

كناش في أمور البحر وهو تقييد ما دخل في يد عبد الهادي العسري من حبة الفشينية ابتداء من عام 1183 هـ / 1769م يشتمل على قائمة بحارة الرباط وسلا وأجورهم وموارد مراسي المغرب المودعة في بيت المال بباب القصبة بالرباط من عام 1183 إلى 1227 هـ (160 ورقة) خع = 1409 د (الأصل بالمكتبة الناصرية بسلا).

- (لواقح الأسرار في حديث البحر والأسفار في توضيح الرسالة الفتحية في صنعة الرياس) لعبد الله ميكاني الرباطي (عاش في عهد السلطان مولاي سليمان (مخطوط في مكتبة الأستاذ عبد الله الجراري).

- «زينة النحر بعلوم البحر» لإبراهيم التادلي الرباطي تحدث فيها عن سير سفن الشراع والبواخر (خع 1747 د).

- البحرية والطبجية في الرباط (تاريخ الضعيف) (ص 470 - 475).

- عجائب البحر لابن عفيون محمد بن أبي بكر الغافقي الشاطبي (584 هـ / 1189م).

- تأليف في الملاحة البحرية (خم 7817).

- (تاريخ الأسطول) العربي محمد ياسين الحموي دمشق - مطبعة الترقي 1945 (147 ص).

- تاريخ تطوان لمحمد داود ج 4 ص 226 / مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 416.

- مظاهر يقظة المغرب الحديث (محمد المنوني ج 1 ص 63).

- أسطول الأندلس (إسبانيا المسلمة - ليفي بروفنصال ص 153 و248.
- مجلة تطوان 1957 عدد 2.
- ارشيا لدلويس (القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط).
تعريب أحمد محمد عيسى - القاهرة 1960.
- (البحر في التقاليد والصناعة الوطنية) في الرباط وسلا.
- ملاحظات قاموسية عن قاموس الرباط - سلا البحري.
- المغرب وخطوط الملاحة البخارية الأولى.
- القوانين البحرية في المغرب 1900.

كشف عن أمراء وقواد البحر في الأساطيل العربية :

نواتية الأسطول كانوا يعرفون في مصر بالبحريين أو الأسطولية موضع احترام الناس يقال لهم المجاهدون في سبيل الله وكان معظمهم مغاربة لما عرف به المغاربة من مهارة في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ عصر مبكر واستمر ذلك في العصر الأيوبي حيث اشتركوا في مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب وكان المماليك يعتبرونهم فرسان البحر وقد رأس دار الصناعة بالاسكندرية إبراهيم التازي الذي عرف ببطولته في محاربة الصليبيين وذكر النويري معلقا على بطولته بأن الفرنجة لا يقهرهم سوى المغاربة لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس وقد ذكر ابن سعيد المغربي أن الأساطيل كانت وقفا على المغاربة لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر (المقرى - نفح الطيب ج 3 ص 111) وكان البحريون منذ العصر الفاطمي بعصر يشتغلون بالتجديف أو نشر القلوع أو توجيه الدفة أو مراقبة البحر.

بالإضافة إلى مقاتلة بالانفاط (وهم قاذفو اللهب أو زراقوا النار) وبالعرادات والمجانيق ورمي السهام والكلم بالكلاليب والرجم بالرجام والسلب بالأساليب، (العماد صفهاني ص 160).

وقد كان للأسطول في مصر مقدم ونائبان كانا يتوليان خدمة ما يجرى في الأساطيل.

وقد كان للأسطول الفاطمي خمسة آلاف بحار أو نوتي يتقدمهم عشرة أعيان يقال لهم قواد يختار من بينهم قائد يسمى رئيس الأسطول يقلع بالغزاة وبصحبته مقدم الأسطول وفانوس تهتدي به المراكب الأخرى وكان مقدم الأسطول أو زمام الأسطول يختار من بين أعيان أمراء الدولة وكان عشرون نقيبا يقومون باستدعاء الغزاة من دورهم.

وفي المغرب والأندلس كان على رأس الأسطول قواد أو أمراء البحر (أميرالات) وعلى كل سفينة قائد ورئيس يهتم الأول بتجهيز السفينة وجندها والثاني يشرف على حركة سيرها ونذكر فيما يلي جملة من هؤلاء القواد:

ابن جامع أمره علي بن خلاص صاحب سبتة على أسطوله خلفا لغانم ابن محمد بن مردنيش (ابن عذاري ج 3 ص 117 / المن بالامامة ص 516 / الاستقصا ج 2 ص 137.

- ابن كاشة أبو الحسن قائد البحر في سبتة عام 709 هـ / 1309م أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة.
- ابن ماجد أسد البحر الهائج ربان ماهر من رأس الخيمة بالخليج العربي كان للدراسات الميدانية التي قام بها أثر فعال في توجيه الرحلات البحرية التي قام به أوربيون عبر المحيطات ومنهم ماجلان البرتغالي فاسكو دوكاما الذي اكتشف طريق الهند عام 1497م تلاه ماجلان.

الذي يقال عنه إنه (اكتشف عـام 1520م) 927 هـ مضيق مـاجـالان بين جنوب أمريكا وأرض النار.

- أبو إسحاق البطروجي نور الدين الاشبيلي تلميذ ابن طفيل. (الاستقصا ج 2 ص 124).

- أبو العباس الرنداحي قائد أسطول سبتة أعان أبا القاسم العزفي على تملك هذه المدينة عام 647 هـ / 1249م.
(البيان لابن عذاري ج 3 ص 400 طبعة الرباط).

- أبو عبد الله ابن عبد السلام الكومي قائد أسطول سبتة.
(البيان لابن عذاري ج 4 ص 203).

- أبو العلاء الكبير قائد (أساطيل البرين) في عهد النـاصر الموحـدي وكانت تحتوي على أجفان العدوة والأندلس (البيـان لابن عـذاري ج 3 ص 234 طبعة الرباط).

- أبو القاسم بن عبيد الله المهـدي الفـاطمي قـائـد أسطول من خمس عشرة سفينة حربية وجهت (عام 300 هـ / 912م) إلى طرابلس فاحرقت سفنه من طرف مراكب أهل المدينة التي أخضعها أبو القاسم.

- أحمد بن عمر المعروف برقم الأوزولي جملـة من الأسطول المرابطي في عهـد علي بن يوسف بن تاشفين (الإدريسي في النزهة).
أحمد بلقاسم (راجع الرايس).

- أحمـد بن ميمون قـائـد أسطـول يـوسف بن تـاشفين في جـوازه الأول إلى الأندلس عام 1086م (الإعلام للمراكشي ج 3 ص 236).

- أحمد بن يعلى قائد أسطول الخليفـة الأنـدلسي أرسلـه عـام 347 هـ لغزو سواحل إفريقية (ابن عذاري - البيان ج 2 ص 332 ط. بيروت).

- أحمد الصقلي : أسرة النصارى واستخلصه صاحب صقلية ثم لحق بتونس وأجاز إلى مراكش فاجزل الخليفة يوسف بن عبد المومن صلته وقلده أمر أساطيله.

(ابن خلدون - التاريخ - م 1 ق 2 ص 457).

وكان أبو العباس الصقلي أيضا رئيس أسطول اشبيلية (ابن عذاري ج 3 ص 117).

- أحمد لوقاش (Loukach) قائد البحرية بتطوان مع اشرافه على عمالتها في آن واحد وكان ذلك جاريا به العمل في عدة موانئ منذ العهد الموحدي.

(هسبريس - تمودة) م 9 ص 344 (عام 1968).

- أسد بن الفرات قائد البحر في عهد الأمير زيادة الله بن الأغلب فتح عام 212 هـ ميناء مازر من جزيرة صقلية.

- بسر بن أبي ارطأة قائد الحلة البحرية الاستطلاعية على القسطنطينية عام 43 هـ و44 هـ.

- جنادة بن أبي أمية قائد الأسطول الإسلامي عام 54 هـ معززا القوة البحرية المرابطة في مياه القسطنطينية وقد استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية (الطبري ج 6 ص 164 / ابن الأثير ج 3 ص 497).

- حسين بن يعقوب الكتامي متولي البحر في المهدية وهو أبو علي منصور العزيزي الجوذري (سيرة الأستاذ جوذر - تحقيق د. محمد كامل حسين ود. محمد عبد الهادي شعيرة - القاهرة عام 1954 ص 87).

وكان هنالك أيضا في العهد الفاطمي متول بخزائن البحر يسهر على توفير مواد صناعة السفن كالأخشاب لصنع الصواري وألواح السفن

والمجاذيف والسلالم والمسامير والروابط والمراسي والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والسلاسل والألياف (لصنع الحبال) والقطران للقلفطة والنفط لقاذفات اللهب.

- حميد بن معيوف ولاه هارون الرشيد العباسي سواحل بحر الشام ومصر عام 190 هـ فغزا كلا من جزيرة قبرص وجزيرة اقريطش.
- داود بن عائشة قائد أسطول يوسف بن تاشفين في جوازه الأول إلى الأندلس عام 1086م (البيان لابن عذاري ج 2 ص 237).
- دميانة البحري أمير البحر وقائد سفن عباسية كانت راسية بثغر طرسوس في العهد الطولوني عددها 18 مركبا حربيا مشحونة بالرجال والعتاد. (النجوم الزاهرة ج 3 ص 109 / 136).
- الرايس إبراهيم التازي رئيس دار الصناعة بالاسكندرية كان قائدا بحريا لدى السلطان شعبان المملوكي الذي كلفه بالاغارة على جزر العدو فقام في 29 رجب 769 هـ (مارس 1368م) من ثغر الاسكندرية في مركبين حربيين بها خمسائة مقاتل ـ متجها إلى جزيرة قبرص وما جاورها من جزر فعاد محملا بالغنائم فارتجت الاسكندرية لقدومه وقد حاول الأسطول الفيومي غزو الأسكندرية من جديد عام 770 هـ فتصدت له المراكب بقيادة الرايس إبراهيم التازي ووسائل الدفاع الساحلي واستعرت معركة بحرية فقد فيها بعض سفنه ففر هاربا.
- الرايس إبراهيم الشط قائد الأسطول السعدي في رباط سلا أيام المنصور الذهبي وكانت هذه الرياسة تعتبر في المغرب خطة للاشراف على القطع والشواني أو العمارة[54].

---

54) مناهل الصفا ـ مختصر الجزء الثاني ص 244.

- الرايس أحمد بلقاسم سفير المنصور السعدي إلى انطونيو البرتغالي وإلى إنجلترا (الوثائق الغميسة - دوكاستر ج 2 ق 1 1 ص 159 - فرنسا).
- الرايس حماني : رايس بحري جزائري وجه للسلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام العلوي إلى عامله بتطوان الحاج عبد القادر أشعاش أمرا بإعانته (رسالة مؤرخة ب 21 رجب 1261 هـ / 26 يوليوز 1845م).
- الرايس سالم رئيس البحر في عهد سيدي محمد بن عبد الله وقائد السفينة التي بنيت من طابقين عام 1174 هـ / 1761م (تاريخ الضعيف ص 177).
- الرايس شعبان قبطان الأسطول الأمامي الجهادي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية في عهد المنصور السعدي.
(مناهل الصفا - مختصر الجزء الثاني ص 245).
- الرايس صالح اميرال أسطول المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسله إلى تطوان عام 1181 هـ للضغط على الرايس على القرصني لإرجاع البواخر الفرنسية الثلاث التي اقتنصها في عرض البحر المتوسط.
(هسبريس م 1 عام 1960).
- الرايس الطرابلسي قائد الحراقة التي بلغ عدد مدافعها في عهد السلطان محمد بن عبد الله خمسة وأربعين مدفعا.
- الرايس على القرصني كان يسكن بسلا ويجول في جفنته الجهادية بين الجزائر وسلا وقد وصل عام 1035 هـ / 1625م إلى هولاندة مع ثلاثة من القراصنة.
(دوكاستر - س. أ. - السعديون م 3 ص 371 / هولندا م 4 ص 93 (1913).

- الرايس علي عواد السلاوي رئيس البحر أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (تاريخ الضعيف - مخطوط الرباط ص 177 / تاريخ تطوان - محمد داود ج 2 ص 181).
- الرايس عمر : قائد قرصاني كان يجول المتوسط واقتنص عام 1181 هـ / 1767م باخرة فرنسية حمولتها سبعون طنا هي Thèrese وقادها إلى ساحل تطوان وباخرتين اخريين ساقهما إلى مرسى المعمورة أو المهدية فضغط عليه السلطان المولى محمد بن عبد الله برد البواخر إلى أصحابها. (هسبريس م 1 عام 1960).
- زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية أيام الحفصيين شارك في وقعة طريف عام 740 هـ / 1339م بست عشرة قطعة بحرية.
- سالم بن راشد قائد البحر الفاطمي أغار عام 317 هـ مع القائد صابر الفتى على طارنت Tarentum بالسواحل الإيطالية وكذلك سالرنو ونابل.
(ابن الأثير ص 54).
- سليان بن معاذ الأنطاكي قائد إحدى حملات الأسطول الإسلامي على القسطنطينية عام 98 ص استطاع إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ولكن الزوابع حطمت أسطوله الذي يقال إنه كان يتركب من 1.700 سفينة واستمر الحصار مع ذلك إلى أن توفي القائد سليان عام 99 ص فاضطربت صفوف البحريين.
- صابر الفتى الصقلي القائد الفاطمي غزا السواحل الإيطالية عام 315 هـ في 44 شينيا فأصاب كثيرا من الغنائم.
صالح رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

- صاعد بن كلملم قائد أسطول عباسي ساعد الاخشيدي على تولي إمارة مصر حيث أقبل إلى تنيس ودمياط واستولى على البلاد عام 323 هـ ولكن جندا من المغاربة قتلوه وعادوا بسفنه إلى الفسطاط وأحرقوا دار الصناعة بالروضة مما حدا الاخشيد عام 325 هـ إلى نقلها إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل الفسطاط.
- عبد الله بن سليمان قائد الأسطول الموحدي في عهد عبد المومن بن علي. (البيان لابن عذاري ج 3 ص 32).
- عبد الله بن سعد تولى قيادة أسطول من مائتي مركب[55] جهزه معاوية ابن أبي سفيان بعد أن خرج مع أهل مصر والشام لمحاربة البيزنطيين في أراضيهم وكان مجموع الأسطول سبعمائة قطعة[56].
- عبد الله بن طاع الله قائد البحر في عهد الناصر الموحدي ووالي جزيرة ميورقة.
- عبد الله بن طاهر أشرف عام 210 هـ على سفن عباسية كانت مرابطة في طرسوس لمحاصرة الأندلسيين الربضيين الذين كانوا قد استولوا على الاسكندرية فصالحوه على الخروج إلى اقريطش بقيادة أميرهم عمر بن شعيب في أربعين سفينة.
- عبد الله بن قيس الفزاري قائد الحملة البحرية عام 47 هـ ضد بلاد بيزنطة.

---

55) فتوح مصر والمغرب - ابن عبد الحكم ص 256.

56) الطبري ج 5 ص 69 (أحداث سنة 31 هـ) ويظهر أن الأسطول البيزنطي كان يتألف من ألف سفينة (ابن عبد الحكم ص 256).

- عبد الله بن وزير صاحب مدينة حيلة حوالي 332 هـ لم يكن في زمنه أبصر منه في البحر الرومي انقادت له المراكب الحربية (مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 129).
- المربي حكم الرباطي رئيس البحر أيام سيدي محمد بن عبد الله. (تاريخ الضعيف ـ مخطوط الرباط ص 177).
- العربي المستاري من رؤساء البحر في عهد سيد محمد بن عبد الله العلوي.
- عقبة بن عامر الجهني قائد الحملة البحرية على بيزنطة في أسطول من أهل مصر عام 48 هـ.
- علي بن بدر قائد سفن المغاربة في مصر التي انتصر عليها الاخشيدي عام 323 هـ بقيادة صاعد بن كلملم فقتل هذا الأخير وأحرق المغاربة دار الصناعة بالروضة عام 325 هـ.
- علي بن خلاص صاحب سبتة قائد الأسطول الذي أنشأه عام 643 هـ / 1245م فغرق عند خروجه من سبتة في طريقه إلى البيعة لأبي وكرياء الحفصي في تونس.
(الاستقصا ج 1 ص 203).
- علي بن عيسى قائد الأسطول المرابطي كانت قطعه تتردد بين العدوتين.
(البيان المعرب لابن عذاري ج 3 ص 21 طبعة الرباط).
- علي بن ميمون أمير البحر في عهد يوسف بن تاشفين.
- عمر بن حفصون إمام الثوار في الأندلس بين عامي 238 هـ 305 هـ (852 ـ 917م) ساندە الخليفة المهدي الفاطمي ضد دولة بني أمية وقد سير إليه المهدي مراكب رست عام 301 هـ / 913م بالساحل الجنوبي من الأندلس وكان الأمير عبد الرحمن بن محمد قد شرع في هذه السنة

بمهاجمة السفن الفاطمية في الجزيرة الخضراء وتحريقها (ابن عذاري ج 2 ص 247 / تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 33) وبعد أن أيد أبا يزيد مخلدا بن كيداد اليفرني الثائر على الفاطميين عام 335 هـ (ابن عذاري ج 2 ص 321).

- عمر بن شعيب أبو حفص قائد الأندلسيين الربضيين في الاسكندرية قاد عام 211 هـ أسطولا من أربعين سفينة لفتح جزيرة اقريطش حصنا حصنا إلى أن أكلوها عام 230 هـ.
(البلاذري ج 1 ص 279).

- عمر بن هبيرة الفزاري قائد حملة بحرية على بلاد الروم عام 97 هـ.

- غالب بن عبد الرحمن الناصري أمير البحر وقائد الأسطول الأندلسي الذي هاجم سواحل إفريقية الفاطمية عام 345 هـ في ستين سفينة وخاصة ساحل مدينة سوسة ومرسى الخرز شرقي بونة.
(ابن عذاري ـ طبعة بيروت ج 2 ص 318).

- غانم بن محمد بن مردنيش : عينه يوسف بن عبد المومن بن علي الموحدي عام 575 هـ / 1179م قائدا لأسطوله.
(الاستقصا ج 1 ص 161).

- القبطان عبد الله بن محمد العربي فنيش كان من جملة القباطنة قواد السفن البحرية في القرن الماضي من. وجه السلطان عام 1278 هـ / 1862م معه للتوقيع على اتفاقية مليلية القبطان أحمد ولد المقدم.

- الكوار الرباطي رئيس البحر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله تاريخ الضعيف ص 77.

- ليو الطرابلسي قائد بحري ذكره المسعودي باسم «لاوي المكنى بأبي الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وكان يشرف على المراكب في البحر الرومي.

(مروج الذهب ج 1 ص 129).

وكان طرسوس قاعدة سفنه وقد أغار عام 291 هـ منها على ثغر سالونيك وهي أهم ثغور بيزنطة بعد القسطنطينية ففتحها عنوة واستنفذ من أسرى المسلمين أربعة آلاف وظفر بستين مركبا بيزنطيا.

- مالك بن عبيد الله قائد الحملة البحرية على أرض الروم عام 46 هـ.

- مالك بن هبيرة قائد الحملة البحرية على بيزنطة عام 47 هـ.

- محمد بن شلطور قائد أسطول المنكب والمزوار بمراكش.

(الدرر الكامنة ج 4 ص 278).

- محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ آل العزفي كان قائد أسطول سبتة عام 720 هـ / 1320م.

- محمد زرقون بن علي قائد أسطول المنصور السعدي في النيل (النيجر) بالسودان (السنغال اليوم).

(درة الحجال ج 1 ص 313).

- محمد بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في المرية ساند عام 539 هـ / 1145م الخليفة تاشفين بوهران.

- محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من أمراء بني الأحمر قائد الأسطول المريني عام 757 هـ / 1356م.

(الاستقصا ج 2 ص 99).

- محمد الثغيري رايس السفينة في سفارة الأميرال عبد الله بن عائشة إلى فرنسا (دوكاستر ـ س. 2. الفلاليون م 5 (1698).
- محمد الرايس التاج التطواني قائد سفينة ثقفها الأسطول الفرنسي فوجه السلطان المولى إسماعيل إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر رسالة مؤرخة بتاسع شعبان 1095 هـ / 22 يوليوز 1684م يؤاخذه فيها على الماطلة في إرجاع السفينة ووجه إليه عام 1685م سفيره الحاج محمد تميم للمطالبة من جديد.

تاريخ تطوان ج 4 ص 144 / هسبريس ـ تمودة م 9 ص 447 عام 1968.

- محمد قنديل السلوي رئيس مركب كان في ملك المولى إسماعيل وقد أسر في فرنسا وافتداه السلطان عام 1100 هـ / 1688م.

دوكاستر ق 2 العلويون م 4 ص 340 / ق 2 فرنسا م 3 ص 172.

- مراد برتقيش قائد بحري تركي سكن بتطوان كانت له (فركاطة) يغير بها على سواحل الافرنج ويعود إلى تطوان بالغنائم فقتله الشيخ المامون السعدي.

(تاريخ الدولة السعدية ص 95.

- مراد الرايس : قرصان ألباني كان يقيم بالجزائر لجأ إلى العرائش بعد أن هاجم جزيرة (الانزروط) وهي إحدى الجزائر الخالدات عام 995 هـ / 1586م.

وكان يعرف بعورات الريس العلج من قرصان سلا الألبانيين الجنويين (دوكاستر ـ م 1 ص 290 / م 2)، 125 / م 3 ص 285.

- مريم قائد تركي علي ورش المراكب في العرائش.

(دوكاستر ق 1 ـ السعديون ـ البرتغال م 4 ص 319).

مسعود الفتي قائد أسطول فاطمي غزا عام 310 هـ إقليم قلورية في السواحل الإيطالية في عشرين شينيا فاستولى على مدينة أغاتى (Agata).
مسلمة بن عبد الملك أخو الوليد الأموي قاد حملة بحرية ضد الامبراطورية البيزنطية عام 94 هـ وقد اتخذ من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالا لتدريبات قوته ثم قام عام 98 هـ في عهد أخيه سليمان بن عبد الملك فوصل إلى مشارف القسطنطينية في جيش عدته ثمانون ألف مقاتل ونصب عليها المجانيق.
وتقول روايات بيزنطية إن الأسطول الإسلامي بلغ 1800 سفينة كبيرة ولكن النار الاغريقية احرقت الكثير منها ولم يكن العرب قد اكتشفوا آنذاك قاذفات اللهب النفطية.
يحي بن أبي زكرياء الهزرجي قائد الأسطول الموحدي عام 600 هـ 1203م وقد ذهب لقتال ابن غانية.
يحي الرنداحي أشرف على أسطول سبتة قبل عام 720 هـ (الاستقصا ج 2 ص 55).
يعقوب بن اسحق قائد البحر الذي بعثه إسماعيل المنصور على رأس الأساطيل من المهدية إلى سوسة عام 334 هـ عندما اشتد حصار أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الثائر عليها فاوقعوا به لدى وصول المؤن والاقوات الفاطمية وقد غزا جنوة وسردينية ودانية وكرسيكة حوالي 317 هـ (ابن خلدون ـ المقدمة ج 2 ص 629).
يوسف البربري استخدمه روجير الثاني ملك صقلية على سفنه وعينه أبو يعقوب يوسف الموحدي أمير الا فجعل من أسطول الخليفة أعظم أسطول في المتوسط.
(أندري جوليان ـ تاريخ إفريقيا الشمالية ص 412).

الرباط — **عبد العزيز بن عبد الله**

الطفل والإعلام

محمد ابن البشير

الإعلام عنوان الحياة البشرية المشتركة، عنوان التواصل الاجتماعي والعمل الحضاري المشترك. والتقدم الحضاري والعلمي ما كان ليكون لولا الإعلام والتبليغ بالإشارات والرموز والكلمة والصوت والصورة، بكل أنواع التعبير من صوت وحرف ورسم ونغم وغيرها، بكل ما يثير النفوس ويطبعها ويترك فيها وقعا تنتج عنه ردود فعل ومواقف وأحيانا بطولات أو جرائم وجنايات.

والطفل إنسان ضعيف يلج المجتمع ضيفا عليه، في إنتظار أن يصبح عضوا كامل العضوية، له من الحقوق ما للأعضاء الآخرين فهل ستحسن ضيافته، ويعامل بما يليق من الإكرام والاعتناء، أم يعامل معاملة سيئة، مما قد يضطره إما إلى إفراز سموم الكره والحقد والفرار من مستضيفيه أو إلى الثورة عليهم ومحاولة الانتقام منهم، بحكم ما يرسب في نفسه من رسوبات وما يتركب فيها من عقد.

لم يعد يجاحد أحد في أهمية تكوين الطفل منذ السن المبكرة، جسما ونفسا وخلقا وفكرا، لأن أوعيته الفارغة قابلة للتعبئة منذ السنة الثالثة بل حتى قبل ذلك، وقوة إستيعابه تكون مرتفعة منذ السن السابعة، وبقدر ما يسهل على المجتمع تكييف الطفل وتصحيح توجيهه في هذه السن المبكرة بقدر ما يصعب ذلك بعد أن يكون عود الطفل قد نما معوجا غير مستقيم أو يكون قد طبعت نفسه وجرى في عروقه ما غير صفاءها ونصاعتها.

موقف الإسلام :

وقد يكون من المفيد، ونحن في بلد إسلامي أن نتعرف على موقف الإسلام من الطفل، فمن المعلوم أنه، وهو ذو المصدر الإلهي الخبير بالنفس الإنسانية أولى للطفل وتربيته، وحمايته تشريعيا، عناية خاصة، فأوصى برعاية مصالحه وحقوقه، خاصة وهو ضعيف البنية لا يستطيع بعدُ الدفاع عن نفسه، وهو عنصر إستمرار النوع البشري المطوق بمسؤولية الاستخلاف.

فلا عجب أن يحدد له الإسلام حقوقا ويدعو إلى إحترامها وحمايتها، وأن يفرض في نفس الوقت على الوالدين والأقربين واجب الولاية على الطفل، وتربيته، مساعدة له على نمو طبيعي، وعلى شحذ لمداركه وتفتيح لمواهبه ومؤهلاته.

وقد ضمن الإسلام للطفل حقوقا بصفته إنسانا، يشترك فيها مع جميع البشر، وهي الحق في الحياة والحق في الحرية والكرامة والحق في التعليم والحق في التملك.

وخص الطفل بصفة عامة بحقوق متميزة ما دام لم يبلغ سن الرشد وهي الحق في الرضاعة وفي الولاية، كما أنه جعل للطفل المحروم كاليتيم واللقيط وذي العاهة حقوقا إضافية، وحدد المسؤوليات في شأنها، كما ضبط الوسائل الكفيلة بحمايتها عن طريق التشريع والأحكام، وعن طريق الإحسان وسبل الخير.

ونقتصر، اختصارا للوقت على الاستشهاد، بالنسبة للحقوق العامة للطفل، بآيات قرآنية ثلاث تكفينا مؤونة الاسهاب والأطالة. قال تعالى : مدافعا عن الطفل في الحياة ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم**﴾ (سورة الاسراء) وقال : ﴿**وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾ (سورة التكوير) وقال أيضا : مدافعا عن حقوقه المادية : ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا**﴾ (النساء).

أراد الإسلام أن يحمي الطفل ويحصنه من كل ما يمكن أن يصيبه من أحداث وآفات وأن يجزئ المسؤوليات ويحددها. وقد ابتدأت هذه الحماية منذ الحمل فحرم الاجهاض، وبعد الولادة، فأوجب الرضاعة والحضانة والولاية على النفس وعلى المال وفرض تربية الطفل وتعليمه على والديه أو وليه وعلى الدولة وفرض على ممثل الشرع، وهو القاضي، المراقبة والتدخل عند الحاجة، أي كلما كانت مصالح الطفل في خطر.

وفي الوقت الذي جعل الحضانة للمرأة، جعل الولاية على النفس وعلى المال للرجل. والولاية على النفس تشمل صيانة الطفل، وتعليمه، والاشراف على سائر مصالحه المادية والمعنوية إلى سن الرشد أو الزواج بالنسبة للفتاة.

ويلاحظ في ولاية النفس ما يلي :

أ ـ للأب ثم الجد الحق الأول في القيام بولاية النفس على إبنه، ولا ينتزع القاضي منه الحق إلا إذا ثبت أنه غير أمين على مصلحة إبنه، وللقاضي في هذه الحالة أن يوكل ولاية النفس لعصبة الطفل أو أن يتركها للحاضنة.

ب ـ الأمانة شرط في ولاية النفس، فإذا ثبتت على الولي جريمة اغتصاب وهتك عرض، أو حكم عليه في جناية على محضونه. انتزعت منه ولاية النفس، باستثناء الأب أو الجد. وقد تبين أن إهمال الأولياء لمسؤوليتهم هذه أو عدم تنظيم المجتمع لهذه الولاية يشكلان سببا من أسباب التشرد وسوء تربية النشئ.

أما الولاية على المال فتكون على الصغار وكذا على المجانين والسفهاء وتسقط على الصغار ببلوغهم سن الرشد.

وزادت عناية الإسلام بالطفل، فخص بالوصاية والتشريع بعض الفئات نذكر منها على وجه الخصوص اليتامى واللقطاء.

فقد أوصى القرآن برعاية اليتامى وعدم إذلال نفوسهم، قال تعالى : ﴿**وأما اليتيم فلا تقهر**﴾ وحض النبي ﷺ على كفالتهم بقوله : «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» (أي متجاوران) وكأني بمنزلة كافل اليتيم تصل إلى درجة النبوة.

وفي الوقت الذي شدد فيه القرآن الوعيد لمن يأكل مال اليتيم، حث على الانفاق على اليتيم قائلا : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما

وأسيرا» وقال النبي ﷺ : «الساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله تعالى».

واللقيط في الإسلام لا يتحمل وزر أبويه، ولا يجوز أن يظل بدون كفالة من لدن المجتمع. ولذلك كان التقاطه فرض كفاية على المسلمين، وهو حر وولاؤه للمسلمين، ونفقته من ماله أي مما وقف على اللقطاء أو ما وهب لهم، أو وجد معهم، فإن لم يكن له مال، فنفقته على بيت المال، إلا أن يتبرع أحد بالانفاق عليه.

حرص الإسلام على حماية الطفل حماية كاملة، بالوقاية والتشريع وبالتأكيد على العناية بتربيته روحيا وخلقيا ونفسيا، وفتح ذرائع الخير والعمل الصالح في وجهه وسد ذرائع الشر وعمل السوء، بالنصح والقدوة والزجر إن إقتضى الحال.

وخص القرآن اليتيم، وهو الذي فقد السند الأساسي في أحد الوالدين أو فيهما معا، بآيات بينات، تعد روعة في السمو والرعاية ويكفي أن نسترشد بالآية التالية : **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾** (النساء).

وقد أدرك المجتمع الدولي أهمية الاهتمام بالطفل فأصدر إعلانا بحقوق الطفل يدعو إلى «أن يكون للطفل حق التمتع بوقاية خاصة وأن تتاح له الفرص والوسائل... لكي ينشأ من النواحي البدنية والروحية والاجتماعية على غرار طبيعي وفي ظروف تتسم بالحرية والكرامة». «وأن يكون له الحق

في التغذية الكافية والمأوى والرياضة والعناية الطبية» «وأن تضمن له الوقاية من كافة ضروب الإهمال والقسوة والاستغلال...الخ».

ومما لا ريب فيه أن قيمة هذه الإعلانات والتشريعات كامنة في تطبيقها.

والطفل مادة خام وأرض خصبة قابلة للاستثمار والتوجيه، الأمر الذي يقتضي اتباع الطرق المناسبة الصالحة، ويقتضي قبل ذلك، ضرورة التعرف على الأرضية ومحيطها البشري والاجتماعي.

إن كل بناء في حاجة إلى دراسة نوع الأرض التي سيقام عليها البناء ثم إلى وضع أساس صلب يستطيع تحمل ثقل البناء دون أن يتشقق أو يتحطم ثم إلى تحضير المواد الضرورية للبناء وأخيرا التعهد والصيانة.

فمن الضرورة بمكان، إقامة بناء قويم على أساس متين، ثابت من تلقين الطفل القيم الاخلاقية والروحية، وتمكينه من أدوات المعرفة والإدراك والسلوك، ومراقبة وتقييم البناء في كل حين وتصحيح إنحرافاته وخلله إن إقتضى الحال.

ومن أخطر ما يهدد سلامة هذا البناء الإهمال وترك التربية للصدفة مع العلم أن التحضير المنهجي والوقاية أهم من الإصلاح والعلاج، وخاصة إذا تمكن الداء واستعصى علاجه.

إن الطفل، بصفته إنسانا جبل على غرائز ونزعات إذا لم تهذب، وتحصر في حجمها المطلوب، طغت على نفسية الطفل وكونت منه قوة عمياء تندفع به نحو الهاوية، وكلما تركت وشأنها، كلما زادت قوة اندفاعها

ويصبح من الصعب جدا حصرها وتهذيبها وتقويم عناصرها. فالطفل مجبول على تحقيق الذات والحفاظ على النفس والأنانية، وفضول المعرفة والكشف والتجربة، وقصر النظر والاستعجال واللامبالاة، كما أنه مفطور على الحرية وروح المساواة والتعاون والبذل أي أنه قابل فطريا للحياة الاجتماعية وللتكيف معها، شريطة ألا يشعر بأن المجتمع يلفظه، أو يهينه.

بطبيعة الحال، سرعان ما يطغى تأثير البيئة الخاصة والعامة التي يعيش فيها الطفل فتصبح للمكتسبات الكلمة الأولى، فتغطي على الغرائز الخيرة، لتترك المجال للغرائز الخبيثة، ويظهر ذلك جليا في الفرق بين طفل الحاضرة وطفل البادية، بين الأطفال المنتمين لشرائح إجتماعية، اتسعت بينها الفوارق الاجتماعية الخ...

ضرورة وضع إستراتيجية وطنية لتربية النشئ :

يتبين مما سبق أن من واجب الدولة، والبنية الفوقية والشرعية المسؤولة عن الطفل، أن تضع استراتيجية شاملة لتربيته، تدخل في عناصرها الأسرة ومؤسسات التعليم، والهيآت الاجتماعية وجميع وسائل الإعلام على أن تتظافر جهود جميع هذه المؤسسات في تنسيق عملها وتكييفها في إنسجام، مجتنبة كل نوع من أنواع التناقض.

إن بالإمكان التأثير على الطفل مباشرة أو بالواسطة عن طريق أبويه أو معلمه أو رفاقه، وكذلك بتسخير البيئة المحيطة به، المادية والأدبية والاجتماعية، ومن أجل ذلك لا بد من تحسين البنية التحتية للبيئة

الاجتماعية، وإصلاح مواطن خللها، وتحصينها قانونيا وتطبيقيا في نطاق استراتيجية عامة.

وبالإمكان التأثير على الطفل بالمنطق الفطري السليم، بالترغيب وإثارة ما جبل عليه من فضول ورغبة في الاطلاع، بالإمكان التأثير عليه بمساعدته على الاكتشاف بنفسه بالوسائل المحببة إليه من لعب وتمثيل ومسابقة، وبكل ما يدخل السرور والبهجة في النفوس، تزكية لشعوره بأنانيته وكرامته. أو بتحذيره وتخويفه وزجره إن إقتضى الحال لأنه في حاجة إلى تعلم الانضباط والإذعان لما تقتضيه التعاليم الروحية والتعبدية أو الأعراف الاجتماعية السليمة، وبقدر ما هو في حاجة إلى التكيف مع المقتضيات الروحية والاجتماعية،التي هي الأرضية الصلبة المشتركة بين سائر أفراد المجتمع والتي تشكل عماد الذاتية المميزة للمجتمع، بقدر ما يتعين إستغلال قابلية الطفل واستعدادته لتفتيح مواهبه وطاقاته وتأهيله ليصبح عضوا صالحا في الكيان الاجتماعي شاعرا بضرور الاندماج في حظيرة المجتمع، متعاونا مع أفراده، سواء كانت ظروفه عادية أو استثنائية، كأن يكون ذا عاهة أو يتيما أو ينتمي إلى أسرة فقيرة إلخ.

إن مدارك الطفل تنشط دون أن ينتبه إليها الكهل أحيانا، ولذلك نجد الكهل يقص على غيره ما فاجأه به طفل ما، فالطفل يلاحظ ويقارن وينصت وهو يلعب، ويتساءل عن أسباب الفوارق بينه وبين غيره من الأطفال في اللباس، في الحياة المنزلية، في التغدية، في وسائل النقل إلخ، ثم يكتشف تدريجيا أن الفوارق موجودة لا مفر منها، ويكتشف أن المجتمع ينافق، ويمايز، ويظلم، فإما تنمو في نفسه روح الانتقام والرفض والخصام والعداء والعنف، وإما روح القهر والاستسلام والاستلاب.

ومن هاتين الحالتين غير العاديتين، تتركب عند الطفل العقد النفسية الضارة بتربيته التربية القوية الصالحة وبتأهيله للاندماج في المجتمع والمساهمة فيه وفي تقوية كيانه ونمائه.

ولذلك، فسواء أخذنا بالاعتبار ضرورة خلق البيئة المحيطة الصالحة للطفل لتوجيهه التوجيه السليم أم أهملنا ذلك، فالطفل يكون نفسيته ومزاجه وآراءه بنفسه استنتاجا مما يسمعه ويراه ويحس به، فالقدوة والمثال والنماذج السلوكية لها آثار حاسمة على تربية الطفل وتكوين شخصيته، على أن هذه الآثار إما أن تكون إيجابية نافعة أو سلبية مسيئة.

ويتجلى للطفل بوضوح، إرتباك المجتمع فيما يريد أن يلقنه إياه، أو إهماله أو تناقضه أو نفاقه من خلال وسائل التبليغ والتلقين ومن خلال الواقع المعيش، فمن أسوء الآثار على الطفل أن يتلقى التوجيهات والمعلومات متناقضة بين ما تبلغه المدرسة ووسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزة أو بين ما يسمعه من أبويه أو معلميه، أو بين ما يبلغه عن طريق هذه الوسائل كلها، وبين ما يراه في وقاع الأمر، جهرا أو خفية.

وسرعان ما يكتشف الطفل الواقع الحقيقي الملموس الذي يغلب فيه النفاق والكذب والغش والتلبس، والميز، والاستئثار فيكون رد الفعل عنده، إما الثورة والنقمة على هذا المجتمع الفاسد الكاذب فيفقد الثقة في كل ما يقال له ويلقن، بما فيه ما يصدر عن الوالدين أو أفراد الأسرة أحيانا، وإما قبول الواقع وإعتباره هو السبيل الذي ينبغي اتباعه بكل ما يتسم به من مساوئ، وأنه هو قاعدة اللعب التي يعمل بها، حتى ولو لقن عكسها، بل إن الطفل يكتشف أن خداع المجتمع يمكن أن يصل إلى درجة «اعمل غير ما تقول، وتحايل حتى لا يوجه إليك صك الاتهام».

الإيجابية والسلبية في تربية الطفل :

بناء على كل هذه المعطيات، ما يتعلق منها بالطفل، وما يتعلق بمحيطه وكل ما له علاقة مباشرة به، وما يتعلق بوسائل الاتصال به والتأثير عليه، يمكن توجيه الطفل إما وجهة الصلاح أو إما وجهة الفساد والمسألة ذات أهمية قصوى، لا تحل بالارتجال والاهمال واللامبالاة، أو إغفال عنصر من العناصر الأساسية في هذه العملية وخاصة العناصر البشرية، والحقيقة أنه ينبغي عند إحكام استراتيجية ووضعها مواضع التنفيذ، البدء بأنفسنا بصفتنا آباء ومربين أو مسؤولين في الدولة وفي المجتمع، إذ سيكون أطفالنا كما يرون وجوهنا الحقيقية، وحسب الصورة التي يستخلصونها بأنفسهم لا كما نحاول تلقينها اياهم.

ومشكلة تربية الطفل من خلال والديه ومعلميه ومحيطه الاجتماعي جعل بعض الدول تحاول معالجة المشكل حسب استراتيجية وتجارب معينة.

ويسعدنا أن نتحدث بإيجاز عن تجربة باناما، بمساعدة منظمة الأمم المتحدة للطفولة.

أنشأت هذه الدولة مراكز لتوجيه الطفل والأسرة معا في الفترة ما قبل المدرسة الابتدائية بهدف مضاعفة حظوظ الأطفال ذوي الأوضاع المعوزة.

وقد اهتمت هذه المراكز بالبيئة، وبخلق علاقات جديدة بين الطفل والمعلمة وبين الأم والطفل وبين الأم والمعلمة، وعملت على أن تكون أغلب المعلمات من نفس المنطقة كما سمت في إشراك تكون أغلب المعلمات من نفس المنطقة كما سمت في إشراك الجماعات المحلية.

ومن النتائج التي توختها هذه المراكز واستطاعت أن تبلغها بنسبة جيدة :

إن الأطفال ينمو ذكاءهم وتشحذ مداركهم في هذه المراكز، ويشعرون باستقلال شخصيتهم، ويقل خوفهم من الناس، ويتحسن سلوكهم في بيوتهم، وترتفع جرأتهم وبذلك يصبح لهم استعداد أكبر للإندماج في المجتمع والتكيف معه، ويسير نموهم الفكري، والنفسي والاجتماعي نموا عاديا متزنا.

وقد قامت السلطات البانامية بتقويم النتيجة، بإخضاع هؤلاء الأطفال إلى اختبارات متنوعة وتبينت صلاحية هذه التجربة إذ أن الطفل المتخرج من هذه المراكز يستطيع بسهولة اتباع دراسته الابتدائية بصفة عادية ومرضية.

على أن هذه التجربة همت مجموعة عمرية معينة، وهناك مجموعات عمرية أخرى، مثلا من السن السادسة أو السابعة إلى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ومجموعة من الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة أو إلى العشرين وهي سن المراهقة، ولكل من هذه مجموعات مدارك تصبح ناضجة وإحساسات تصبح قوية. فالوسائل التلقينية والإخبارية والتربوية الصالحة لمجموعة ما لا تكون صالحة بالضرورة للمجموعتين الآخريين وهذا مما يضاعف تشعب المشكل ومما يحتم أحكام استراتيجية التربية والتوجية.

ومما توصي به منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة في أحد تقاريرها، بعد أن اتضح لها أن ارتفاع تكاليف النظام التعليمي المعهود والمستورد يعوق تعميمه ولا يجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية الذاتية :

إقامة استراتيجية شاملة تستطيع تلبية الحاجات من المعرفة واكتساب المهارة عند جميع أفراد الجماعة بالطرق الشكلية وغير الشكلية، ويهدف الاكتفاء الذاتي ومشاركة الجماعة في تحسين ظروف عيشها.

ويضيف التقرير أن الأنشطة العلمية الموازية للعمل المدرسي، تنمي ملكة الإبداع التكنولوجي، وتلعب دورا تصحيحيا أساسيا لسد بعض ثغرات التعليم المدرسي.

ألم يحن الوقت للتفكير بصفة جدية، جذرية وشاملة، في هذا المشكل الجوهري، الذي يرهن مستقبل البلاد، ويجعل كثيرا من الأخطار تحدق بها، إذا لم نبادر إلى علاجه.

بلادنا بلاد إسلامية، وبهذه الصفة تومن بالقيم والأخلاق الإسلامية، وهذه من أهم مكونات ذاتيتنا القومية والروحية، بلادنا تومن بالحرية والديمقراطية، بضرورة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي تومن بحتمية استعمال العلم والتكنولوجية في هذه التنمية، تومن بأن استثمار الطاقات البشرية هو أهم استثمار بدون منازع، وتعلم أن لوسائل الإعلام. كما هو الشأن بالنسبة للمدرسة، وللأسرة، وللبيئة المحيطة مباشرة بالطفل، أثر عظيم في تربيته وتوجيهه، وتعلم أخيرا أن الوقاية أفضل من العلاج ولا سيما بالنسبة لتكوين الطفل، الذي تصاغ طبيعة شخصيته المزاجية والنفسية منذ صغر سنه، وقليلا ما تتغير في الفترات العمرية اللاحقة.

إن قضية الاستقلال الإعلامي اليوم كالاستقلال الاقتصادي بات ضربا من الخيال، إذ الحصول عليه أصبح أصعب من الاستقلال الثقافي، وهذا مما يزيد الطين بلا في صعوبة توجيه الطفل إعلاميا وتربويا.

إن سلطان وسائل الإعلام الجماهرية بلغ درجة من القوة والاتساع والهيمنة على النفوس، نفوس الكهول والأطفال يكاد يكون من المستحيل معارضته أو هزمه، خاصة وأنه بالنسبة للدول السائرة في طريق النمو، ليس فيه تبادل وإنما يسير في اتجاه واحد، من الدول المتقدمة، القوية نحو الدول النامية الضعيفة.

إن إرسال المعلومات والأخبار، والصور عن طريق الأقمار الاصطناعية، وإن تقدم التقنيات الإعلامية، والانتشار العظيم للوسائل السمعية البصرية للإعلام ومن بينها من استقلت عن مصادر إصدارها، قربت بين مناطق العالم ودوله وكشفت كثيرا من العورات والأسرار.

إن تعميم الإذاعة والتلفزة والسينما والآلاف من الصحف والمجلات والنشرات، وخدمات البريد والبرق والتليكس، وتداول الأشرطة المسجلة من مختلف الأنواع والأحجام، بالصوت وحده وبالصوت والصورة (الڤيديو) الخ، كل هذا خلق قوة جهنمية تسير بأقدام فولاذية لا سبيل إلى إيقافها، تداهم كل المجموعات البشرية في عقر بيوتها وتغطي عليهم جميع لحظات وقتهم وفراغهم، وتنفث في نفوسهم ما تريد أن تنفثه بدون مراقب ولا رادع ولكن ما العمل أمام هذه القوة الطاغية الزاحفة، العابثة والفتاكة أحيانا بالنفوس ؟ يظهر في أول وهلة أنها قوة لا تغلب، وأن أفضل الحلول هو في الاستسلام إليها، وكثير من المجتمعات في الدول النامية تختار الاستسلام، انهزاما، أو جهلا لحقيقة الأمر أو إهمالا، لا سيا وأن أثرها المرضي الفتاك لا يظهر اعراضه إلا تدريجيا، بعد المراس.

إن أخطر موقف يقفه إنسان أو مجتمع أمام خطر محدق، هو أن يجهله أو يتجاهله أو يحقره، وأسوء علاج يعالج به هذا الداء هو أن يغفل عنه أو يحال تسكينه بمسكنات وبصفة ارتجالية، عشوائية.

لقد سبق للاستعمار السياسي والعسكري أن هدد كيان كثير من الدول المختلفة، واستطاعت كثيرها الانعتاق منه، وخلف هذا الاستعمار المهينة الاقتصادية التكنولوجية ومحاولات الغزو الثقافي والفكري وتواكب الآن هذه الجحافل الجديدة قوى استيطانية نافذة إلى الأعماق، قوى وسائل الإعلام والاتصال.

فلا مفر من استقبالها عن طوع أو كراهية، ولكن بالإمكان إبطال مفعولها أو على الأقل جزء منه بأمور ثلاثة، بعد أن نعي وعيا كاملا بخطورتها وفعالية أساليبها :

أ - وضع استراتيجية إعلامية وتربوية شاملة ومنسجمة والتخطيط لتطبيقها من أجل الحد من مساوئ الإهمال والارتجال ومواجهة جحافل الغزو الثقافي والإعلامي التي تحمل في طياته عوامل مسخ حضارتنا وذاتيتنا.

ب - تقوية الأرضية الصلبة في نفوس أطفالنا وشبابنا :

1 - بملء فراغ تكوينهم بأكثر ما يمكن من مبادئ ومعلومات عن هويتنا الخاصة، وعن قيمنا

2 ـ بغرز الإيمان في نفوسهم بهذه القيم والأخلاق الإسلامية الفاضلة، والسهر على أن يمارسوها في سلوكهم.

3 ـ بظهور الآباء والمربين والمسؤولين بمظاهر القدوة والمثل الصالح.

ج ـ العمل على توجيه الإعلام المستورد باختيار ما هو صالح منه ونبذ أو مقاومة ما يكتنفه ضرر تربوي أو أخلاقي أي ما من شأنه أن يعبث بتلك الأرضية المحصنة أو يخلق في نفوس الناشئة اضطرابات نفسية أو خلقية يمكن أن تنتج عنها أو خم العواقب ومن المعلوم أن هذه التدابير يكمل بعضها البعض الآخر وأن التغافل عن أحدها، وبالأحرى عن اثنين منها أو عنها كلها، يعرض مسيرة بلادنا الحضارية والثقافية، وبالتالي الاجتماعية والسياسية إلى الخراب، وهويتنا إلى المسخ أو الانمحاء.

وواضح للعيان أن بعض الأخطار قد برزت وانتشرت بوادرها : منها ضعف القوة الروحية المحصنة والسلطة المعنوية للاباء والأسرة ومنها انتشار الفساد وتناول المخدرات، ومنها العديد من الأمراض الاجتماعية، فإذا أضيف إلى هذه العوارض الفقر والعاهة أو العوق الجسمي أو الذهني، تضاعف نخر جسم المجتمع، وأصبح طعمة سهلة لكل معتد أثيم.

فليتق الله أولو الحل والعقد، في أبنائنا وفي مستقبل بلادنا، وليأخذوا قضية الإعلام والتربية بالجدية والفعالية والحزم اللازم قبل أن يفوت الأوان وتعسر الحلول. وأن العصر عصر العلم والتخطيط المحكم، وتفوق التكنولوجيا والإعلاميات.

وفي الوقت الذي يتحتم علينا مواكبة عصرنا وملاحقة الركب المتقدم يتعين علينا أيضا أن نحافظ على ذاتيتنا وشخصيتنا المميزة لنا عن غيرنا، لأنها المحصنة لنا من الذوبان في غيرنا ومن الشعور بالاستلاب لهويتنا فبها نحيا ونعتز وتتنافس ونجاهد، وهي عنوان كرامتنا واعتزازنا والسلام.

الرباط : **محمد ابن البشير**

الإسلام والغرب (*)

محاور التحدي وشروط المواجهة

د. حسن الوراكلي

تقديم :

أحب بادئ ذي بدء أن أتوجه بالشكر الجزيل لأخينا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب بوحديبة على تفضله بدعوتنا للمشاركة في هذه الندوة الفكرية الهامة التي يحقق بها مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تحت إدارته وبفضل توجيهه إنجازا مباركا. يضاف إلى إنجازاته السابقة، في مجال الدرس الموضوعي المبرأ من الأهواء والعصبيات للإسلام بوصفه دينا وشرعة، وثقافة وحضارة.

والموضوع الذي أحببت أن أسهم به معكم، حضرات السادة الأساتذة، في هذه الندوة وهو : (الإسلام والغرب : محاور التحدي وشروط المواجهة)

(*) نص المساهمة التي قدمها الكاتب لملتقى (واقع الإسلام وتحديات العصر) المنعقد بتونس من 12 إلى 16 نوفمبر 1984 بدعوة من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية.

موضوع على جانب كبير من الأهمية والخطورة والشأن لتعلقه بإشكالية الإسلام العقدية، والفكرية، والحضارية، حالا، ومآلا : ومن هنا فإنه على الرغم مما أدير حوله من قول، لا يزال في رأينا، بحاجة إلى مزيد من الدرس والبحث، يتسنى بها تسليط مزيد من الأضواء لاستجلاء مكامن الداء وتشخيصه أولا، ثم استكشاف مصادر الدواء واقتراح أساليب العلاج ثانيا، وبهذا وذاك يتحدد المسار وتتضح سبل السلام التي ليس من سواها يؤدي إلى البعث والنشور الحضاريين اللذين ننشدهما لأمتنا.

☆ ☆ ☆

أ ـ الإسلام : الرؤية والفعل :

بلور الإسلام، من خلال القرآن والسنة، تعاليم، ومبادئ، ومثلا وقيما، تتحدد بها صورته على المستويين : الرؤية والفعل.

أما من حيث المستوى الأول فيمكن القول بأن أهم ما يميز هذه الرؤية أنها شاملة، كلية للكون، والحياة، والإنسان، ليس لأي دين ولاية إيديولوجية، ولأية فلسفة، مثلها سعة أفق، وعمق جوهر، وواقعية هدف. لقد قدم الرسول ﷺ هذه الرؤية، بالقرآن حينا، وبالسنة أخرى، للإنسان حيثما كان موقعه في الزمان وفي المكان، منظورا متميزا في الأخلاق والاجتماع، ومنهجا جديدا في السياسة والحكم، وأسلوبا مبتكرا في المال والاقتصاد، ينتظمها جميعا خيطان من عدل وتقوى، وأي شيء آخر كانت تنشده الإنسانية وتنشده، يومها، غير عدل، يعصم الناس من نار الفتن، ويقيهم شرورها، يتفيأون ظله، يبدعون تحته لحضارة التوحيد وينشئون ؟

وأي شيء كان يعوز البشرية، ويعوزها، يومها، غير تقوى ترد عليها عافية افتقدها وجدانها، ووعيا عدمته ذاكرتها، ورشادا تنكرت له خطاها ؟

من ثم أبانت هذه الرؤية عن حقيقة هذا الدين في كونه معرفة فاعلة مؤثرة، نقدية، واعية، بهديا يقاوم المؤمن الباطل والخبيث، ويدحض المفتريات، وبهديا يمجد الحق والطيب، ويتأبى على الشر.

ولقد كانت هذه المعرفة هي التي صاغت تلكم النماذج الإنسانية السوية من حول رسول الله ﷺ أمثال أبي بكر الصديق والفاروق عمر وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهم كثير من أفراد هذا الجيل العظيم الذي تلا عليه محمد ﷺ آيات ربه، وعلمه الكتاب والحكمة، وزكاه، فوعى، وأدرك، وتمثل، ثم انطلق ينفذ إرادة الله تعالى ويجسدها تنبض بالحياة، وتختلج بالحركة في مجتمع الخير، والعدل، والخصب.

وأما على مستوى الممارسة فقد ترجم رسول الله ﷺ، ومعه الذين اتبعوه، مقاصد هذا الدين الكبرى كما تبلورها رؤيته الشاملة الكلية، إلى سلوك وفعل أكدا معا بكامل الجلاء والوضوح أن رسالة هذا الدين رسالة تغيير واستشراف. ولأنها كذلك فلم يكن هذا الدين طقوسا تأملية، ولا رهبانية استغراقية، ولا انعزالية هاربة. حقا، إنه قبل كل شيء عبادة، لكنها عبادة من نوع خاص وفريد، أهم ما يميزها، في متباين وجوهها، أنها اجتماعية المحتوى، جماعية المقصد. ومن هذا المفهوم العميق للعبادة اكتسب هذا الدين فعاليته، وحركتيه، وأخلاقيته، وبها جميعها كان يجهر بالحق، ويتصدى للباطل لينجز وعد الله في قيام مجتمع لا أنانية فيه، ولا استغلال، ولا موسع في إفحاش، ولا مضار في معاش. وإذا كانت هذه المفهومات مما

اضفى ويضفى على هذا الدين طابع الإيجابية، والتطور، والمستقبلية فإنها دالة على حرص هذا الدين على قيام ذلك المجتمع المثالي، مجتمع الأخلاق الذي يعتمد المساواة بين أفراده في الحقوق والواجبات، منطلقا لتحقيق العدل، والكرامة، والحرية، وهذه هي القيم التي دعا الإسلام الناس كافة إليها وألزمهم بها وآخذهم بالتفريط فيها، وكان من ثم دينا حضاريا، متميزا.

ولكي يقوم هذا المجتمع الواعي، الهادي، المسؤول، كان لابد من تربية الفرد وإعداده على نحو فريد في التربية والإعداد، من أجل ذلك جاءت منظومات المثل والقيم في هذا الدين لتتحور، بالأساس، على الإنسان، ذاتا وموضوعا، بوصفه (الخليفية) الذي كرم بالعقل، ودعي باسم العقل إلى نبذ السكونية، والرهبانية، والانعزالية، والإقبال على ممارسة الحياة، وتعمير الأرض، واستغلال الكون، ومن هنا ندرك السر فيا ألحت عليه مقولات هذا الدين وأطروحاته من شحذ الطاقات الفكرية والنفسية، وتفجير المواهب العقلية والوجدانية في الإنسان ليتسنى لها أن تبذر في سويداء قلبه الرغبة التي لا تكل ولا تفتر في الحركة الهادية، والسعي الملتزم إلى اخضاع ما تحفل به الحياة، فردية وجماعية، من ارتباطات وأحداث، لمنطق الكون المتوافق، المنسجم. ومن خلال تلك الحركة الهادية، والسعي الملتزم تتحقق، وتتألق، بالآن عينه، رسالة الإسلام التغييرية، الاستشرافية...

وبالبداهة، فإن الموقع الذي يتحتم أن يحل فيه الإسلام ليحقق في حياة الناس الخاصة والعامة تلك المقاصد الكبرى هو دائما موقع قيادة، موقع القيادة في «الحكم» أو موقع القيادة في «المعارضة»، وما سواهما من «مواقع» التبعية، والهتافية، والحضور المجاني يرفض الإسلام أن يحل فيها لأنها مواقع الغارة على الوعي بالذات الفردية والجماعية، وبأي موقعي القيادة

حل الإسلام فهو حرب على الواقع الذي يجذر الطاغوت والاستغلال تحسب فيه على الإنسان أنفاسه أو يترك سدى ! [1].

تلكم هي صورة الإسلام، على مستوى الرؤية والفعل، لا ريب أنها بقدر ما شحذت وتشحذ نفوس المومنين حتى يكونوا أدلة هداة، أثارت، وتثير المخاوف في نفوس أئمة الكفر وأتباعهم، وهي المخاوف التي عبر عنها غلادستون رئيس الوزارة البريطانية عام 1882 حين وقف في مجلس العموم البريطاني وقد أمسك بيده نسخة من المصحف الشريف يقول لهم : (إنه ما دام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد، ولا أن تكون أوربا في أمان).

كما عبر عنها بن جريون حين قال : (إننا لا نخشى القوميات والاشتراكيات والديموقراطيات في المنطقة، ولكن ما نخشاه هو الإسلام، ذلك المارد الذي نام طويلا ثم أخذ يستيقظ من جديد).

ومن هنا كانت المواجهة بين الإسلام وبين القوى المضادة له تأججت منذ اليوم الذي ارتضى فيه الله سبحانه وتعالى الإسلام دينا للبشرية، يوحي بتعاليمه ومبادئه إلى أنبيائه ورسله من لدن إبراهيم عليه السلام إلى محمد بن عبد الله ﷺ، وستظل هذه المواجهة متأججة، مستعرة، إلى يوم الدين، لأنها، في الجوهر، مواجهة بين الحق والباطل، وبين الاستواء والإكباب.

---

[1] انظر، د. حسن الوراكلي (الومضات ـ خواطر في الدين والحياة) منشورة في صحيفة النور، ع 78 ص 8.

ب ـ الغرب : الثقافة والحضارة :

لسنا نريد بالغرب، هنا، منطقة بعينها على وجه الأرض، ولا نقصد به نظاما بالذات في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع. وإنما الذي نعنيه بـ (الغرب)، بصرف النظر عن هذا وذاك، تصورا أفرزته ثقافة ذات خصائص مميزة، وبلورته حضارة ذات خصائص مميزة هي الأخرى. أما الثقافة فهي تزعم كما يتحدث المفكر رجاء غارودي، وهو الذي كان رضع ـ قبل أن يهديه الله تعالى للإسلام ـ لبنها، وسبر غورها أن الحياة مقصورة على الضرورة والمصادفة كما يقول واحد من علماء حياتها، وعلى الشهوة العابثة كما يكتب واحد من فلاسفتها، وعلى العبث، فقدان المغنى، كما يعلن واحد من روائييها، وعلى موت الإله، وموت الإنسان، وموت كل شيء كما يردد على مسامعنا الأنبياء المزيفون لهذه العدمية (عقيدة العدم)[2]. وتقوم هذه الثقافة كما يعقب غارودي نفسه، بعد ذلك، على أربعة مبادئ هي :

1 ـ الفصل بين العلم والحكمة، أي بين الوسائل والغايات.

2 ـ إخضاع كل واقعة إلى التصور والقياس، فينتفي بذلك الجمال، والحب، والإيمان، والمعنى.

3 ـ الفردية التي تجعل من الأفراد أو الجماعات مركزا ومقياسا لكل شيء، وتجعل من كل «نظام» توازنا مؤقتا (قلقا) بين الأطماع المتنافسة لهؤلاء وهؤلاء.

---

2) انظر، رجاء جارودي، الإسلام وأزمة الغرب ص 14.

4 ـ إنكار التعالي، مما لا يمكن معه التخلص من هذه الانحرافات، والقناعة بحتميات تنمية ذات طابع كمي محض، تنفي الإبداع، والحرية، والأمل[3].

هذه المبادئ الأربعة هي التي قادت الغربيين (خلال خمسة قرون في طريق مسدودة، غير نافدة، ولو ثابرنا على السير في الطريق نفسها فلا ريب أنها ستؤدي بنا إلى الانتحار الكامل)[4].

ومن المسلم به أنه أية أمة من الأمم لابد أن تكون وراء سلوكها، وممارستها وموقفها ثقافة ـ بأوسع معاني الثقافة ودلالتها ـ تجري منها مجرى الدم، وهكذا فإن ثقافة الجشع والأنانية تهب أصحابها منطق النهب والاستغلال مثلما تمنح ثقافة الحقد والكراهية عقلية العدوان والتسلط، وتصوغ ثقافة الإيمان والاستعلاء روح التضحية والاستشهاد. ومن هنا كانت مسؤولية (الثقافة) عما تفرزه من معلومات ومهارات ومنجزات تؤلف فيما بينها ما يصطلح على تسميته بـ (الحضارة) التي قد يفسر في كثير من الأحيان، مثلما هو الشأن بالنسبة لحضارة الغرب، الفصل بين المادي والمعنوي من العناصر التي تؤلف نسيجها. وحقا أنه لا سبيل إلى إنكار ما حققه الغرب بفضل تقدمه العلمي من مبتكرات ومخترعات بدت بها هذه الحضارة براقة، خلابة، تسحر أعين الناس وتستحوذ على ألبابهم، غير أننا عند التأمل في التطبيق الغربي لمبتكرات حضارته ومخترعاته سرعان ما نكتشف أنه، أي الغرب (فصل بين العلم والحكمة، أي بين الوسائل والغايات،

(3) نفسه، ص 15 ـ 16.

(4) نفسه، ص 16.

فكان المحرك الأساسي لتنمية العلوم والتقنيات في الحضارة الغربية هو إرادة القوة والربح سواء كانت هذه الإرادة إرادة الأفراد أم الجماعات أم الأمم، العلوم والتقنيات هدفها في الغرب إشباع الحاجات التي يشترك فيها الحيوان والإنسان : الغذاء، الكساد، المأوى، الدفاع، الهجوم).

ولعل هذا هو ما يعلل رواج (صناعات) جديدة في كنف هذه الحضارة ورعايتها، ففضلا عن الصناعات التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية في الغرب منذ القرن الماضي فإن ثمة، اليوم، جديدا من الصناعات لا يدخر أصحابه جهدا في النهوض به، وترقيته، والدعاوة له، وهذه الصناعات متعددة مثل صناعة الجنس، وصناعة المخدر، وصناعة الإرهاب، وشأنها شأن غيرها من صناعات الفولاذ والحديد والبترول تقوم على استغلال الإنسان واستنزاف قواه بهدف الربح والربح وحده. ومن الحق أن تقول بأنه منذ أن بدأت تلك الصناعات تغزو مجتمعات الغرب بدأت الكتابات تتوالى، نضاحة بالمرارة، حول الانهيار الأخلاقي المرعب الذي بات يتهدد الغرب في وجوده الاجتماعي، والاقتصادي، والحضاري، وقد تضادت الآراء واختلف وجهات النظر في تحديد أسباب ذلك الانهيار، وكان غير واحد من الكتاب ينتهي، بعد الدرس، والتحليل إلى وضع اليد على سبب هام ورئيس فيما أصاب ويصيب، أول النهار وآخره، صرح الأخلاق من تداع وانهيار، ولم يكن ذلك السبب سوى (الإيمان) الذي نضب معينه في الفكر، وخمدت جذوته في الوجدان، فأصاب النفس، من جراء ذلك، ترويع وتشريد، فقد معها الإنسان في ظل حضارة الاستهلاك والربح قدرته على التميز بين الصالح والطالح، لأنه، أو بالأحرى، لأن ثقافته، وهي التي أثمرت حضارته، لم تلحم بين العلم والإيمان في إيجابية، يمتزج فيها المادي بالروحي، تضع

الكسب المعرفي في إغنـاء قـدرات الإنسـان الفـاعلـة في تعمير الكـون وتسخيره[5].

تلكم هي صورة الغرب، من خلال ثقافته وحضارته، لا فرق فيها بين وجهها الليبرالي أو وجهها الشيوعي، وهي صورة على سلبياتها وترديياتها، لا تعدم جوانب من الفعاليات العلمية والتكنولوجية للمسلمين أن يفيدوا منها في إطـار تصورهم الإيمـاني للعلم، وهم يتـأهبـون للبعث الحضـاري، وهـو مـا سنعود إليه في موضع آخر من هذه الدراسة.

ج - الإسلام والغرب : ملابسات اللقاء وظروفه :

قبل أن يتم اللقاء في العصور المتـأخرة بين الإسلام والغرب كان سبق لهذا وذاك أن تلاقيـا، من قبـل، في الحرب أحيـانـا، وفي السلم أخرى، لكن لقـاء الحروب، ونعني بهـا وبـدرجـة أولى، الحروب الصليبيـة في المشرق وفي المغرب، والتي استمرت مدى قرون هو الـذي عمق الهوة بين الإسلام والغرب، الأمر الذي ازداد به بينهما سوء التفاهم واشتدت البغضـاء، على أنـه، كما يقول المستشرق درمنجهم، (مما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضـاء كان من جهـة المسيحيين)، أما تسامح المسلمين فأمر معروف ثابت بالأدلة والبراهين، وهـذه شهادة بذلك يدلي بها «ريتشارد ستبر» وهو تاجر إنجليز كان في تركيا سنـة 1578 مؤكدا أن الأتراك المسلمين كانوا يسمحون (للمسيحيين جميعا، للإغريق منهم والـلاتين أن يعيشـوا محـافظين على دينهم، وأن يصرفـوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعـائرهم المقـدسـة في القسطنطينيـة، وفي

5) انظر، الومضات، النور ع 104 س 9.

أماكن أخرى كثيرة جدا...) ولا شك أن هذا الإرث من العداء والكراهية، فضلا عن عوامل أخرى مستجدة، كان مما دفع بالغرب دفعا في العصور الحديثة إلى مهاجمة (الإسلام) في عقر دياره انطلاقا من حملات التنصير الكنسية مرورا بهجمات الاستعمار العسكرية، وانتهاء بغزوات الإيديولوجيات والتيارات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية...

فما هي الملابسات والظروف التي كانت تكتنف واقع الإسلام والغرب إبان هذا اللقاء الذي تم منذ نحو قرنين من الزمان ؟

أما بخصوص واقع الإسلام، وبالأصح : واقع أمة الإسلام، فيمكن القول بعامة، بأنه كان من التردي والانهيار والتخاذل بحيث غدت أغلب بلاد المسلمين إن لم نقل كلها مطمع أمم الغرب التي سرعان ما تداعت عليها كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، وقد تبدت حال هذا الواقع، بترדياتها وتناقضاتها في مجالات عدة أهمها :

1 ـ المجال العقدي :

أتى على المسلمين حين من الدهر، مسهم فيه قرح، واعترى معه فكرهم جدب، وأصاب إحساسهم نضوب، وكان ذلك ثمرة ما دب إلى عقيدتهم من الوهن، وحاق بها من الاهتراء، فإذا بأصحابها فريسة الخرافة والشعوذة التي تكرس الوثنية، والاستعباد والتواكلية، وغيرها من المعتقدات الفاسدة التي تمرغ أصحابها في حمأة الغي والضلالة.

ج ـ المجال السياسي :

وأهم ما يلفت النظر فيه انقسام المسلمين وفرقتهم، وغياب الحكم الشوري، وسيطرة الاستبداد، وانشغال الأمراء والحكام بأهوائهم ومصالحهم عن المسؤولية الجسيمة المنوطة بهم في رعاية أمتهم وحماية مقدساتها، والسهر على مكتسباتها، أضف إلى هذا تقاعس (العلماء) عن النهوض برسالتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا منتهى الشر الذي تضرب به الأمة : فساد الأمراء وتخاذل العلماء، وهو ما صوره شيخ مؤرخي الإسلام بالأندلس أبو مروان ابن حيان (377 هـ ـ 422 هـ) حين قال : (ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء، قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون، وبفسادهم يفسدون) وكأنما كان يعني، وهو يتحدث عن أمراء القرن الخامس وفقهائه في الأندلس، حكام العالم الإسلامي وعلماءه حين الهجمة الغربية على بلاد المسلمين في القرن الماضي : (فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له، ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادا عن الجماعة، وجريا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ بالتقية في صدقهم)(6).

3 ـ المجال الاقتصادي :

كان هذا المجال يعرف بدوره أزمات خانقة مردها إلى التخلف الذي كان ران، مدى عقود من السنين، على الصناعة، والزراعة، والتجارة، فشلّ

6) انظر، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ت 2 مج 1 ص 134.

الفاعليات، وثبط العزائم، وفي غيبة الوعي بتعاليم القرآن التي تدعو إلى العمل وتحث عليه باعتباره (المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فردا وجماعة ـ على الأرض وأنه الذي يتخذ مقياسا عادلا لتحديد المصير في الدنيا والآخرة) سادت المجتمع روح الدعة والإخلاد إلى الراحة ففقد بذلك المعاني السامية للعمل والكسب اللذين يحقق من خلالها المسلم فكرة الاستخلاف الحضارية، كما أن أغنياء المسلمين لم يكونوا يدركون لجهلهم بالتصور الإسلامي للمال، أن هذا المال لله وأنهم مستخلفون فيه، مؤتمنون عليه، مطالبون بالتصرف فيه على الوجه الذي يسهم في النهوض بالمستوى الاقتصادي للأمة.

4 ـ المجال الاجتماعي :

وفيه تنعكس المظاهر السلبية التي رصدناها في المجالات السابقة، فإذا به، أي المجال الاجتماعي، صورة لواقع مرير، مثقل بتناقضات مذهلة، تخيم بسببها على حياة الأفراد والجماعات كوابيس الجهل، والظلم، وتطوقهم قيود الخرافة، والشعوذة، يعطل فيهم هذا وذاك إرادة التغيير، ويشل لديهم حركة الاستشراف.

أما واقع الغرب فبوسع الدارس أن يستكشف صورته خلال القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي بدأ الغرب يقتحم فيها على الإسلام ديار بنيه، في بعدين إثنين :

1 ـ بعد مادي :

بلغ الغرب في القرن الماضي درجة باهرة في الرقي العلمي والتقدم الصناعي، وبفضل ذلك (نعم كل جيل بمزيد من الثروة والرفاهية وباتساع

الفرص الاقتصادية وبتحسين في مستويات التغذية والصحة والإنشاءات الصحية. ومع كل عقد من السنين كانت الاكتشافات التقنية الجديدة تسرع في جعل الصناعة آلية وفي قيام المدن الجديدة بآفاقها الفوضوية، وفي بلوغ المصانع والمعامل مستويات جديدة في الإنتاج). وما أن أوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء حتى كان التصنيع الآلي قد أصبح أنفذ قوة في تكوين معالم الحضارة الغربية، فقد فاقت الآلة قصد مخترعها، وهيمنت المادية الاقتصادية على مرافق العصر، وتحقق نذير (أمرسن) بأن «الأشياء المادية قد اعتلت السرج وامتطت ظهر البشرية». ومثل هذا التقدم الصناعي كان لابد أن يطرح مشكلة المادة الخام من جهة ومشكلة السوق المستوعبة من جهة أخرى، ومن ثم ارتبط تاريخ التقدم الصناعي في الغرب خلال عقود من القرن التاسع عشر ارتباطا وثيقا بحركة التوسع الاستعماري الغربي في مختلف القارات، وعرف الربع الأخير من هذا القرن بصفة خاصة (فترة) استعمارية جامحة، فلقد سعت جميع الدول الكبرى وراء فتوحات جديدة، وفيما عدا حكومة النمسا والمجر، خاضت جميعها غمار حروب استعمارية بغية توسيع ممتلكاتها في القارات الأخرى)[7].

2 - بعد روحي :

وحقا أن الانتصارات والانجازات التي حققها العلم والتقنية استأثرت بالإعجاب، لكنه إعجاب لم يشمل العقل والقلب معا (وكان الجيل الذي بلغ الرشد في العقد الأخير من القرن قد تهيأ ذهنيا لخيبة الأمل وزوال الأوهام. كان قد ترعرع وبلغ النضج في عصر امتاز بالمنجزات المادية الباهرة ولكن في جو سرت فيه برداء ما أسماه دزرائيلي بحق «نظريات عصر نزاع إلى

7) انظر، براون جافري، الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر ص 113.

التعميات الباردة الجافة»[8]. وكان ذلك أول جيل أدرك تمام الإدراك أن العلم قد قذف بالإنسانية في منحدر طريق لا يعرف مداه. وسرت رعشة خلال الصفوف الممتلئة ثقة إذ أخذت الطليعة تبطئ كي تبحث عبثا عن معالم للطرق غير موجودة. وكان لصرخة ميجيل دي أونامونو (1936م) في قومه الإسبان «هلموا إلى الداخل»[9] للم شعثهم بعد هزائمهم في بلاد أمريكا أواخر القرن معنى أشمل وأوسع، بل كانت خطابا إلى الغرب جميعه بوجوب صرف العناية إلى إنقاذ الروح التي كانت جذوتها تنطفئ، يوما بعد يوم، كلما ازدادت فتوحات المادة وانتصاراتها في ميداني العلم والصناعة.

بهذا الزاد الثنائي المتضاد من (المادة) الطاغية و(الروح) المنحسرة نزل الغرب ديار المسلمين يرهب ويبهر، وكان من الطبيعي أن تكون نتيجة هذا النزول بما صاحبه من مبتكرات العلم، وأنماط الفكر، ونظم الحياة، على بلاد المسلمين بما كانت تتخبط فيه من تخلف علمي، وترد فكري، وتخلخل في نظم المجتمع، والسياسة، والاقتصاد غلبة الغرب على (الإسلام) سواء من الوجهة العسكرية والسياسية أو من الوجهة الفكرية والاجتماعية[10]. وهكذا استطاع الغرب أن يحقق بهذا النزول نوعين من الغزو لبلاد الإسلام : أولهما غزو عسكري استيطاني، وثانيهما غزو فكري اجتماعي، مارس، أي الغرب، في ظلهما، وهو الذي كان يلوك شعارات الحرية، والديموقراطية، والعدالة، في حق المسلمين ألوانا من القمع، والإرهاب، والظلم، ليس هنا موضع الحديث عنها. وإذا كان الغزو الأول قد انحسر عن جل المناطق الإسلامية

---

8) نفسه، ص 134.

9) نفسه، ص 153.

10) انظر، محمد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص 83.

بفضل الجهاد الذي استرخص فيه المسلمون النفس والنفيس من أجل تحرير أوطانهم وديارهم من حكم أفاقي الغرب وشذاذه فإن الغزو الثاني، أي الغزو الفكري الاجتماعي، ما انفك يقيم بين ظهراني المسلمين، يصبحهم ويمسيهم، ويعلن عن تحدياته التي تتهدد وجودهم العقدي، والفكري، والحضاري، وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

د ـ محاور التحدي :

لاشك أن الغرب أدرك، منذ أمد غير قصير، فاعليات الإسلام مما صورنا جوانب منه في الفقرة الأولى من هذه الدراسة، بوصفه عقيدة، وفكرا، وحضارة، وقابلياته للحياة والتطور، لذلك وجدناه، أي الغرب، حين دخل بلاد الإسلام غازيا، مستعمرا، لا يشغل، بجانب استغلاله لمواد الأرض الخام وتحويلها إلى أسواق لمنتجات صناعته، إلا بالعمل، في دأب وجلد، على فرض مثله، وقيمه الأخلاقية، ولكي يحقق سياسته في مسخ المجتمع الإسلامي وإحباط محاولاته الإصلاح والنهوض، كان لا يفتأ يفتح على الإسلام جبهات من المكر والتحدي تشن منها حملات غزو فكرية مدججة بتصورات عقدية، ومفهومات فكرية، ومناهج اجتماعية، تستهدف اجتثاث الوجود الإسلامي.

أولا ـ عقديا :

لما كان صلاح العقيدة صلاحا للتفكير، وللشعور، وصلاحا للقول، وللفعل، وصلاحا للحال، وللمآل فقد كان مدار الأمر عليها في جميع الدعوات والرسائل التي توالت مواكب الأنبياء والرسل تحملها إلى البشرية.

ففي مكة، قبل أزيد من أربعة عشر قرنا، والوثنية، والاستعباد ليل دامس الظلام، يغشى الأرض والناس أعلن الصادق الأمين محمد بن عبد الله، صلوات الله عليه وسلاماته، عقيدة التوحيد في مواجهة عصره، وكل عصر تصبح فيه العبودية لغير الله، وتهدر فيه كرامة الناس، وبهذه العقيدة علم ﷺ صحبه حب الحق وإيثاره، وتحمل المسؤولية والتضحية من أجلها، فلما أذن لهم بالجهاد في سبيل هذه العقيدة مضوا كلمح البرق أو كالريح، لا يأبهون بمعاثر الطريق ومزالقه، يهوون على الباطل كالطيور الجارحة، ويسوون من (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ملاحم جهاد حررت المستضعفين والمأسورين ورفعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ودفعت بهم يرتادون آفاق الحق فيها يسع المومنين جميعهم : الماء والشجر.

لكل ذلك حرص الغرب على تسديد الضربات لهذه العقيدة، لأن في تدميرها وشل حركتها تدميرا للإسلام وشلا لحركته، وتوسل في تنفيذ خطته ب :

أ ـ التبشير :

وهو حركة الإرساليات الكنسية التي كرس رجالها جهودهم لتنصير المسلمين بعد إثارة الشكوك والدعاوي حول عقيدتهم، وحتى حينما كان هؤلاء المبشرون ينشلون في تحويل المسلمين عن دينهم أو هدم الروح الدينية في نفوسهم فإنهم لم يكونوا ينثنون عن مهمتهم، بل كانو يواصلون العمل لاقتناعهم بأن (نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل

في سبيل التربية النصرانية)[11] وإلى مثل هذه القناعة يشير صموئيل زويمر بقوله (لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو أن ييأس ويقنط عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم. عندما تذبذب مسلما وتجعل الإسلام يخسره تعتبر ناجحا يا أيها المبشر المسيحي، يكفي أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا)[12].

ولعلنا أن نستخلص من هذا الكلام والذي تقدمه، وكلاهما أدلى به مبشر مشهود له بالكفاءة والخبرة في هذا الميدان، حقيقة هامة قد يغفل عنها الكثير، وهو أن (التبشير) لم يكن في الجوهر يهدف إلى تنصير المسلمين، وإن تظاهر بذلك، بقدر ما كان يهدف إلى تشويه العقيدة وتعطيل فاعليتها، فيصبح من أصيبت عقيدته بهذا مذبذبا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا مناعة له ولا وجهة. ولا شك أن هذه الحقيقة تكشف عن عداء الغرب للإسلام وخوفه منه وحرصه، بسبب هذا وذاك، على نسف عقيدته في نفوس بنيها حتى يهنوا ويسلسوا له القياد. ومن هنا ندرك مغزى تنويه (بلفور) بجهود المبشرين في قوله : (إن المبشرين هم ساعد كل الحكومات في أمور هامة، ولو لا هم لتعذر عليها أن تقاوم الكثير من العقبات).

ب ـ الاستشراق :

مع أن الإنصاف يلزم الدارس لحركة الاستشراق بالاعتراف بالجهود التي قام بها بعض المستشرقين في نشر آثار من التراث العربي ولفت الأنظار

11) انظر، د. عبد الحليم محمود، الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ص 167.
12) نفسه، ص 166.

إلى قيمتها وأهميتها فإنه بعد إعمال النظر في طبيعة الاستشراق ونتاجه سرعان ما يكتشف سلبيات خطيرة، كانت من ثمرة وقوعه، منذ تاريخه المبكر، وبحكم ظروف نشأته في حضن الكنيسة والفكر الامبريالي، أداة طيعة في يد حركة التبشير والاستعمار، يأتمر بأمرهما في التخطيط والتنفيذ، ويضع إمكاناته العلمية في تحقيق أهدافهما. وكانت أوضاع العالم الإسلامي المتردية خير مشجع للمستشرقين، مثلما كانت بالنسبة للمبشرين، على نفث الشكوك والأباطيل حول عقائد الإسلام ويقينياته، فـ (بذلوا مجهودات في اتخاذ موقف الهجوم والتبشير، وتضايقوا من العراقيل التي وضعها أمامهم كل من الفقه الإسلامي والإداريين الاستعماريين أنفسهم، حيث خشي هؤلاء من ردود فعل مختلفة أعمال مكشوفة أكثر من اللازم. وفي نطاق الاتجاهات الإنسانية العادية وبموازاة مع الأفكار العامة للعلوم في وقتهم كانوا يربطون نجاح الدول الأوربية بدينهم المسيحي كا كانوا يربطون تقهقر العالم الإسلامي بالإسلام، وهكذا اعتبروا المسيحية مؤيدة بطبيعتها للتطور وبالتالي اعتبروا الإسلام مؤيدا للركود والتأخير الثقافي، فاتخذ الهجوم على الإسلام أعنف الصفات)[13].

وإذا كان في هذه الصورة التي رسمها ماكسيم رودنسون، وهو المستشرق الذي تمده يهوديته وماركسيته بعداء لاحد له للإسلام، للاستشراق ما يدل على ارتباطه الوثيق بعجلة التبشير وخضوعه لمخططاتها الصليبية في تدمير الإسلام بعد إفراغه من محتوياته العقدية فإن في تصور مستشرق آخر من الرهبان، هو دانكان بلاك ماكدونالد لانهيار الإسلام ودور الاستشراق

13) نفسه، ص 163.

التبشيري في ذلك ما يؤكد النزعة الصليبية لهذه الحركة. يقول ماكدونالد : (إن انهيارا دينيا مخيفا ينتظر الشعوب الإسلامية. لا يستطيع الإسلام كدين أن يواجه حملة الكفر التي تتدفق عليه من الحضارة الأوربية... ومع انتشار التعليم ورسوخه ومع فرض التاريخ لمكانته، ومع تحول الشعور الأخلاقي إلى اتجاه أكثر حذرا وإحساسا ستنهار أسطورة محمد وستظهر طبيعته على حقيقتها. وبذهاب محمد لابد أن يذهب النسيج كله)[14].

ويتفق الاستشراق مع التبشير، كما سلفت الإشارة، في أن الغاية من الجهود المبذولة في نشر المسيحية وثقافتها لم تكن بالضرورة هي تنصير المسلمين بل هي مثلما تتحقق بذلك تتحقق أيضا، بتحويلهم عن دينهم إلى أي دين سواه، ومعنى هذا بتعبير آخر، تركهم مذبذبين، بلا هوية عقدية تحصن وجودهم الفكري، والاجتماعي، وترد عنه كيد الكائدين، وفيما عقب به (ماكدونالد) على كلامه المتقدم ما يفيد ذلك : (وسيأتي آنذاك دور المدارس الكاثوليكية ومبشريها للإنقاذ هذه الشعوب ليس لفائدة المسيحية فحسب وإنما لأي دين كان)[15].

وإذا كان التبشير قد أتيح له بحكم الوسائل التي اعتمدها في حركته، من مصحات، ونواد، ومدارس، أن يخاطب جمهورا كبيرا من المسلمين، هو مزيج من المتعلمين والأميين، فإن الاستشراق، وبحكم المجال الذي كان يمارس فيه نشاطه، من منابر جامعية، ومؤتمرات علمية، ومجلات متخصصة، قصر

14) انظر، د. محمد بن عبود «الاستشراق والنخبة العربية» فصلة من المجلة التاريخية المغربية ع 27 - 28 ص 11.

15) نفسه، ص 12.

خطابه على فئة المثقفين من الطلبة والباحثين، يشككهم في عقدياتهم الدينية من خلال (كتابات وأدبيات جمة تركز على هدف واحد هو إنكار صفة محمد كرسول ونفي القرآن كوحي. ولعل في التأثير الكبير لمستشرقي القرن التاسع عشر على طلبتهم خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ما يفسر استمرار هذه التفسيرات والاستنتاجات الموروثة إلى يومنا هذا)[16].

ويمكن القول، استنادا لما سبق عرضه، أن الاستشراق، وهو، كما رأينا، ربيب الصليبية والاستعمار، كان بتعمده تشويه حقائق الإسلام وطمسها يهدف إلى تحقيق مطلبين إثنين :

أولهما : زلزلة عقيدة التوحيد وتدميرها في نفوس معتنقيها من أبناء المسلمين عن طريق تقديم تصورات عن الإسلام ويقينياته مبنية على أوهام وافتراضات لا تقوم للبحث العلمي المجرد عن الهوى والعصبية.

وثانيهما : تعتيم صورة الإسلام في الغرب أو تقديمها، على غير حقيقتها، في إطار منفر من الأباطيل والأراجيف، يزيد من بغض الغربيين للإسلام ويصرفهم عنه.

وفي هذا المطلب وذاك يتجلى الأثر الصليبي في تشكيل عقلية الاستشراق الحاقدة على الإسلام، الحريصة على تشويه صورته وتبغيض الناس، مسلمين ومسيحيين، فيها، وفي ذلك ما يضمن قيام حجب كثيفة تحول دون رؤية الإسلام على حقيقته. وتلك كانت رسالة الصليبيين في مواجهتهم لهذه العقيدة، فـ (لقد اختلقت الحروب الصليبية صورا مبغضة

16) نفسه، ص 15.

لهذا الدين في الغرب، مثلما سعى رجال الدين النصارى والمستشرقين للتشهير به)[17].

ثانيا - فكريا :

بقدر ما أدرك الغرب في غارته على الإسلام قيمة النتائج الإيجابية التي يحصل عليها في مشروعه الاستعماري من إفساد العقيدة لدى المسلمين، أدرك، بالمثل، مدى النتائج الباهرة التي يمكنه الظفر بها من جراء (تهجين الفكر الإسلامي وحرفه عن شرعته السمحاء وإشاعة المفاهيم والقيم الصليبية والتلمودية والإلحادية تحت ستار حرية الفكر أو دعوى محاربة التخلف والانفتاح على المدنية العصرية)[18].

وهكذا فقد كانت الخطوة الثانية التي خطاها الغرب في سبيل القضاء على الإسلام بعد توهين عقيدته وتطويقها بالبلبلة والريبة تتمثل في استدراج المسلمين من حيث يشعرون أولا يشعرون، إلى أحضان الفكر الغربي في محاولة لاحتوائهم فكريا وثقافيا، (وبذلك ظهر في معجم السياسة والحضارة ما يسميه ساسة الغربيين ومفكروهم بالـ Westernization، وما يمكن أن نسميه بالتغريب، أي طبع المستعمرات الأسيوية والإفريقية بطابع الحضارة الغربية)[19].

17) انظر، رجاء جارودي، الإسلام وأزمة الغرب ص 23.

18) انظر، فيصل حسوية، التحديات المعاصرة للناقد الإسلامية ضمن كتاب «الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم» ص 226.

19) انظر، د. محمد محمد حسين الإسلام والحضارة الغربية ص 56.

ومهما يكن من أهداف أخرى للتغريب من مثل حراسة مصالح الاستعمار بتقريب الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين[20] فإن الهدف الرئيسي من غزو الفكر الإسلامي بقصد تغريبه إنما هو، في نهاية المطاف، تغريب الحياة في البلاد الإسلامية وكان أهم المجالات التي نفذ فيها الغرب خطته هذه مجالان إثنان، هما :

أ ـ المجال التعليمي :

كان هذا المجال هو أول ما صرف إليه الغرب عنايته واهتمامه إدراكا منه أن تقديم النموذج الغربي في التفكير للمسلمين إنما يتأتى، في يسر، من خلال مناهج التعليم ومواده، وبذلك يستطيع أن يحكم قبضته على ناصية الفكر في مستقبل المسلمين، وقد عبر عن هذه الفكرة أ. ل. شاتيليه فقال : «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها، لأن لهذه المشروعات أغراضا اختصاصية، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة في هيئتنا الاجتماعية التي من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التي يقوم بها الأفراد فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نحن نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنساوية نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية

20) نفسه، ص 61 ـ 62.

المبنية على قوة الإرادة. وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى خير الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية)[21].

وعلى هذه الخطة سار الاستعمار الفرنسي في المغرب فكان يشمل برعايته المدارس التي أنشأها ليتعلم فيها أبناؤه، وأبناء المسلمين من الأغنياء، فكره وثقافته ولغته، (أما الفكرة الإسلامية فغائبة تماما، وكذا الفكرة العربية والوطنية، فمواد التاريخ والجغرافية كانت تعطي تاريخ وجغرافية فرنسا عناية فائقة، ولم يكن هناك أي اهتمام بالدين الإسلامي في المناهج الدراسية)[22] كما كان يشمل بهذه الرعاية المدارس البربرية التي أرسى أسسها على كراهية الإسلام ولغة القرآن.

ومثل الفرنسيين أدرك الإنجليز في مستعمراتهم الإسلامية، ومنها مصر، أنه لا سبيل إلى امتصاص الفكر الإسلامي واحتوائه إلا عن طريق (تربية جيل من المصريين العصريين الذين ينشئون تنشئة خاصة تقربهم من الأوربيين، ومن الإنجليز، على وجه الخصوص، في طرائق السلوك والتفكير)[23]، وكان هذا هو ما دفع بـ (كرومر) إلى تأسيس كلية فكتوريا بالاسكندرية التي (قصد بها إلى تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين، وليكونوا في الوقت نفسه على مضي الوقت أدواته في التقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوربي وفي نشر الحضارة الغربية)[24].

---

21) انظر، أ. ل. الغارة على العالم الإسلامي ص 13.

22) من حوار مع الأستاذ عبد الله كنون، انظر، مجلة الأمة ع 26 س 3 ص 52.

23) انظر، الإسلام والحضارة الغربية ص 62 ـ 63.

24) نفسه، ص 63.

أما معاهد التعليم الإسلامي الكبرى من مثل جامعة القرويين بفاس فلم يذخر الاستعمار وسعا في محاربتها، فقد كانت، على ما كان بها من حاجة إلى إصلاح برامجها ومناهجها في التعليم، الصخرة التي تتحطم عليها آماله في القضاء على الفكر الإسلامي واللغة العربية، بل إن هذه الجامعة العتيدة ظلت تحارب بعد الاستقلال، من طرف فئة رباها الغرب في حضن ثقافته، وفكره، ولغته، تكيد لها وتتربص بها (مستخدمة كل الوسائل لتدمير ذلك الكيان على اعتبار أنه يمثل العقبة الكأداء التي تحول دون تحقيق تلك «الطغمة» لخططها الهادفة للقضاء على كل ما من شأنه أن يجعل الأمة تتمسك بدينها ومقوماتها الأصلية)[25].

ومثل القرويين جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بمصر، فلقد كانت جميعها حصونا لثقافة القرآن ولغته، لذلك ضيق المستعمرون وعملاؤهم عليها وعلى المتخرجين منها تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن)[26].

على هذا النحو استطاع الغرب أن يعد جيلا من أبناء المسلمين يفكر بفكره، ويشعر بشعوره، و(يلغو) بلغته، وأفراد هذا الجيل، في مشرق من بلاد الإسلام ومغرب، هم الذين تولوا، بعد انحسار موجة الاستعمار عن أقطار الإسلام، حماية (المكتسبات) الفكرية للغرب في هذه الأقطار، بل والعمل على الاستزادة منها والتمكين لها في مجالي التعليم والثقافة تحت دعاوي (العصرنة) و(التطور) وما أشبه ذلك.

---

25) من حوار مع الأستاذ عبد الله كنون، مجلة الأمة ع 26 س 3 ص 54.

26) انظر، الغزو الفكري وأثره على المجتمع الإسلامي المعاصر ص 128.

ب ـ المجال الثقافي :

وفي هذا المجال اجتهد الغرب أن يمكن بعدة فاعليات ثقافية، أهمها :

1 ـ الإيديولوجية :

إن (الانتماء الإيديولوجي) يعني، في جملة ما يعنيه، استيعاب معطيات (فكر) مّا في بعده العقدي، والاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، فهما، وتمثلا، واستلهاما، ثم هو يعني، بعد ذلك، الوعي التام، غير المنقوص، بحتمية الانطلاق من هذه المعطيات ـ المسلمات في كل ممارسة تستهدف تغيير المضمون العقدي، والبنية الفكرية لدى مجتمع، أو لدى أمة بأسرها، وفي عبارة موجزة : إن الانتماء شهادة موثقة، تتحدد، من خلالها، شخصية المرء في بعدها العقدي والفكري، وفي تصوره للكون، والحياة، والمجتمع، والتاريخ.

ولا مراء في أن الفكر السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الغربي هو، في جوهره، تعبير عن عقائد، وقيم، ومثل يؤمن بها الغرب أي أن وراء كل إيديولوجية (عقائد انبثقت هي عنها ومفاهيم ونظرات في الحياة تتصل بها اتصال الفروع بالجذور)[27].

من ثم ندرك مقدار ما حققه الغرب من فتوحات لفكره في عالم المسلمين حين أشاع فيهم هذه الإيديولوجية أو تلك من إيدلوجياته، فعزلهم بها، من حيث يشعرون أولا يشعرون، عن عقيدتهم، ودينهم، وتراثهم.

ولنضرب أمثلة على ذلك، فالاشتراكية الماركسية ترفض الدين بوصفه (أفيون الشعوب) وتدعو إلى الالحاد، ولا إله، في زعمها، إن المادة : لأنها

27) انظر، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص 90.

أصل الوجود، والتاريخ ثمرة صراع الطبقات، والإنتاج محور الحياة، والديمقراطية تعتمد الفرد، فهو في تصورها، حرية مطلقة في تصرفاته الاقتصادية أو الخلقية أو الفكرية، ومثل هذا التصور يؤدي (إلى المساواة بين الإيمان والإلحاد في مجال الفكر، وبين الاباحية والتقيد في مجال السلوك الخلقي وبين الرأسمالية المترفة الطاغية والتقييد لمصلحة الجماعة)[28]. والعلمانية تفصل بين مجالين في حياة الإنسان : مجال الدنيا وزينتها ومتعها ومجال الصلة الخاصة بين الإنسان وخالقه[29]، وهذا يعني فصل الدين عن الدولة وعدم تدخل أحدهما في شؤون الآخر.

ولا نحب أن نستكثر من الأمثلة فإن فيما ذكرناه ما يكفي، بعد ترديد النظر فيه وفي عقديات الإسلام وتصوراته، للدلالة على التناقض الصارخ بين هذه المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين الإسلام بوصفه عقيدة ومنهج حياة.

2 ـ اللغة :

وباعتبار أن اللغة وعاء للفكر فقد كان على الغرب أن يعمل من نحو على محاربة العربية بوصفها لغة الفكر الإسلامي الأولى، وأن يعمل، بذات الوقت، ومن نحو آخر، على نشر لغته والتمكين لها. وفي هذا أو ذاك ما كان يعكس، بوضوح، المرمى البعيد للغرب في إذابته المجتمعات الإسلامية ثم صبها في قوالب جديدة من ثقافته ليس فيها أثر من دينها أو لغتها. ولم يترك الغرب وسيلة إلا واستعملها في محاربة اللغة العربية، فن إهمال لها وتهميش،

28) نفسه، ص 82.

29) انظر، د. محمد البهي، العلمانية وتطبيقها في الإسلام مجلة الأمة ع 1 س 1. ص 72.

من صوره تقليص حصصها في برامج التعلم، وسد الأبواب في وجوه الخريجين من المعاهد الإسلامية الذين لا يتقنون غير هذه اللغة، إلى استئجار أقلام كتاب من بني جلدتها يشنون عليها حملات الانتقاص والاتهام بالقصور والعجز، إلى العناية باللهجات العامية والتنويه بها والتشجيع على تعلمها[30]. هذا فضلا عن اهتمامه، بل حرصه البالغ على فرض لغته في التعليم، وفي الإدارة، وفي غيرهما من المجالات، وهو بذلك جميعه كان ينفذ مخططه الرهيب في القضاء على كيان الإسلام، عقيدة وتراثا، والتحكم في الفاعليات الفكرية، بل وحتى (الشعورية) لدى الجيل الذي رباه بعينه، في الحاضر والمستقبل. وهذا الجيل ما زال أفراده إلى الآن في بلاد المسلمين بعامة يعملون على تكريس الاستعمار اللغوي في الحديث والتدريس، والكتابة، يشكلون بذلك ظاهرة استلاب مشينة، طالما رفع المصلحون أصواتهم باستنكارها من مثل ما نقرأ في شعر لعلال الفاسي :[31]

قولوا لنا :

إن كنتم من قومنا، فعلام لا ترضون أن تتكلموا بلساننا ؟
وعلام في كل المجالس تنطلقون
تتحدثون وتدرسون وتكتبون
كأعاجم لا يعرفون من الكلام
سوى لغات الفاتحين ؟
وتفرنسون شبابنا وبرامج التعليم

---

30) انظر، أحمد زياد، لمحات من الحركة الفكرية بالمغرب ص 84.

31) انظر، د. حسن الوراكلي، المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي ص 73.

ومناهج التفكير والأبحاث والتدوين
وعلام لا ترضون بالعربية الفصحى
لغة الإدارة والدراسة والشؤون ؟[32]

3 ـ الأدب :

وهو منفذ آخر تسلل منه الغرب إلى فكر ووجدان الفرد المسلم ليفسدهما بمضامين المادية، والعبثية، والسادية، ويفرخ في النفوس بذلك من العقد والمركبات ما تثبط به العزائم، وتكسح الطاقات. وهل في طوق أحد من الناس أن ينكر أنه كان فيما وضع بين يدي القارئ المسلم، بلغته الأصلية أو مترجما إلى العربية، من أدب الجنس، والدعارة، والإلحاد، والغثيان، والسأم، والقلق، والضياع، واللامعقول ما زعزع المعتقدات، وميع الأخلاق، وغبش الرؤى، وشل القدرات المبدعة في الفكر، والنفس، والوجدان ؟

وفي غيبة الوعي بالهوية والذات، سرعان ما أقام له ذلك الأدب في ديار الضاد سوقا تردد عليها (الفطاحل) والشداة على حد سواء، وفي حلبتها تبارى أولئك وهؤلاء في احتذاء (الاعلام) ذراعا بذراع، وشبرا بشبر، يعنون جميعا، حرصا على إظهار البراعة في التقليد والمحاكاة، في التنكر لمثل أمتهم وقيمها، ويتبنون أطروحات فكرية لا تتلاءم مع عقيدة أمتهم وتراثها، ومقولات خلقية غريبة عن حس مجتمعاتهم وشعورها[33].

---

32) انظر، المختار من شعر علال الفاسي ص 132.
33) انظر، د. حسن الوراكلي، الومضات، صحيفة النور.

ثالثا ـ اجتماعيا :

كان للحملات الحاسمة التي شنها الغرب على عقيدة الإسلام وفكره أهداف شتى، غير أن أهمها، ولعله يستوعبها جميعها، كان هو صياغة المجتمع الإسلامي على صورته، أي الغرب، في الأعراف، والتقاليد، والمعاملات، وألوان السلوك، والعلاقات، والتنظيمات، وأساليب التعايش، وفي سوى هذا وذاك مما يتصل بجد الحياة ولهوها.

إن عملية فصل العناصر التي تتألف منها الصياغة الغربية للمجتمع (الإسلامي) قصد درسها وتحليلها ليست سهلة لتشابك تلك العناصر وتداخلها على النحو الذي تتشابك به حيوات الناس وتتداخل في المجتمع. ومع ذلك فقد نستطيع رصدها من خلال صنفين من القيم يمارس في كنفهما المجتمع (الإسلامي) حياته اليومية، وهما :

1 ـ قيم مادية :

لعل أعلاها وأشدها أثرا في حياة الناس تلك التي أفرزت نظاما اقتصاديا ربويا تدور في فلكه جميع الممارسات المصرفية السائدة، مع أن الإسلام يحرم هذا النظام باعتباره صورة من أكل أموال الناس بالباطل.

أما أدناها فهي تلك التي أثمرت ذوقا متميزا في هذا العرف أو ذاك من الأعراف الاجتماعية التي حملها الغرب معه إلى بلاد الإسلام، فلم يملك المسلمون، وهم عزل من سلاح العلم والوعي، مغلوبون على أمرهم والمغلوب مولع بتقليد الغالب، إلا أن يعجبوا بها في انبهار حملهم على ترك أعرافهم ومحاكاة أعراف الغرب. ومنها على سبيل التمثيل، الزي الأوربي الذي قد

يرى الكثير في إثارة الحديث حوله ضمن تحديات العصر التي تواجه المسلمين ضربا من السخف، غير أن الحقيقة بعكس ذلك، فإن لزي ما من الدلالات العقلية والحضارية ما يلزم بقيمها ومثلها المتزيي به (فالزي الأوربي اليوم مثلا يتفق تماما مع الخصائص العقلية في أوربة، ويلبس الثياب الأوربية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوربي ثم يشوه «حياته» العقلية بشكل يتفق نهائيا مع اللباس الجديد. وبعمله هذا يكون «المسلم» قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الأجنبية)[34].

وليس الزي إلا مثال واحد من عدة أمثلة للأعراف الاجتماعية التي غزا الغرب بها مجتمع المسلمين فاقبلوا عليها يتنافسون ظانين أن (التفرنج)، أي الأخذ بتلك الأعراف هو عين الحضارة، ولب التمدن[35]، وقد حذر الشعر الإصلاحي من مغبة (التفرنج) ورأى فيه داء تتحتم المبادرة باستئصاله قبل أن يستفحل أمره، ويستعصي علاجه :[36]

دعوا التفرنج دوما في عوائدكم إن التفرنج قد يدني من العطب
لكل قوم شعار يعرفون به فإن مضى أصبحوا في منظر شحب
إن (التفرنج) بحر فاض بينكم فلتقطموه على جسر من النصب[37]

34) انظر، محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ص 82 ـ 83.
35) انظر، المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي ص 85.
36) نفسه، 86.

2 ـ قيم معنوية :

ونريد بها جملة (القوانين) التي وضعت في الغرب لسد حاجة المجتمع من الطمأنينة والسلام. وقد حملها الغرب إلى المجتمعات الإسلامية حيث أقصى أحكام الشريعة المستمدة من القرآن والسنة وأحلها محلها، وترتب على ذلك إنشاء (محاكم خاصة لتطبيق هذه القوانين. وعين لهذه المحاكم قضاة أوروبيون أو قضاة وطنيون درسوا هذه القوانين ولم يدرسوا الشريعة، وقد اعتبرت المحاكم الجديدة نفسها مختصة بكل شيء تقريبا، فترتب على ذلك تعطيل الشريعة تعطيلا عمليا)[38].

وقد استطاع الغرب أن يرسخ هذه القوانين في بيئة القضاء بالمجتمعات الإسلامية التي كان يهيمن عليها، فلما اضطر إلى الرحيل عنها رحل وهو مطمئن إلى بقاء قوانينه تحكم علاقات المسلمين الاجتماعية وتنظمها ما بقي فيهم طائفتان من الناس :

إحداهما تلك التي تشبعت بروحه، وأشربت حبه، فهي له تابعة، وعلى تعاليه وتقاليده ساهرة، وثانيتهما حين لم يول أفرادها (أبصارهم نحو المصادر الأصلية في الإسلام اعتبروا ضمنا أن الشريعة والفقه المتحجر في أيامنا هذه شيء واحد، وقد وجدوا أن الثاني ناقص من عدة وجوه ففقدوا بالتالي كل اهتمام عملي بالشريعة)[39].

وفي وجوه هؤلاء وأولئك يصرخ الشاعر :

---

37) انظر، ديوان علال الفاسي ج 1 ص 44.

38) انظر، عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه س [redacted] ـ 29.

39) انظر، الإسلام على مفترق الطرق ص 80.

قولوا لنا :

إن كنتم من ديننا فعلام لا تتحاكمون إلى شريعة ديننا
وتفضلون الأجنبي إذا تشرع أو حكم ؟[40].

وقبل أن أختم هذه الفقرة طافت بذهني ذكرى ذلك الطالب الإسباني الذي جمعتني به في قرطبة منذ سنوات، جلسات المؤتمر الأول للحوار الإسلامي - المسيحي. كان مشغوفا بالقراءة عن الإسلام، عقيدة، وتاريخا، وحضارة، وكان يعتزم السفر إلى العالم الإسلامي بإنجاز دراسات ميدانية عن الإسلام. وقد علمت أنه سافر بالفعل حين كتب إلي مرة رسالة كان مما ورد فيها : (... وصلت «كراتشي» منذ شهر... انتهيت إليها بعد أن طوفت طويلا في مختلف بلاد المسلمين. أقولها لك بصراحة : أية قوة أنتم... لو ترجمتم كتابكم إلى سلوك) ثم بعد شهور وشهور، وفي قاعة المكتبة الوطنية بمدريد، وعلى حين غرة، وجدتني وجها لوجه أمام «أسين» - وهذا اسمه - ... استفسرته عن رحلته في البلاد الإسلامية، وعن بحوثه الميدانية في مجتمعاتها. حدثني عن مظاهر (الغرب) في هذه المجتمعات بكثير مما أعرف وتعرفون. كان يعزز حديثه ب «إحصائيات» لما يحتضنه هذا البلد أو ذاك من بلدان (الإسلام) من علب ليل، وحانات، ومصانع «عنب المائدة»، ونوادي العري، ومؤسسات ربوية، وتنظيمات سياسية مناهضة للإسلام... كان يخيل إلي وهو يحدثني بذلك أنني ألمح في عينيه سؤالا كبيرا، كبيرا : «هل أنتم مسلمون ؟»[41].

---

40) انظر، المختار من شعر علال الفاسي ص 43.

41) انظر، الومضات، النور ع 98 س 8.

هـ ـ شروط المواجهة :

ليس بمقدور المسلمين أن يحققوا لأنفسهم، من خلال المواجهة التي تتم بينهم وبين الغرب، بعثا جديدا لفعلهم الحضاري، مالم يخضعوا هذه المواجهة لشروط، وهي إن كانت تبدو، عند استجلاء واقع المواجه ـ بكسر الجيم ـ والمواجه ـ بفتحها ـ، متعددة، ومتنوعة، غير أنه بوسع الدارس، مع ذلك، حصرها في نوعين إثنين، هما :

1 ـ شروط سلب :

والبدء بها من صميم منهجية المواجهة الحاسمة نفسها، ذلك أن التعرف على النقائص، والآفات، والانحرافات في بنية المتواجهين معا، وعلى كافة المستويات وخاصة المعرفي والمنهجي منها، قمينة بأن تضمن للمواجه، بكسر الجيم، وهو المسلمون، في هذه الحال، حظا من الترشيد النقدي الموضوعي الذي تستطيع به حسم غيرما إشكالية قد تغبش رؤيتها نحو النوع الثاني من الشروط وهي شروط الإيجاب.

ولعل أجدر شروط السلب بالاستبصار، قبل غيرها، ما يتمثله المواجه، بكسر الجيم، في ذاته نفسها، فإن هذا، في تصورنا، مما يسهم في ترشيد المواجهة واستثمارها بالنقد الذاتي المسؤول الذي ينتفي معه الخوف على موازين الموضوعية والتجرد في استبصار الشروط نفسها عند المواجه بفتح الجيم.

إنه فضلا عما يتخبط فيه المسلمون من تخلف علمي وتكنولوجي يشكل أم السلبيات التي تشل تحركهم، وتعوق تقدمهم فإن ما يطبع حياتهم

من سلبيات أخرى يكاد يكون فوق الحصر والعد، على أن التمثيل ببعضها يجزئ، ومن ذلك :

1 ـ سلبية ازدواج الشخصية :

إن الانتماء للإسلام معناه إعلان الولاء لعقدياته ويقينياته التي تمد المنتمي بتصورات متميزة للوجود، والمجتمع، والسياسة، والاقتصاد، والتاريخ وغير ذلك. على أن ما يلفت النظر في المجتمع الإسلامي، حاليا، وجود فئة غير قليلة تنتسب للإسلام، بحكم نشأتها في أسرة مسلمة، بل، أحيانا، لا يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما يتجاوزه إلى دائرة الدأب على ممارسة الشعائر الدينية وأدائها على وجهها المطلوب. وهنا ينتهي أمر الإسلام في حياة هذه الفئة ليفسح المجال لهذه الإيديولوجية أو تلك تمنح الأفراد تصوراتها وتملي عليهم المواقف في الفكر، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، وبهذا وذاك ينشأ هذا الازدواج في الشخصية، يربك، ويعثر في أية محاولة للنهوض والانبعاث الحضاريين، ولعل الشعور بالآثار السيئة لهذا الازدواج على تحديد صيغة فكرية للخروج بالمجتمع الإسلامي من الأزمات الخانقة التي يرتكس فيها كان وراء الدعوة إلى أسلمة الماركسية أو مركسة الإسلام، وهي دعوة لم تعمر طويلا، لأن خداعها لم ينطل على أحد، فأبعد الناس عن النظريات والأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية يدرك أن الخلاف بين الإسلام وبين الإيديولوجيات أيا كان لونها خلاف عقدي بدرجة أول، ومعطياته تنعكس على الواقع وصيرورته.

2 ـ سلبية تضخم «الماضوية» :

ونعني ب «الماضوية» النزوع إلى الماضي نزوع إعجاب بالغ يُشْدَهُ به صاحبه عما حوله من تحديات رهيبة، وإشكاليات عويصة. ولا نحب أن يفهم من هذا الدعوة إلى إسقاط (الماضي) من الحساب في النهوض والإصلاح، فإن مما ينزل، في تصورنا منزلة البدائه أن بين ماضي الشعوب وحاضرها أسبابا لا تنفصم، ووشائج لا تبلى على تطاول الآماد، ومن ثم فإن كثيرا مما يمكن أن يقترح من حلول لما تعانيه أمة ما في فجر صحوتها ونهضتها ليس يجديها إلا بمقدار تلفته نحو ماضيها لاستلهام عقدياته وطروحاته الفكرية في معركة التغيير الآنية[42]. نحن لا نجحد، إذن، الماضي ولا ننكر الفائدة من استحضاره وتمثل إيجابياته في الحاضر، غير أننا نخشى أن يتجاوز الالتفات إلى الماضي أو استحضاره حدوده المنطقية، ويتضخم حتى يتحول إلى ما يشبه أن يكون مخدرا يعزل صاحبه، ولو إلى حين، عن الشعور بالواقع المرزأ، وقد كان لبعض المستشرقين ضلع في تضخيم (الماضوية) عند المسلمين بما كتبوا عن تاريخهم العلمي والحضاري منوهين بفتوحاته، ومشيدين بمنجزاته، وهم، أي المستشرقون، وإن كانوا بهذه الكتابات ينصفون الحقيقة العلمية والحضارية في تاريخ الإسلام إلا أنهم كانوا بذلك ينقلون جمهور قرائهم من المسلمين من مجال المشكلات الحادة القائمة في حاضرهم إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب[43] حيث يشغلون بهذا عن ذاك مما يترتب عنه اتساع الخرف على الرابقع ـ كما يقولون ـ في واقع الأمة الراهن.

---

42) نفسه، النور ع 98، س 6.

43) انظر، مالك بن نبي إنتاج المستشرقين ص 43.

3 ـ سلبية الشعور بالنقص :

إن ما يطبع حياة المسلمين، نتيجة للتحديات التي واجهتهم بها الحضارة الحديثة، من ألوان التبعية والتقليد للأنموذج الغربي في النظر والسلوك يقوم شاهدا على أن المجتمعات الإسلامية عالة على الغرب تستهلك حصاد حضارته على مستوى العلم والتكنولوجيا مثلما (تستهلك) ما انبثق عن هذه الحضارة من مفهومات وأفكار في حياتها السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، واستمرار تلك التبعية وهذا الاستهلاك يعمقان الشعور بالنقص لدى مختلف الفئات بما فيها الفئة الواعية، المتنورة من أبناء الأمة مما يوهم، في الغالب بالعجز عن إنجاز تفاعلات إيجابية مع الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتكنولوجي خاصة ـ والمساهمة في إثرائها وتقويم مسارها بما يلبي أشواق الإنسانية في الحرية، والعدل، والرشد.

4 ـ سلبية «خويصة النفس» :

ونعني بها موقف الهروب المتخاذل الذي يقفه بعض أبناء المسلمين من إشكاليات التحدي والتردي التي تغرق مجتمعاتهم في دوامات تربك النفوس وتقلقها. إنه موقف التهيب من المجابهة يحمل طائفة من أصحابه على الانسحاب من الميدان واللواذ بـ (خويصة النفس) يجترون، في انعزالية كسيحة، مآسي أمتهم وأحزانها، ويحمل أفراد طائفة أخرى على اللواذ بهذه (الخويصة) نفسها، في كنف ملجأ متحضر (يتركون وراءهم شعوبا متخلفة كانت قد أعدتهم ليأخذوا بيدها في طريق التمدين. وهكذا تجد هذه الشعوب

نفسها تزداد تخلفا، فكلما أعدت صفوة من أبنائها لعمليات البناء فقدتهم، فتخسر المال وتخسر الزمان)[44].

5 ـ سلبية المغالاة :

سواء كانت المغالاة في الدين، ونريد به هذا الإسلام، أو كانت في (الحضارة) فهي مثبطة، منفرة، فالأولى تعكس الإسلام، من خلال تصورات أصحابها وتصرفاتهم، عبئا ثقيلا يشل الحركة، ويعوق التقدم، والثانية رافضة كانت أو متشيعة، تسد الطريق على الفكر لاستيعاب الصورة الحقيقية لهذه الحضارة، فيزداد تيها وتخبطا.

هذه بعض النماذج من السلبيات التي قد تختلف من حيث المصدر والمجال ولكنها تتحد في كونها جميعها تنهك طاقات المواجه ـ بسكر الجيم ـ وتستنزف قدراته، نكتفي بهذا القدر منها لنتوجه بالنظر إلى سلبيات المواجه ـ بفتح الجيم ـ.

ينبغي الاعتراف بأن أول ما يسترعى الانتباه في واقع الغرب وجهه الحضاري الذي يحفل بالحياة والحركة، وإذا كان للذين انبهروا بهذا الوجه من زائري الغرب من المسلمين، وفيهم العلماء ورجال الدولة[45]، في القرن الماضي ما يبرر انبهارهم من ظروفهم الذاتية والموضوعية فإننا، بعد سنوات الصدام، بالغرب والاحتكاك به في عقر الدارين، ينبغي ألا يشغلنا هذا الوجه المشرق لواقع الغرب عن النظر في وجهه الآخر الذي لا إشراقة فيه ولا حيوية، ولكن أمارات الانهيار، والإفلاس، والموت.

---

44) انظر، د. حسن سيد دسوقي ثغرة في الطريق المسدود ص 67.

45) انظر، راشد الغنوشي، ما هو الغرب ص 67.

ويخيل إلي أنني مهما اجتهدت في تصوير هذا الوجه فلن يكون هذا التصوير أجدى من «شهادات» أدلى بها مفكرون في حضن الحضارة الغربية نشأوا، ومن لبانها استووا، بعضهم ممن هدي إلى صراط الإسلام، وبعضهم من حق عليه الضلالة.

ومن الطائفة الأولى ننصت إلى رجاء غارودي يحدثنا عن سلبيات الحضارة الغربية في عدة مجالات :

(... فالاقتصاد يسيطر عليه النمو الذي لا يعدو معناه الرغبة الجنونية في زيادة وسرعة الإنتاج، إنتاج أي شيء... نافع، غير نافع، ضار، مميت، لا يهم والسياسة تحكمها علاقات اجتماعية داخلية وخارجية، يسودها العنف المعبر عن صدام المصالح والنزوع إلى السيطرة بين الأفراد، والطبقات، والأمم والثقافة عارية من المعنى والغاية : فالتقنية للتقنية، والعلم للعلم، والفن للفن، والحياة للاشيء، والعقيدة خاوية من التعالي الذي يمثل البعد الإنساني للإنسان...)[46].

وهو يلخص مظاهر السلبية في حضارة الغرب بعد قرون من الهيمنة التي لم يشاركها فيها أحد، فيقول :

(في عام 1982م، مع حوالي 600 مليار دولار من الإنفاق على التسلح وضع ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات على رأس كل ساكن من سكان الكوكبة الأرضية، ووزعت الموارد والثروات بحيث مات في السنة نفسها 50 مليون نسمة في العالم الثالث بالمجاعة وسوء التغذية فمن الصعب أن يسمى

46) انظر، الإسلام وأزمة الغرب ص 15.

«تقدما»، بلا تردد، ذلك الشوط التاريخي الذي قطعته الحضارة الغربية التي جعلت من الممكن فنيا لأول مرة، خلال مليوني سنة أو ثلاثة ملايين سنة من الملحمة البشرية تحطيم كل أثر من آثار الحياة على الأرض)[47].

ومن شهادات هؤلاء الغربيين في سلبيات المجتمع الغربي نسوق شهادة أخرى يدلي بها الدكتور عبد السلام منصور، وهو طبيب نفسي ورئيس جماعة المسلمين الإسبان :

(إن المجتمع الكافر مجتمع (ديني)، ودينه هو دين الإله ـ الصنم ـ الرقي دين الاستهلاك، دين التصميم التكنولوجي، دين العلم.

يوجد مجتمع الكفر في حالة إفلاس... ثقافة منحلة وعلم عاجز عن العثور على هدف ذي مدلول يوجه إليه ما يسمى بالرقي... وكثير من الناس داخل هذا المجتمع يتساءلون عن معنى وجودهم وعن مدلول حيوات مخططة من الميلاد إلى الوفاة، تبليها مراسم العمل ـ الاستهلاك الصارمة ـ المتسلطة)[48].

ومن المفكرين الغربيين الذين استشعروا سلبيات الحضارة التكنولوجية وآثارهم السيئة في الحياة والمجتمع (رينيه دوبو) فقد ضمن كتابه (إنسانية الإنسان) شهادات صريحة بذلك، نقتطف منها :

(كل المجتمعات المتأثرة بمدينة الغرب تتبع «توراة التنمية» كعقيدة، وتدور في دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) وتقول هذه التوراة : «انتجوا... أكثر لكي تستهلكوا أكثر... ثم لكي تنتجوا أكثر»، ولا يحتاج

---

47) نفسه ص 14 ـ 15.

48) انظر، د. عبد السلام منصور، خطبة العيد الأضحى ص 7 (ترجمة د. حسن الوراكلي).

الإنسان لأن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة مجنونة فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا فضلا عن الاستمرار الدائم إلى مالا نهاية)[49].

(والمشاكل التي يثيرها الضبط الاجتماعي للتكنولوجيا هي واحدة في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي، وبغض النظر عن الفلسفة السياسية يجب اكتشاف صيغ جديدة للتخطيط بحيث تكون التكنولوجيا في خدمة حاجات الإنسان القيمة بدل السماح لها بالنمو لذاتها أو كأداة للتوسع الاقتصادي والقومي)[50].

تلك أمثلة من الشهادات بسلبيات الحضارة الغربية لا نستكثر منها لأنها، ونظائرها مما تعرفونه ـ حضرات السادة الأساتذة ـ تدور جميعها حول محور رئيس هو طغيان الوسائل المادية على القيم والمثل الأخلاقية.

2 ـ شروط الإيجاب :

إن شروط الإيجاب كشروط السلب من حيث الحاجة إلى الالتزام بها، وبنفس الحرص والعناية، لتحصين المواجهة وترشيدها.

وقد نستطيع حصر هذه الشروط من خلال نمطين من الوعي تتحتم إثارته بين المسلمين، وهما :

---

49) انظر، الغارة على العالم الإسلامي ص 131.

50) نفسه، ص 137.

1 ـ الوعي بالماضي :

إن حاضر المسلمين، بترديـاتـه وانهيـاراتـه، يكاد يكون مقطوع الصلـه مبتور الوشيجة بماضيهم، ثقافة، وتراثا، وتاريخـا. وإذا كنـا نرى، كما أسلفنـا الإشارة، أن كثيرا مما يمكن أن يقترح من حلول لما تعانيه أمة ما لا يجديها إلا بمقدار تلفته نحو ماضيها واستيعاب عقدياته ومـا انبثق عنهـا من ثقـافـة وفكر، فإن وعي المسلمين بماضيهم من خلال معرفة نقديـة، ملهمـة، تـأتي في طليعـة شروط الإيجـاب في مواجهتهم مـع الغرب، ويمكننـا أن نرصـد هـذا الوعي بالماضي في ثلاثة مستويات، هي :

أ ـ الوعي بثقافة الإسلام :

وهي ثقافـة حضـاريـة لأنهـا تقوم على محور رئيس هو التوحيـد، بمـا جسده في مسار الإنسـانيـة من مثل الحريـة، والعـدل، والمسـاواة، ومن ثم لم تكن، أي ثقافة الإسلام، وما ينبغي أن تكون، ثقافة سكونية، ولأنها كذلك فقـد كان الإسـلام إمكانيـة سيـاسيـة متميزة، وفعـاليـة غـلابـة في التحـدي والمـواجهـة، والاستشراف والتغيير. ومن هـذا وجب الـوعي بهـذه الثقـافـة الحركية التي يلتحم فيها النظر بالسلوك لتوظيـف مقـدراتهـا وفعـاليـاتهـا في تحقيق البعث الحضاري المنشود. وفي هذا الصدد ينبغي التذكير بأن التاريخ لتألقنا الحضاري، وتوهجنا الفكري بدأ يوم بدأنا نصـدر في جميع ممـارسـاتنـا عن هذه الثقافة، وبالمثل فإن التاريخ لفشلنا، وإخفاقنا، وذهاب ريحنا بدأ يوم بدأنا ننبذ وراء ظهورنا مضامين هذه الثقافة وتعاليمها.

ب ـ الوعي بتراث الإسلام :

والتراث، أيا كان لونه وغطه، ذاكرة الأمة، يرتبط تفكير أبنائها وسلوكهم، من حيث يريدون أولا يريدون (بمخزون) تلك الذاكرة، طيبا كان أو خبيثا، مخصبا كان أو مجدبا.

ومهما يكن من اختلاف الرأي في أمر التراث فإن ما يصح في المنطق السوي هو أن الأمم في معترك الصراع الحضاري مدعوة، بإلحاح، لحماية خصائصها ومميزاتها العقدية، والعقلية، والحضارية، وهي لذلك ملزمة بالعودة إلى ذاكرتها، أي إلى تراثها لتتزود منه، شريطة ألا يكون هذا التزود إلا من الأصلح والأنفع، أي من كفايات أبنائها التي رجحت بها موازينها في الماضي. ولن يكون من تراث المسلمين كذلك إلا ما يحرر الإنسان من ربقة التبعية، والخنوع، والتذلل، ويمنح النفوس الأمن والثبات، لا تغل معها الأيدي ولا تعقل الألسنة، بل يقوى في كنفها الإيمان بضرورة تغيير واقع المسلمين الراهن ورفع (وصاية) الغرب عنه.

ج ـ الوعي بتاريخ الإسلام :

ينبغي أن يبدأ هذا الوعي بطرح صيغة إسلامية لمفهوم التاريخ تبصر المسلمين بأن تاريخهم إنما ولد ثمرة صراع بين الاستواء والإكباب، وبين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وما نشك، بعد ذلك، في الفائدة من التوغل في مسارب هذا التاريخ والوقوف عند منعطفاته لإجراء الحفريات، وتحديد

المعالم، واستكناه المعاني، وربما رأى بعض الناس أن الإكباب على التاريخ إنما هو اللواذ بالماضي هروبا من مواجهة تحديات الواقع الشرسة، لكن الصواب يجانبهم في هذا الرأي طالما أن هذا الإكباب الذي نعنيه يتم من خلال منظور علمي، موضوعي، يتوخى الكشف عن الطيب والخبيث، والثابت والمتحول، فينتج، بالتأسيس على ذلك، وعي بهذا التاريخ، يكتشف في ضوئه المسلمون جوانب من ذاتيتهم الحقيقة، وهو يتهم الأصيلة، ويتخذون في ضوئه، أيضا، مواقفهم من الإنسان والعصر، وبهذا يصبح الوعي بالتاريخ، كشرط إيجابي في معركة المواجهة، معادلا للوعي بالحاضر، وهو ما سنتحدث عنه في الفقرة التالية :

2 ـ الوعي بالحاضر :

والمراد الوعي به في بعده العلمي خاصة، سواء في واقع الغرب أو في واقع المسلمين.

أ ـ أما في واقع الغرب فلا أحد ينكر ما أنجزه العلم من فتوحات باهرة في شتى الميادين. وعلى ما اقترن به التقدم العلمي في الغرب من آفات وانحرافات، كما بينا في غير هذا الموضع، فإن سمة العصر تظل هي سمة العلم بمبتكراته ومخترعاته.

ب ـ وأما في واقع المسلمين فإن (العلم) بمعناه التكنولوجي لا يكاد يكون له وجود. وبقاء وضعية (العلم) على هذه الحال في واقع المسلمين يحول بينهم وبين الخروج من دائرة الشعوب التي تستهلك الحضارة ولا تنتجها.

وليس من سبيل للتخلص من ذلك إلا بالإقبال على علم الغرب لاستيعابه وتمثله على مستوييه النظري والتطبيقي على أن يقترن ذلك بالإدراك السليم لرسالة العلم البناءة ودوره الحاسم في إسعاف الإنسان على ممارسة مهمته السامية في تعمير الكون والاستخلاف في الأرض كما أرادت له العناية الإلهية.

تطوان　　　　　　　　　　د. حسن الوراكلي

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم

أسد، محمد

2 ـ الإسلام على مفترق الطرق

ترجمة : د. عمر فروخ

دار العلم للملايين ـ بيروت. ط. 6 (1965م).

برون جفري

3 ـ الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر

ترجمة : عبلة حجاب

منشورات المكتبة الأهلية ـ بيروت (1963م)

ابن عبود، محمد

4 ـ «الاستشراق والنخبة العربية»

فصلة من (المجلة التاريخية المغربية) ع 27 ـ 28 س

9 (ديسمبر 1982م) ـ تونس.

ابن نبي، مالك

5 ـ إنتاج المستشرقين

ـ بيروت

د. البهي، محمد

6 ـ العلمانية وتطبيقها في الإسلام

مجلة (الأمة) ع 1 س 1 ص 38 ـ 42 (محرم 1401 هـ ـ نوفمبر 1980م)

جارودي، رجاء

7 ـ الإسلام وأزمة الغرب

ترجمة : د. رفيق المصري

عالم المعرفة للنشر والتوزيع ـ جدة. ط 1 (1403 هـ ـ 1983م)

د. حسن، سيد دسوقي ود. سفر، محمود محمد

8 ـ ثغرة في الطريق المسدود (دراسة في البعث الحضاري)

دار آفاق الغد ـ القاهرة. ط. 1 (1401 هـ ـ 1981م)

حسون، فيصل

9 ـ التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الإسلامية

(ضمن كتاب «الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم»)

منشورات منظمة «الندوة العالمية للشباب الإسلامي»

المجلد 2. ص 207 ـ 274. ط 1 (1401 هـ ـ 1981م)

د. حسين، محمد محمد

10 ـ الإسلام والحضارة الغربية
دار الإرشاد ـ بيروت، ط 1 (1388 هـ ـ 1969م)
د. خليل، عماد الدين

11 ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم
رقم 4 من سلسلة «كتاب الأمة» قطر، ط 1 (1403 هـ).
زياد، أحمد

12 ـ لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب
دار الكتاب ـ الدار البيضاء. ط. 1 (1973م)
شاتيليه. أ. ل.

13 ـ الغارة على العالم الإسلامي
تعريب : محب الدين الخطيب ومساعد الباقي
عودة، عبد القادر

14 ـ الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه
منشورات «الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية» رقم 6.
الغنوشي، راشد والنيفر مصطفى

15 ـ ما هو الغرب ؟
منشورات المعرفة ـ تونس. مطبعة فائزي
الفاسي، علال

16 ـ ديوان علال الفاسي (ج 1)
تحقيق : عبد العلي الودغيري
منشورات مؤسسة علال الفاسي

17 ـ المختار من شعر علال الفاسي
إعداد : اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال. ط. 1 (1976م)
قاسم، مولود

18 ـ إنية وأصالة
مطبوعات وزارة التعليم الأصلي ـ الجزائر
كنون، عبد الله

19 ـ حوار معه منشور في مجلة (الأمة) ع 26 ـ س 3 ص 52 ـ 59
(صفر 1403 هـ ـ ديسمبر 1982م)
المبارك، محمد

20 ـ الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية
دار الفكر ـ بيروت، ط 2 (1389 هـ ـ 1970م)
د. محمود، علي عبد الحليم

21 ـ الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر
دار البحوث العلمية ـ الكويت. ط. 1 (1399 هـ ـ 1979م)
د. منصور، عبد السلام
22 ـ خطبة عيد الأضحى بقرطبة (1400 هـ)
ترجمة : د. حسن الوراكلي
منشورات صحيفة «النور» ـ تطوان (المغرب)
د. الوراكلي حسن
23 ـ المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي
مكتبة المعارف ـ الرباط. ط 1 (1405 هـ ـ 1985م)
24 ـ الومضات (خواطر في الدين والحياة)
(منشورة بصحيفة (النور) ـ السنوات العشر الأولى ـ (1392 هـ ـ 1402 هـ)

د. ح. و

بَابُ التَّشْبِيهُ

من كتاب

الروض المريع في صناعة البديع

لابن البناء المراكشي(*)

تقديم وتحقيق
رضوان ابن شقرون

تقديم الكتاب :

1 - دوافع تأليفه :

ألف ابن البناء[1] كتاب (الروض المريع) في صناعة البديع والأساليب البلاغية لأنها تعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وتهدي إلى إدراك إعجاز القرآن وتأثيره، وفصاحة الرسول ﷺ وبيانه، فكان هذا القصد البلاغي أساسا في الكتاب وغاية. وقد نظر المؤلف في القرآن الكريم كما

(*) هذا البحث مقتطف من رسالة قدمت إلى كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، بالرباط لنيل دبلوم الدراسات العليا، بعنوان : ابن البناء المراكشي المعروف بالعددي، بحث في عصره وحياته وثقافته، مع تحقيق كتابه «الروض المريع في صناعة البديع».

1) عاش ابن البناء المراكشي المعروف بالعددي أيام دولة بني مرين بين سنة 654 وسنة 721 هـ (1256 - 1321م) واشتهر في الرياضيات والتصوف والفلك وغيرها. ومن أهم مصادر ترجمته أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفد 66، وجذوة الاقتباس لابن القاضي 148/1 ونيل الابتهاج للتنبكتي 65 وسلوة الانفاس للكتاني 52/2 والإعلام للمراكشي 375/1.

نظر فيه البلاغيون الأقدمون، ووقف أمام إعجازه وبلاغته كما وقفوا، وتبين أنه قد «قصرت دون بلاغته وبراعته الفهوم، وانحصرت تحت كلياته وجزئياته جميع العلوم... وعجزت عن تصور كنه عجائبه وضروب غرائبه الأذهان»[2]. فأراد أن يؤلف كتابا تكون «منفعته في زيادة المنة، وفهم الكتاب والسنة»[3]، ووجد أن تقريب الصور البلاغية إلى الأذهان هو السبيل الموصل إلى تلك الغاية، فوضع هذا الكتاب، وصرح في ديباجته بغرضه فقال : «وبعد فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع، ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع تقريبا غير مخل، وتأليفا غير ممل»[4]. وقرره في الخاتمة أيضا فقال : «وبهذا الذي ذكرناه في هذا الكتاب يعرف التفاضل في البلاغة والفصاحة، وهو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله وسنة نبيه وفي المخاطبات كلها»[5].

فالكتاب ألف لغرضين اثنين أساسين :

الأول تبسيط الصور البلاغية وتقريبها إلى الأذهان باختصار ومن غير إخلال.

والثاني استغلال تلك الصور البلاغية في فهم القرآن الكريم والسنة الشريفة، ثم في تذوق أساليب الخطاب المتنوعة.

ولا عجب أن يقصد ابن البناء إلى نفس الغاية التي قصد إليها البلاغيون الأصلاء قبله، وألفوا فيها الكتب النفيسة القيمة. ولم ينهج نهج

---

2) الروض المريع ص 18.
3) المصدر نفسه ص 19.
4) المصدر نفسه ص 19.
5) المصدر نفسه ص 94.

الذين انحرفوا بالبلاغة إلى غاية تعليمية قاعدية محض منذ القرن السابع الهجري، بل حافظ على المقصد الفني الذوقي الأصيل للبلاغة، وهو يصرح بذلك ويؤكده.

غير أنه يتأثر تأثرا كبيرا بالمنهج الفلسفي المنطقي في التفكير والبرهنة والاستدلال، ويعتمد على التطبيق والتوضيح.

ولقد وعى المؤلف (صناعة) البديع و(علم) البيان، وأدرك العلاقة بينهما، فبنى كتابه هذا على أسس تلك (الصناعة) وهذا (العلم). وحاول أن يستقصي كل الصور والأساليب الممكن إدراجها تحتها بما يناسب من المباحث والصور البلاغية والموضوعات المفيدة في تنمية الذوق البلاغي فاستوى له موضوع صناعة البديع «روضا مريعا» تفوح أزاهره بروعة الأداء ووضوح الإشارة وصحة الاستدلال وسلامة الذوق وحسن الاختيار ومناسبة الشاهد. فجاء الكتاب بناء متكامل الأركان متلاحم اللبنات مترابط الأجزاء. وقد تحرى المؤلف فيه الإيجاز والوضوح والدقة، مع الوفاء بجوانب الموضوع المتشعب الذي سبر أغواره بكثرة تقسيماته وتعدد فروعه واختلاف تحليلاته وأسماء أنواعه، وحدد الصور التي سيفرغ فيها موضوعه، ثم التزم بها حسب خطة مرسومة ومنهج واضح.

2 - مضمونه :

لقد بنى المؤلف كتابه (الروض المريع في صناعة البديع) على ديباجة وثلاثة أبواب وخاتمة.

تتضمن الديباجة خطبة الكتاب، ويحدد المؤلف فيها اسم الكتاب وموضوعه وأغراض تأليفة وفوائده.

ويشتمل الباب الأول على مقدمات عامة في البلاغة. وفيه ثلاثة فصول، فصل في الدلالة، وفصل في بيان أقسام الكلام المختلفة التي ستكون موضوع الدراسة في أبواب الكتاب، وفصل في صناعة البديع وعلاقتها بالبلاغة والبيان.

ويتناول الباب الثاني أقسام الكلام من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود. وفيه أربعة فصول، فصل في الخروج من شيء إلى شيء، وفصل في تشبيه شيء بشيء، وفصل في تبديل شيء بشيء، وفصل في تفصيل شيء بشيء.

ويتناول الباب الثالث أقسام الكلام من جهة الدلالة على المعنى. وفيه ثلاثة فصول، فصل في الإيجاز والاختصار، وفصل في الإكثار، وفصل في التكرير.

وكما استهل المؤلف الكتاب بخطبة موجزة ومركزة، ختمه بخاتمة موجزة ومركزة أيضا، تشتمل على نظريات بلاغية ذات أهمية نقدية وفنية وتعليمية بالغة.

ذلك ما يتبين لقارئ الكتاب إن رام تنظيم أبوابه وتحديد فصوله. لكن المؤلف نفسه يفتح الأبواب لمباحثه وفصوله في تعاقب وتساوق، دون أن يضع الفواصل أو العناوين المميزة للأبواب والفصول بعضها عن بعض.

3 ـ منهجة :

يتبع المؤلف في الكتاب منهجا يكاد يكون مطردا في سائر الفصول والأبواب منذ البداية إلى الختام. وهو منهج واضح دقيق لا تسوده فوضى التأليف التي تسود بعض المؤلفات القديمة، ولا يطبعه الجفاف والصلابة في

الفكرة والعبارة ولا الاضطراب في التناول. بل إن الكتاب يسير وفق خطة مرسومة في ذهن المؤلف، أشار إليها بين دفتي الكتاب في التمهيد وعند الخاتمة، فتعاقبت فصوله وأبوابه حسب تلك الخطة متناسبة متسقة.

يسلك المؤلف مسلك الإيجاز والاختصار، من غير أن يخل بالمعنى. وهذا المسلك هو السبيل الذي يشير إليه في المقدمة إذ ينص على أنه يسعى إلى أن يكون تأليفه هذا «تأليفا غير ممل، يصغر جرمه، ويكثر علمه»[6]. وهو سبيل المؤلف في سائر كتبه، وهو المنهج الذي ارتضاه لنفسه ودافع عنه بقوله :

قَصَدْتُ إلى الْوجَازَةِ في كَلامي
لعِلْمي بالصَّوابِ في الإخْتِصارِ
ولَم أحذَرْ فُهوماً دونَ فَهْمي
ولكن خِفتُ إزراءَ الكِبارِ
فَشَأْنُ فُحولَةِ العُلَماءِ شَأْني
وشَأْنُ البَسْطِ تَعليمُ الصِّغارِ[7]

فهو يسوق تعريف المصطلح البلاغي الذي يريد بسطه وتقريبه إلى الأفهام، ويضعه في إطاره الدقيق، ثم يعرض لما يندرج تحته من أنواع، متحدثا عن كل نوع على حدة، موضحا حديثه بالتطبيق وذكر الأمثلة الموضحة وسوق الشواهد الدالة من القرآن والشعر كثيرا، ومن السنة والأقوال

6) الروض المريع 19.

7) التحيص لابن هيدور 7، وجذوة الاقتباس لابن القاضي 152.

المأثورة قليلا، وقد يكتفي عن تحديد النوع أو ذكر القواعد بذكر الشاهد[8].

والشواهد قليلة في الفصول الأولى من الكتاب، لأنها مقدمات عامة تمهد للدراسة، فلذلك نلاحظ أن الكتاب يغلب عليه الجانب النظري في الباب الأول، ثم ما يلبث أن ينغمر في التطبيق والاستشهاد، فتتكاثف الشواهد في الفصول الأساسية منه. ويدل ذلك على ميل المؤلف إلى منهج التوضيح والبيان لبلوغ الأفهام. فبرغم طابع الإيجاز والاختصار الذي يطبع الكتاب كله نجد الشواهد تبلغ فيه ستة ومائتي شاهد، منها سبع وعشرون ومائة آية من الذكر الحكيم، وثمانية أقوال مأثورة، فيها حديث نبوي واحد، ومقولة لأبي بكر الصديق، وأخرى لعمر بن الخطاب، وحوار بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، رضي الله عنهم أجمعين، وفيها مثلان اثنان، وقولتان اثنتان. أما الشواهد الشعرية فعددها أربعة وسبعون بيتا أو شطرا.

ولا ينسب المؤلف شواهد الشعر وأمثلته إلى أصحابها ولم يتخلف عن هذا المنهج سوى في مواضع نادرة جدا. فمرة نص على اسم شاعر فقال : «كقول كثير»، ومرة ذكر اسم شاعر آخر فقال : «كقول أبي تمام». وفيما عدا ذلك يكتفي بمثل قوله : «كما قال الناظم»، أو «كقوله»، وما أشبه هذه العبارات.

والشعراء الذين يستشهد بأشعارهم فيهم تسعة جاهليون، هم الربيع بن ضبع الفزاري والنابغة الذبياني والسموءل بن عادياء وامرؤ القيس الكندي

---

8) استعضنا عن ضرب الأمثلة هنا بالنص الذي نضعه بين يدي القارئ محققا عقب هذا التقديم الوجيز.

والأفوه الأودي وزهير بن أبي سلمى وابن زيابة وقريط بن أنيف وعدي ابن زيد. وفيهم سبعة مخضرمون أو إسلاميون هم الخنساء وأبو الأسود الدؤلي وابن أحمر الباهلي وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلي والعجير السلولي وكثير عزة. وبقية الشعراء من الأعلام العباسيين المشاهير كأبي تمام وابن الرومي والبحتري والمتنبي والمعري، أو ممن هم أقل شهرة كعلي بن محمد الكوفي وأبي القاسم الزاهي والحسن البغدادي.

وهذا الحشد من الشعر والشعراء في الكتاب، على إيجازه وقصره، يدل على معرفة المؤلف الواسعة واطلاعه وتمكنه من الأدب العربي في مختلف حقبه، كما يدل على ميله إلى الاعتداد على الأصيل العريق الجيد من الأدب والشعر.

وهذه الأمثلة والشواهد تقيم التوازن والتكامل في الكتاب بين الجانب النظري والجانب التطبيقي في القواعد النقدية والبلاغية التي يقررها أو يبسطها ويقربها وتلك ميزة من أهم مميزات طريقة ابن البناء، بالمقارنة مع طرق البلاغيين الذين سبقوه أو عاصروه، كالسكاكي والقرطاجني وابن حمزة العلوي. فقد انصب اهتمامهم على الجانب النظري أكثر مما عنوا بسوق الشواهد والأمثلة المناسبة وإن فعلوا أقلوا.

ويتبع المؤلف منهج التقسيم والتفريع بقصد الإيضاح والتفصيل، من غير إغراق في ذكر الأقسام والأنواع والفروع لذاتها. فقد يقتصر على ذكر أنموذج أو أنموذجين من أقسام بعض الأنواع، ويكتفي بها عن سواها. من ذلك حديثه عن القياس في باب الإكثار، وحديثه عن البناء في قسم المواطأة من باب التكرير، وعن الاخترام في باب الحذف، وغير ذلك من الأنواع التي اكتفى عن بعضها بسواها، واقتصر في بعضها على ذكر المثل

دون أن يحدد الأسماء أو يغرق في التعريفات. وهذا هو المنهج الذي دل عليه في خطبة الكتاب حيث بين أن غرضه من تأليفه هو التقريب «من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع، تقريبا غير مخل، وتأليفا غير ممل»[9].

ويتخذ المؤلف المنهج العلمي الدقيق وسيلة لإثبات النظريات وتبليغ المعلومات وتحليل الأنواع، مستفيدا في ذلك من ثقافته الواسعة والعلوم التي تمكن منها كالمنطق والكلام وأصول الفقه. فقد ظهرت معالم هذه الثقافة واضحة في فصول الكتاب، ودل بذلك على الجسور الممتدة في عصره بين مختلف صنوف المعرفة، وعلى رغبته الملحة في الإقناع والاستدلال وإرجاع الأمور إلى أصولها، مع بقائه دوما في دائرة الهدف النقدي البلاغي (البديعي)، وكأنه يريد أن يزاوج بين المنحيين البلاغي والمنطقي في الدرس النقدي البديعي أو في الصناعة البيانية.

ولا يتحفظ المؤلف في استعمال بعض المصطلحات المنطقية والفلسفية، وأساليب المتكلمين والأصوليين والمنطقيين بكثرة ووضوح، كمصطلحات (التقسيم بالقوة والتقسيم بالفعل) و(السبر والتقسيم)، و(المقدم والتالي)، و(الممكن والواجب)... وهو يستعمل من تلك الألفاظ والمصطلحات ما يتناسب مع الغرض البلاغي الذي يعنى به، وما يساعد على تقريب الأقسام والأنواع التي تتفرع إليها تلك الأغراض وزيادة توضيحها.

ويتحرى المؤلف الوضوح في الأسلوب، ويلتزم النقاء في اللغة والقوة في العبارة والتنسيق القائم على وحدة السياق. وعبارته بعيدة عن التكلف والحشو والاضطراب.

---

9) الروض المريع 19.

تلـك هي المميزات التي يتميز بها (الروض المريع)، وذلـك هـو المنهج الذي ينهجـه ابن البنـاء في هـذا الكتـاب. بل هو السبيل الـذي ينصح بـه للقارئ في آخر الكتاب لكي يلتمس حسن اللفظ وصلاحه، فيختـار لعبـارتـه الكلام المستعمل الواضح السهل البعيد عن التكلف والتعسف. يقول : «واعلم أن المحمود في جميع أسـاليب البلاغـة إنما هو مـا لا يظهر فيـه التكلف، ولا يكون مطلوبا بالتعسف، وعليه رونق الفصاحة وطلاوة البديع»[10].

☆ ☆ ☆

إن (الروض المريع) ثمرة من ثمرات فكر ابن البناء ونظرياتـه وآرائـه. وإن فيه لجوانب رحبة مما قرأه المؤلف واستوعبـه وتمكن منـه. وإنـه لصورة للبلاغة العربية في إطارها الفلسفي الذي عرف في المغرب على يـد الثـالوث المبـدع : حـازم القرطـاجني، وابن البنـاء المراكشي، وأبي محمـد السجلمـاسي. فهؤلاء يمثلـون الـوجـه الثـاني للصـورة التي مثـل وجهها الأول اللغـويـون والمتأدبون أمثال ابن رشيق القيرواني، وأبي القـاسم الشريف السبتي، وابن أبي القاسم الثعالبي.

☆ ☆ ☆

وبعـد فهـذه فقرة من أهم فقرات الكتـاب، تحمـل الكثير من تلـك الخصـائص والمميزات التي عرضنـاهـا بـإيجاز فيا تقـدم. والفقرة هي الفصل الثاني من الباب الثاني من الكتاب. فأما الباب فهو (أقسام الكلام من جهـة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود). وأما الفصل فهو (تشبيه شيء بشيء).

رموز النسخ الخطية المحال عليها

ق : النسخة المحفوظة في خزانة القرويين بفاس.

ن : النسخة المحفوظة بالخزانة الناصرية بتامكروت.

خ : النسخة المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

---

10) الروض المريع 94.

يقول ابن البنأ المراكشي :

وأما تشبيه شيء بشيء[11] فإنه كما يشبه الأول الثاني، كذلك يشبه الثاني الأول، فلا بد أن يكون للمشبه به مزيد اعتبار من سبقه أو دوامه أو شرفه أو غير ذلك حتى يكون أولى بالصفة التي وقع التشبيه[12] فيها. وقد يتكافآن في ذلك بأن تكون في أحدهما صفة تقتضي تقديمه على الآخر، وتكون في الآخر صفة تقتضي تقديمه على الأول، فيكون كل واحد منهما راجحا من وجه، مرجوحا من وجه، فيصح عكس التشبيه فيهما[13] بالسوية. وقد يجعل المرجوح بالتخيل الشعري راجحا، وهو من ترجيح المجاز، فيعكس التشبيه لأجل ذلك، كما قال :

فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ شَيءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا
وَفِي الْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا[14]

وإلا فلا يصح في البديع عكس التشبيه.

وكل ما في التشبيه من كذب أو غلو، فلا يكون في الحكمة ويكون في الشعر، لأنه مبني على المحاكاة والتخيل لا على الحقائق، ولذلك اختص الشعر بأنواع ليست من البديع بحسب الحكمة، وهي من البديع بحسب اللسان إذ

---

11) بحث التشبيه في الكتاب 121/1 والحيوان 99/1 والبديع لابن المعتز 121 وحلية المحاضرة 170/1 ومفتاح العلوم 177.

12) ق : الشبه.

13) ق : فيها.

14) البيت للبحتري من قصيدة في مدح المتوكل، مطلعها :

أنا نعمي عند ليلى فرط حبيها ... ولوعة لي أبديها وأخفيها

وهي في ديوانه 1410/4. ورواية البيت فيه :

في حمرة الورد شكل من تلهبها ... وللقضيب نصيب من تثنيها

وهو في الخصائص 302/1 والموازنة 390/2، 106 والصناعتين 307 والمثل السائر 421/1.

الشعر منـه، ولكن ليس للشاعر[15] أن يحـاكي ويتخيـل في الشيء مـا ليس موجودا أصلا، لأنه إذا فعل ذلك لم يكن محاكيا بل يكون مخترعـا، فيتركب الكذب في قوله فتبطل المحاكاة لكذبها وهي موضوع الشعر، ولذلـك اعترض قوله :

فَــــــأمطَرَت لُـــؤلـــــؤاً من نَرجِسٍ وسَقَتْ
وَرْداً وعَضَّت على العُنّـــــاب بـــــــالبَرَدِ[16]

فقيل : الصواب لو قال :

فَـــــــــــأمْطَرت بَرَداً من نَرجسٍ وسَقَت
ورداً وعَضَّت على العُنّـــاب بـــــالـــــدُرَرِ

من حيث أن إمطار اللؤلؤ غير مشاهد[17] ولا معروف، (فهو)[18] قـد حاكى الدمع في انسكابه على خـدهـا بشيء غير موجود ولا معلوم إلا[19] من عنـده اخترعـه من نفســه. ومن النـاس من يرى أن الشعر مـوضـع الكـذب (والإيغال) في المحال، فيجوز ذلك فيه[20] ويجعله من الترشيح. والقول الأول أنسب لصناعة الشعر، [و][21] الثاني أنسب لمعناه.

---

15) ن، خـ : للشعر.

16) البيت للوأواء الدمشقي، أبي الفرج محمد بن أحمد الغساني (ت 370 هـ / 980م) وهو الثـاني من مقطوعة في أربعة أبيات أولها :

قالت وقد فتكت فينا لواحظهـــا ... كم ذا أما لقتيل الحب من قـــود

وهي في ديوانه 84. والبيت في الصناعتين 207 ودلائل الإعجاز 345 والبـديع لابن منقـذ 75 وسر الفصاحة 135

17) ن : مشاهدا.

18) ساقط من ق.

19) ن : لا.

20) هنا نهاية البتر في خـ.

21) زيادة من ق، خـ.

وينبغي أن يكون التشبيه شريفا[22] مما يتكلم به الرؤساء [و][22م] الأشراف لا خسيسا سوقيا عاميا.

والتشبيه على قسمين : بحرف، وبغير حرف. والذي بغير حرف يدخل[23] في تبديل شيء بشيء على ما يأتي ذكره. والذي بالحرف منه مفرد كقول الناظم :

أرى الليـــلَ يَمضي والنُّجـــومُ كأنّهـــا
عُيـــونُ النـــدامَى حين مـــالَتْ إلى الغَمْضِ
وقَـــد لاحَ فَجْرٌ يَغمرُ الجَـــوَّ نُـــورُه
كما انْفَجَرَتْ بـــالمـــاءِ عَين على الأرضِ[24]

ومنه مركب، كقوله :

رأيتُ الحُمَيـــا في الـــزُّجـــاجِ بكَفِّـــه
فشَبَّهْتُهـــا بـــالشَّمسِ، بـــالبَـــدرِ في البَحْرِ[25]

---

22) ق : تشريفا.

22م) زيادة من ق.

23) خـ : ويدخل.

24) البيتان لأبي القاسم الزاهي (ت 352 هـ / 963م). وهما في اليتيمة 250/1.

25) البيت للمتنبي من مقطوعة في ثلاثة أبيات ارتجلها في مدح أبي الحسن ابن إبراهيم، وقد دخل عليه وهو يشرب، أولها :

مرتك ابن إبراهيم صافية الخمر   وهنئتها من شارب مسكر السكر

وهي في شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 288/2. ورواية البيت فيه وفي ن، ق : «في البدر»، ولا يستقيم به التشبيه والمعنى.

وكقوله :

كأنَّ قُلــوبَ الطيرِ رَطبــاً ويــابِســاً
لــدى وَكرِهــا العُنّــابُ والحَشَفُ البــالي[26]

ومنه المناسبة[27]، وهي اشتباه النسب. والنسبة تكون بين شيئين، (فإن كانت[28] النسبة التي[29] بين شيئين)[30] كالنسبة التي بين شيئين آخرين قيل لأربعة الأشياء[31] : متناسبة. قال الله تعالى :[32] ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾[33]. وقال تعالى : ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا**﴾[34] فنسبة الذين حملوا التوراة إلى حملهم أسفارها ثم لم يحملوا ما حملوا من القيام بها كنسبة الحمار إلى حمله أسفارا، فنسبتهم في عدم القيام بما فيها[35] كنسبة الحمار في عدم قيامه (بما)[36] في

---

26) البيت لامرئ القيس الكندي، من لاميته التي مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهي في ديوانه 38. والبيت في الكامل 32/3 والعمدة 262/1 وأسرار البلاغة 168 والإيضاح 367/1.

27) بحث المناسبة في النكت 22 وتحرير التحبير 363 وبديع القرآن 145 ومنهاج البلغاء 14.

28) ق : كان.

29) في خ : «التي تكون بين».

30) زيادة من ق، خ.

31) ق : لأربعة أشياء، خ : أربعة أشياء.

32) ق، خ : عز وجل.

33) سورة الجمعة 5/62.

34) سورة العنكبوت 41/29.

35) ق، خ : بها.

36) ساقطة من خ.

الأسفار لاستوائهم معه في عدم العقل[37] ونسبة الكفار إلى اتخا[ذهم][38] الآلهة كنسبة العنكبوت إلى اتخاذها بيتا.

والأشياء المتناسبة إذا بدلت تبقى متناسبة، فتكون نسبة الأول للثالث[39] كنسبة الثاني[40] للرابع. وكذلك إذا ركبت أو فصلت أو عكست تبقى متناسبة، ولذلك يدخلها الإبدال[41] والحذف على ما يأتي ذكره.

ومتى كانت عدة أشياء وأشياء أخر على عدتها، وكل واحد[42] من هذه على موازاة واحد من هذه، وكلها في غرض واحد، إما تشبيه أو تفسير أو غير ذلك، فهي من المتناسبة. والأشياء الأول مقدّمات، والأشياء الأخر توال، ونسبة كل واحد من المقدمات إلى قرينه[43] من التوالي هي[44] كنسبة جميع المقدّمات إلى جميع التوالي. فيتأتى في العبارة بها أربع[45] صور:

---

37) ق : النمل.

38) زيادة من ق، خـ.

39) ن : للثاني.

40) ن : الثالث.

41) ق : والإبدال.

42) ق : واحدة.

43) ن، ق، خـ : قرينة. والصواب ما أثبتناه.

44) ق : هو.

45) ق، خـ : أربعة.

إحداها[46] أن تـأتي[47] بكل واحـد من المقـدمـات مع قرينـه[48] من التـوالي، كما قـال تعـالى : ﴿**وجعلنـا الليـل لبـاسـا وجعلنـا النهـار معاشا**﴾[49].

الصورة الثانية أن تـأتي بجميع المقـدمـات ثم بجميع التوالي مرتبـة من أولها، كما قال تعالى : ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهـار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**﴾[50]. وكذلـك قولـه تعـالى : ﴿**ومن يرتـدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـالهم في الـدنيـا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالـدون**﴾[51]، هو من هـذه (الصورة)[52] الثانية على رأي مالك بن أنس رحمه الله. وهـاتـان الصورتـان تسميان بالمقابلة[53].

الصورة الثالثة أن تـأتي[54] بجميع المقـدمـات ثم بجميع التوالي مرتبـة من آخرها، وتسمى رد الأعجاز على الصدور[55]، كما قال تعـالى :[56] ﴿**يوم**

---

46) ن : أحدها، ق : أحدهما.
47) خـ : يأتي.
48) خـ : قرينة.
49) سورة النبأ 10/78 ـ 12.
50) سورة القصص 73/28.
51) سورة البقرة 215/2.
52) ساقط من ق.
53) بحث المقابلة في العمدة 15/2 وسر الفصاحة 303 وبديع القرآن 73 وكتاب الفوائد 147.
54) ق، خـ : يأتي.
55) بحث رد الأعجاز على الصدور في البديع لابن المعتز 93 والصناعتين 385 وبـديع القرآن 36 وأنوار التجلي 53.
56) ق، خـ : الله عز وجل.

نبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله، هم فيها خالدون﴾[57].

والصورة الرابعة أن تأتي بجميع المقدمات ثم بجميع التوالي مختلطة غير مرتبة، ويسمى ذلك اللف[58]، كما قال تعالى : **﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب﴾**[59] فنسبة قوله [تعالى] :[60] **﴿متى نصر الله﴾** إلى قوله : **﴿والذين آمنوا﴾**[61] كنسبة قوله : **﴿ألا إن نصر الله قريب﴾** إلى قوله : **﴿حتى يقول الرسول﴾**[62]. فالذين آمنوا (معه)[63] يقولون : «متى نصر الله»، والرسول يقول : «ألا إن نصر الله قريب»، لأن القولين المتباينين يصدران عن[64] مقامين متباينين[65]. وكما قال تعالى : **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء**

---

(57) سورة آل عمران 106/3.

(58) بحث اللف في الصناعتين 267 وسر الفصاحة 188 وحسن التوسل 245 والمنزع البديع 350.

(59) سورة البقرة 212/2.

(60) زيادة من ق، خـ :

(61) زاد في ق : «معه».

(62) زاد في خـ قوله تعالى : **﴿والذين آمنوا﴾**.

(63) ساقط من ق، خـ.

(64) خـ : من.

(65) في الصاحبي 409 : «قالوا : لما لم يصلح أن يقول الرسول : متى نصر الله ؟ كان التأويل : وزلزلوا حتى قال المومنون : متى نصر الله ؟ فقال الرسول : ألا إن نصر الله قريب. ردكل كلام إلى من صلح أن يكون له».

فتطردهم فتكون من الظالمين﴾[66]. فنسبة قوله [تعالى] :[67] **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾** إلى (قوله) :[68] **﴿فتكون من الظالمين﴾**، كنسبة قوله [تعالى] : **﴿ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء﴾** إلى قوله : **﴿فتطردهم﴾**، فجمع المقدمين وجمع التاليين بالالتفاف[69].

وقد تقع المناسبة (بين)[70] الأضداد، يقصد بذلك المقاومة والمغالبة[71]، ويسمى المكافأة[72]، كقول الناظم :

إذا أَيْقَظَتْكَ حُروبَ الْعِدا   فنبِّهْ لهـا عُمَراً ثُمَّ نَمْ[73]

فالنوم يضاد اليقظة، وانتباه عمر للحروب يضادها، ونسبة[74] حروب العدا إلى زوالها بعمر، كنسبة يقظته إلى زوالها بنومه، كأن الناظم

---

66) سورة الأنعام 52/6.

67) زيادة من ق، خ.

68) ساقط من ق، خ.

69) ق، خ : بالإلتفات.

70) ساقط من ق.

71) ن، خ : المغالبة والمقاومة.

72) بحث المكافأة في نقد الشعر 29 والصناعتين 316 والتبيان للزملكاني 170 وتحرير التحبير 113.

73) البيت من قصيدة لبشار بن برد، يقول محقق ديوانه إن مطلعها قد فات الجامعين والشارحين الأقدمين، وهي تبتدئ عنده بقوله :

ونبئت قوما بهم جنـة   يقولون من ذا وكنت العلم

والقصيدة في مدح الأمير عمر بن العلاء أحدقوا د الفتوح في العصر العباسي الأول. وهي في ديوان بشار 160/4. والبيت في الشعر والشعراء 645/2 والأغاني 193/3 والموشح 246 وجوهر الكنز 90.

74) ن : نسب.

قال : إذا أيقظتك حروب العدا فأزل[75] الحرب[76] بعمر، وأزل إيقاظها بالنوم. فكما تعود الحرب[77] إلى الهدنة والسلم، كذلك يعود من يقظته إلى النوم. وظاهر من قوله : «حروب العدا» و«نبه لها عمرا» أن ههنا[78] أيضا أربعة أشياء متناسبة : العدا، وحروبها، وعمر، وفعله. فعمر في مقابلة العدا، وفعله في مقابلة الحروب. فنسبة حروب العدا إلى العدا كنسبة فعل عمر إلى عمر. حذف الوسطان اختصارا، وذكر الطرفان وهما حروب العدا وعمر، على ما يأتي بيانه في الحذف بعد هذا، فقد صار في هذا[79] البيت ثلاثة أشياء [وهي] :[80] الحروب، والعدا، والإيقاظ. في مقابلة ثلاثة أشياء وهي : فعل عمر، وعمر، والنوم. وكلها في نسبة التكافؤ والتضاد[81] والثلاثة التوالي تدفع الثلاثة المقدمات.

ولابد في ترتيب المتناسبة[82] من مشاكلة النظم، كما جعل امرؤ القيس الشجاعة مع الكرم لأنها مصاحبان في الوجود، وقرن بين مركوبين للذة : الجواد في الصيد، والكاعب ذات الخلخال في المتعة، وذلك في قوله :

كأنّيَ لَم أركَبْ جَواداً للَذّةٍ ... ولم أتَبَطّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولَمْ أسْبَأِ الزّقَّ الرّوِيَّ ولم أقُلْ ... لِخَيْلِي كُرّي كَرَّةً بَعدَ إجفالِ[83]

75) ق : فإن.
76) خـ : النوم.
77) ن : الحروب.
78) ن : هنا.
79) ن : هذه.
80) زيادة من خـ.
81) ن : أو التضاد.
82) ق : المناسبة.
83) البيتان من لاميته التي مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهي في ديوانه 38. والبيتان في الموشح 34 والعمدة 258/1 والبديع لابن منقذ 148 ورفع الحجب المستورة 41/2.

ولو بدل عجز[84] كل بيت منها بعجز الآخر لا ختلت المشاكلة وفسد نظام المتناسبة. وكذلك قول الله (تعالى) :[85] ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾[86]، قرن بين الجوع والعري وجعل سلبهما مضافا لآدم، وقرن بين الظمأ والضحى ووصفه بسلبهما عنه، ومتى كان السلب صفة فهو غير بسيط، بل يراد به إثبات ما يناقضه. فتكون العبارة عن [87] أحد النقيضين بسلب[88] الآخر، لأنهما لا يرتفعان معا، فالذي لآدم حق لا يجوع ولا يعرى هو نعيم المأكولات ونعيم الملبوسات[89]، والذي وصف به (هو)[90] اعتدال كيفياته فلا ينحرف إلى سبب العطش والضحى، فهو في ذاته معتدل الكيفيات لاتضاد فيه[91] ومنعم لا يتغير. واقتران[92] الجوع مع الظمأ متنافر في الوجود، ألا ترى أن الظمأ إنما يصيب الشبعان أو من به الضحى،وأما الجائع [فلا][93]. فلا يجمع في المتناسبة[94] بين المتنافرين لأنهما بمنزلة الأول والرابع والثاني والثالث اللذين لا تناسب بينهما. ومتى جاء الجمع بين ضدين فلمعنى آخر لقصد

---

84) ق : عجوز. خـ : كل عجز.

85) ساقط من ق.

86) سورة طه 117/20.

87) خـ : على.

88) خـ : سلب.

89) خـ : المسلوبات.

90) ساقط من خـ.

91) ن : فيها.

92) ن : واقترن.

93) زيادة من خـ.

94) خـ : المناسبة.

البيان، فإن بضدها تتبين الأشياء، وهو المسمى طباقا[95]، ولما تجد[96] النفس في ذكرهما مجموعين من اللذة، لأن اللذة في التقاء الضدّين. ألا ترى أن من أصابه العطش فإن الري لما كان ضده كان إذا شرب الماء وجد له لذة لملاقاة العطش الري، ثم لا يزال الري يستحكم والعطش يضمحل إلى كال الري وذهاب العطش، فيكف عن الشرب. وإنما كانت اللذة أعظم ما كانت عند الالتقاء،ثم لم تلبث أن أخذت[97] تضعف قليلا [قليلا][98] حتى يبلغ الري، فتخلص[99] لذته وتنقضي ولو تمادى في الشرب بعد ذلك لانقلبت اللذة ألما. فوضع اللذة موضع الالتقاء من الضدين، فتمثل[100] النفس ذلك في القول، والاعتدال[101] في اجتماعهما، فتستطيبه.

فالطباق جمع متنافرين، والمتناسبة[102] جمع متلائمين. والتلاؤم[103] قد يكون بين الشيء[104] وشبهه كالشمس والقمر، وكالسيف والرمح، وكالضرب[105] والطعن. وقد يكون بين الشيء وما يستعمل (معه)[106]

95) بحث الطباق في حلية المحاضرة 142/1 والعمدة 5/2 وسر الفصاحة 233 والبديع لابن منقذ 193.

96) ن : ولماخذ.

97) ن : أخرت.

98) زيادة من خـ.

99) خـ : فتتخلص.

100) ق، خـ : فتتثل.

101) ق : أو الاعتدال.

102) خـ : والمناسبة.

103) بحث التلاؤم في النكت 87، 166 وإعجاز القرآن للباقلاني 269 وبديع القرآن 145 والمنزع البديع 517.

104) خ : شيئين.

105) ق، خـ : والضرب.

106) ساقط من خـ.

كالقلم والدواة والقرطاس، وكالسهم والقوس. وقد يكون بين الشيء وما يشاكله في اعتبار التناسب كالقلب والملك، وكالنجوم[107] والأزهار وقد يؤتى بذكر الضدين على أن أحدهما الآخر، ويكون الغرض بذلك نفي المبدل لا إثباته، كقوله :

وِصَـــالُكُمُ هَجْرٌ وحُبُّكُمُ قِلى[108] . . . .

معنــاه : لا وصل لكم إلا الهجر، ولا حب [لكم][109] إلا القلى. وقد يكون على المبالغة، كأنه قال : إذا كان وصالكم[110] كالهجر، فكيف يكون هجركم ؟ يكون كالموت ! وحاصله على كل تقدير نفي الوصل ونفي[111] الحب، عبر عن ذلك بالإبدال. فإثبات الوصل نفي، كما قال :

عَلى لاَحبٍ لا يُهتَدَى بِمَنَارِه[112] . . . .

وهو من أنواع الخروج من شيء إلى شيء كما تقدم.

البيضاء : رضوان بنشقرون

---

107) ن : والنجوم.

108) الشطر صدر بيت للعباس بن الأحنف (ت 192 هـ / 808م). وتمام البيت :

.... وعطفكم صد وسلمكم حـــرب

وهو في ديوانه 19 وفق الأغاني 144/10 وزهر الآداب 169/4 والمثل السائر 443.

109) زيادة من خـ

110) ن : وصلكم.

111) ن : وبقي.

112) الشطر صدر بيت لامرئ القيس الكندي، من رائيته التي مطلعها :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطنْ قو فعرعرا

وتمام البيت :

.... إذا سافه العود النباطي جرجرا

والقصيدة في ديوانه 66. والبيت في حلية المحاضرة 18/2 والعمدة 80/2 وقراضة الذهب 29.

البحث عن عوالم جديدة

لمن منحت جائزة نوبل، ولماذا ؟

بأقلام جماعة من الكتاب
ترجمة: أحمد عبد السلام البقالي

جائزة نوبل للسلام

فخور وخرين :

كانت تحية مجاملة بسيطة، ولكنها غيرت حياة الشاب. ذات يوم في مدينة صفيح يسكنها السود قرب (جوهانزبورغ) (بجنوب إفريقيا)، رأى المدرس بالمدرسة الابتدائية (دِيزْمُونْدْ مْبِيلُو تُوتُو) رجلاً أبيض يرفع قبعته احتراما لامرأة سوداء. لم يكن (توتو) قد رأى أبداً رجلاً أبيض يقوم بمثل تلك الالتفاتة. كانت تلك المرأة هي أم (توتو)، والرجل الأبيض هو القس (تريڤور هادلِسُون) الذي يحمل اليوم لقب البيشوب الانجليكاني. وإثر ذلك أصبح القَسُّ صديقاً للشاب الأسود. وبعد أن دخل (توتو) المستشفى للعلاج من داء السُّلّ، سنة 1953، ظل (هادلسون) يزوره يومياً، ولمدة عشرين شهراً. ترك ذلك انطباعاً قوياً على (توتو) مما جعله يتبع صديقه الأبيض

إلى الرهبنة. فصعد بسرعة في سلم الكنيسة الانجليكانية في (جنوب إفريقيا) إلى أن أصبح يتمتع بلقب (بيشوب ليسوتو)(*) سنة 1976. وخلال ذلك أصبح (توتو) صوتاً قيادياً في المعركة ضد التميز العنصري (الأپرثايد). وأهلته شجاعته العلنية، وطبيعة رسالته السلمية، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، لنيل جائزة (نوبل) للسلام لسنة 1984. وقد صرح (توتو)، في (جوهانز بورغ)، عقب سماعه للخبر : «يحس الواحد بالضآلة وبالاعتزاز والابتهاج، ويحسُّ كذلك بالحزن، ومن أعظم ما يحزنني أن هناك عددا كبيرا في هذا البلد من الذين لا يشاركون في الاحتفال بحدث هو شرف لهذا البلد».

ويمكن أن يقال عن (توتو) أنه «النبي الذي لا كرامة له في قومه». فقد صادرت حكومة (جنوب إفريقيا) جواز سفره سنة 1981، وهو الآن يحتاج إلى إذن خاص للقيام بأسفاره الكثيرة لإلقاء محاضراته خارج البلد. وقد قامت حكومة (جنوب إفريقيا) المنتخبة من طرف ثمانية عشر في المائة فقط من سكان البلد، والذين هم الأقلية البيضاء، بالبحث في أنشطة (هيأة كنائس جنوب إفريقيا) المتحررة، والتي تقدر عضويتها بثلاثة عشر مليون نسمة، والتي يترأسها (توتو) منذ 1978. وقد انتهى ذلك التفتيش بشجب علني اتُّهم فيه الواعظ النشيط، وهيأة الكنائس «بخوض حرب نفسانية ضروس» ضد الحكومة، وبالتعاطف مع جماعات التحرير الخارجة على القانون أو المحظورة، مثل (المؤتمر الوطني الإفريقي) الموجود في (زامبيا)...

(*) مملكة محاطة بأراضي (جنوب إفريقيا).

ويسير (توتو) في بلده الذي مزقته العنصرية فوق حبل مشدود محفوف بالأخطار. فبالرغم من أن عدداً من أعضاء المجتمع البيض يعتبرونه متطرفاً خطيراً، فإن المناضلين السود يعتبرونه معتدلاً جداً. ويقول (توتو) الذي يرفض ما تنعته به الحكومة، ويسمي نفسه «باللاقَبَلي». ويواجه مصاعب جمة في مناشدته لمن يخاطبهم من الشباب الأسود بأن يعملوا على الوفاق بين الجنسين، وعلى التغيير السلمي. ورغم أن (توتو) لا ينادي بالعنف، فإنه ينذر باستمرار بقرب وقوع «حمام دم» إذا لم يقتسم البيض السلطة مع الأغلبية السوداء. ويقول (توتو) : إن بيض (جنوب إفريقيا) يفخرون بحمل أجدادهم للسلاح، ولكنهم يصبحون فجأة من دعاة السلام حينما يتعلق الأمر بتحرير السود. إن السود لا يعتقدون أنهم يدخلون العنف على الوضع، أنهم يعتقدون أن الوضع أصبح عنيفاً بالفعل !».

ورغم أن اثنين من أطفاله الأربعة يعيشون في (الولايات المتحدة) فإن (توتو) يشعر بمرارة تجاه ذلك البلد، وسياسة «رفع اليد» التي تنهجها حيال (جنوب إفريقيا). وينادي الزعيم الأسود باستعمال الضغط السياسي والدبلوماسي والاقتصادي على الخصوص لإرغام البيض على التفاوض لاقتسام السلطة مع السود. ولكن القس لم يناد علانية قط بالحصار الاقتصادي أو بإيقاف الاستثمارات، الشيء الذي نادت به (الهيأة الوطنية الإفريقية) في الأسبوع الفارط، كرد مناسب على فوز (توتو) بالجائزة. ورغم ذلك (فتوتو) يصرح : «إنني أجد ما رأيته من الرأسمالية، ونظام الاقتصاد الحر، من الوجهة الأخلاقية، يثير الغثيان».

ولد (توتو) في (الترانسفال) الغربي، واضطر إلى ترك أحلامه في إتمام دراسته بكلية الطب حينما عجز والده، الذي كان معلما، عن دفع مصاريف

دراسته، وبعد سنواته الدراسية، وتدريبه اللاهوتي، ودخوله الكهنوت سنة 1960، واجتيازه دراسته العليا (بأنجلتر)، أصبح مدرسا للاهوت في (ليسوتو) وهي دولة مستقلة محاطة بأراضي (جنوب إفريقيا). وعاد إلى (أنجلترا) ليدير قسم المنح (بهيأة الكنائس العالمية)، وأصبح أول عميد أنجليكاني أسود (بجنوب إفريقيا) سنة 1975. وقد رفض بشدة أن يقيم بمنزل العمادة بضاحية (جوهانسبورغ) الأنيقة، وذهب ليعيش مع الجماهير السوداء بمدينة (سويتو).

وقد طار القس الذي حصل على تفرغ ليدرّس (بمدرسة اللاهوت العامة) بمدينة (نيويورك)، إلى بلده صحبة زوجته (ليا)، في الأُسبوع الماضي، ليحتفل بجائزة السلام مع أصدقائه. وقال إنه سيهب مبلغ الجائزة المقدر بِـ 195.000 دولار، لصندوق المنح الخاص بالشباب الأفارقة السود.

وقد كان رد فعل الكثيرين من سكان (جنوب إفريقيا) البيض لنبإ حصول (توتو) على الجائزة، التذمر أو اللامبالاة. واشتكت الجريدة اليومية الأفريكانية (بيلد) من أن «انفجارات» (توتو) «تجعله غير مؤهل للحصول على الجائزة» وكل ما صدر عن مكتب رئيس الدولة (ب.و.بوتا) هو : «لاتعليق» ولكن في (أديس أبابا) صرحت (منظمة الوحدة الإفريقية) بأن الجائزة هي : «تذكير مستعجل لسلطات (بريطوريا) العنصرية بأن نظامها اللاَّ إنساني قد أوشك على الزوال».

وقد اصبح (توتو) واحداً من هيأة متميزة من المدافعين عن حقوق الإنسان الذين قوبلوا من طرف حكوماتهم بالإهمال في السنوات الأخيرة، بعد فوزهم بجوائز (نوبل) للسلام، بما فيهم (أندري ساخاروف) من (الاتحاد

السوفياتي)، و(أدولفو بيريس إسكيڤال) الأرجنتيني، قبل عودة الديموقراطية إلى بلاده، و(ليخ ڤاليسا) من (بولونيا). وخلافا (لساخاروف) و(ڤاليسا)، فإن من المتوقع أن يتسلم (توتو) جائزته بنفسه في (النرويج) يوم عاشر سبتمبر.

بقلم : بيترهوتورن (جوهانزبورغ)

عن : ريتشارد ن. أوستيليغ

في الفيزياء

سادة البوزون.

كان (كارلو روبيا) في سيارة أجرة (بميلانو) في طريقه إلى مطار (ليناتي)، في الأسبوع الماضي، قلقا من احتمال إضراب مراقبي الملاحة الجوية الإيطاليين. وفجأة توقفت موسيقى (الپوپ) التي كان يذيعها راديو سيارة الأجرة، لإذاعة نشرة أخبار فحواها أن (روبيا) و (سايمون ڤان دير مير)، زميله بمؤسسة (سيرن) (مركب البحث النووي الأوروبي الضخم)، قد منحا جائزة (نوبل) في الفيزياء بالمشاركة. وفي البداية لم يصدق سائق سيارة الأجرة ادعاء زبونه المتحمس أنه هو المعني بالخبر. ويقول (روبيا) :

«ولكن حين اقنعته حملني مجاناً».

كان من الملائم أن يعلم (روبيا)، البالغ من العمر 50 سنة، عن الجائزة وهو مسافر، فهو معروف بين أصدقائه بـ «عالم أليطاليا» ـ شركة الطيران

الإيطالية ـ وهو يطير باستمرار من (سيرن)، الواقعة خارج (جينيف)، حيث يمارس أبحاثه، إلى (جامعة هارفارد) في مدينة (كامبريدج بماساتشوسيتس بالولايات المتحدة)، حيث يدرس الفيزياء. فطاقته الجبارة، وبحثه العنيد عن الأفكار أديا به إلى اكتشاف ثلاثة جسيمات جوهرية أصغر حجما من الذرة، بعد عشرين سنة من المطاردة اشترك فيها مئات العلماء.

والاكتشاف الذي توصل إليه (روبيا) يمثل قفزة عظيمة إلى الأمام في محاولة العلم إثبات ما يدعى «بنظرية الحقل الموحد UNIFIED FIELD THEORY التي سترابط أربعاً من قوى الطبيعة في مجمع واحد وأنيق من المعادلات. فإثنتان من هذه القوى معروفتان، وهما : المغناطيس الكهربائي، الذي يشعل المصابيح، ويجعل الملابس تلتصق بالأجسام، والجاذبية التي تبقي الناس على الأرض، وتحدد مدار الأرض حول الشمس. والأخريان أكثر تعقيدا، وهما : ما يدعى بالقوة الشديدة التي تجعل الجسيمات تتماسك داخل النواة، والقوة الضعيفة التي تتحكم في الفساد الذي يسببه الإشعاع.

ويعتقد العلماء أن القوى الأربع هي مظهر لقوة عظمى أساسية واحدة تفرقت في أشكال مختلفة بعد ميلاد الكون. وبعض علماء الفيزياء يعتقدون أن المغناطيس الكهربائي والقوة الضعيفة، مثلاً، قد يمكن جمعها، ولكن نظريتهم المعقدة تتطلب ثلاثة جسيمات ثقيلة للغاية لا تمام تضاريس القوة الضعيفة، وهي (بوزون «و» (W) الموجب) و(بوزون (W) السالب) و(بوزون «ز» Z).

وقد قرر (روبيا) مطاردتها.

وفي حلبة البروتون[1] SYNCHROTRON التي تبلغ مسافتها أربعة أميال، وتكلف بناؤها 400 مليون دولار بمؤسسة (سيرن)، ابتكر (روبيا) طريقة لإثارة اصطدمات هائلة بين جزيئات تحت النووية تنبأ بأنها ستنتج حاملات القوة الضعيفة.

وفي البداية لم يصدق أحد اقتراحه، وخاصة وأنه يتطلب تحويل الحلبة إلى متصادم - بفتح الدال - للجزيئات سيكلف 55 مليون دولار. ومع ذلك، فقد كان لـ (روبيا) مؤيد متحمس هو (سايمن ڤان دير مير) من كبار مهندسي (سيرن)، وهو الذي صمم اختراعا ضروريا لتدليل الأشعة الموجهة BEAMS المتصادمة في تجربة (روبيا). وفي سنة 1979 أذنت (سيرن) لـ (روبيا) و(ڤان دير مير) بالبدء في مشروعهما، وفي سنة 1983 عثرا على الجزيئات.

ومن المؤكد أن (روبيا) المحب للظهور والمولود في (غوريزيا - بإيطاليا) سوف يتمتع بنصفه من الجائزة المقدرة بـ 195.000 دولار. فهو يمتلك يختا وله شهية طيبة للطعام الإيطالي، وهو يتضايق من العقول التي هي دون عقله، كما أنه قلق فكريا : وتتراوح مشاريعه الحالية ما بين مطاردة الاحتكار المغناطيسي MAGNETIC MONOPOLE، وهو جزيء محير آخر، وبين البحث عن مضادّ المادة أو نقيضها ANTIMATTER[2].

---

1) SYNCHROTRON جهاز يعطي سرعة عالية للجزيئات المشحونة - مثل الإليكترون والنيوترون - عن طريق مزيج من حقل كهربائي سريع التواتر، كما هو الحال في «السايكلوترون» وحقل مغناطيسي بطيء التواتر، مثل «البيتاترون».

2) ANTIMATTER : نقيض المادة : هو شكل من المادة تكون شحناته الكهربائية، أو أية خاصية أخرى للجزيئات المكونة لها، عكس تلك التي توجد عادة في المادة.

أما (ڤان دير مير) المولود (بهولاندة) والبالغ من العمر 58 سنة، والذي عمل مع شركة (فيليبس للإليكترونات) كعالم باحث، فهو عكس (روبيا) تماماً. فهو منطوٍ وهادئ : وفوزه بجائزة (نوبل) لم يثر حماسه بشكل ظاهر، رغم أنه صرح برغبته فيها. فهو يقول : «لنقل إنني لم أسقطها من حسابي، ولكني لم أجرؤ على أن آمل أن نحصل عليها».

بقلم : ناتالي أنجيي

عن - روبيرت كرون

في الكيمياء
نموذج (ت T)

في مصعد مبني (فليكسنر) بجامعة (روكفيلر) في (نيويورك) علقت لافتة مخططة باليد تعلن بفخر : «هنا ولدت نظرية المراحل الثابتة لتصنيع البيبتيد» PEPTIDE SYNTHESIS SOLID – PHASE فمنذ خمس وعشرين سنة كان العالم البيوكيميائي (بروس ميريفيلد MERRIFIELD) صاعدا إلى الدور الرابع مع زميل له حين اقترح طريقة جديدة لتكوين البروتين، المكون الأساسي للحياة. وفي الأسبوع الماضي خرج (ميريفيلد) البالغ من العمر ثلاثا وستين سنة، من نفس المصعد ليجد في استقباله أحد عمال المختبر فاتحاً ذراعيه ليعانقه ويخبره بأنه فاز بجائزة (نوبل) للكيمياء عن تلك النظرية. وبذلك أصبح (ميريفيلد) الأميريكي الوحيد الحاصل على جائزة (نوبل) في سنة 1984.

ومثـل (هنري فـورد)، اشتهر (ميريفيلـد) بـأليـنـة إجراء معقـد، AUTOMATING، فالبروتينات التي تتكون داخل خلايا حيـة تصنع من سلاسل طويلة من الاحماض الأمينيـة الموصولـة كياويـا تجتمع في وحـدات تعرف بالپيپتـايـد PEPTIDE. ولفهم عـدد كبير من التطورات البيولوجيـة لابدأن يكون العلماءقـادرين علىتتبع ترتيب الحوامض الأمينيـة في پروتين مـا. لابد أن يعرفوا كيف يقلدوا الترتيب من أجل استعمال مكـونـاتـه في البحث. وقبل أن يطور (ميريفيلد) تقنيتـه، كان على علماء البيولوجيا أن يقوموا بعمليات عديدة دقيقة ومرهقة للتصفية كانت تكلفهم شهوراً، وأحياناً سنوات لصنع سلسلة (پيپتايد) PEPTIDE واحدة.

وقد حدد (ميريفيلد) طريقته البسيطـة في وعـاء مخبري واحـد. وضع حبة ميكروسكوبيـة من البوليسترين داخل قنينـة مخبريـة لتعمل كأسـاس ثابت خامل. وبدأ يضيف وحدات من الحـامض الأميني التي بـدأت ترتبـط ببعضهـا حسب الترتيب المطلوب. وكان يغسل السلسلة وهي تنمو في محلول مطهر بعد إضافة كل مادة كياوية تفادياً لقيام الحـاجـة إلى نزع أي طرف لتصفيته من جديد، كما كان الأمر بالنسبة للطرق السابقة. وحينما كان يتم تكوين البروتين، كان يستعمل الحامض لإخراجه من الحبـة. ورغم أن الآلـة التي اخترعها (ميريفيلد) في البداية كانت عبارة عن أسطوانة معدنية مرصعة بأوتـاد كانت لهـا لمسـة من (ريوب غولـد بيرغ RUBE GOLDBERZ) فقـد قـامت بنفس الـدور الـذي قـامت بـه سيـارة (فورد) الأولى من نـوع «ت» (MODEL T.)(□).

3) PEPTIDE پيپتايد : أي مجموعة من الأحماض لحامض ما مع مجموع (الكاربوكسيل) لحامض آخر.

□) أول سيارة صنعها (هنري فورد) بطريقة سلسلة الإنتاج.

وقد تطور نموذج (ميريفيلد) البدائي الأول إلى نماذج راقية مضبوطة بالكمبيوتر. وتصنع تقنيته الآن أنواعاً معقدة من الببتايد PEPTIDES مثل (ريبونيوكليس)(O) وهو (أنزيم) جرثوم ضروري للخلايا تستعمله لفك شفرة المعلومات الوراثية داخل (DNA د.ن.ا). وقد تستغله الشركات الصيدلية لتركيب أدوية جديدة بما في ذلك اللقاح وأدوية مرض السكر والقلب.

و(ميريفيلد)، وهو رجل هادي من ولاية (تكساس)، تخرج من جامعة (لوس انجيليس) بكاليفورنيا، وهو الفائز التاسع عشر بجائزة (نوبل) والمنتمي إلى إحدى مؤسسات (روكفيلر). وهو أب لستة أطفال، وكان قائدا لجماعة من الكشاف مدة من الزمن. وحينما لا يكون في المختبر يقضي وقته منشغلاً ببعض الأعمال حول منزله في (غريسكيل) بـ (نيوجيزري). وهو يقول : «أستطيع أن أقضي بقية حياتي أكنس أوراق الشجر».

بقلم : كنيت و. بانتا

عن : ناتالي أنجيي

في الطب :
الصواريخ الموجهة

كانت الرسالة المكتوبة في ثلاث صفحات مدفونة عميقاً في عدد 7 أغسطس 1975 من مجلة (الطبيعة). كانت تصف طريقة لإنتاج عدد هائل

(O) RIBONUCLEASE.

وصاف جداً ودقيق جداً من المضادات الحيوية، التي هي بمثابة الصواريخ الموجهة في محاربة الأمراض بالنسبة لجهاز المناعة. ويقول كاتبا الرسالة : (سيزار ميلستاين) و(جورج كوهلر) من مختبر هيأة البحث الطبي (بكامبريدج) (بانجلترا) أن «تلك التقنية يمكن أن تكون مفيدة في الطب والصناعة». رغم أن (ميلستاين) أبدى قلقه من أن يكون ادعاؤهما يتسم «بقلة التواضع».

وبعد تسع سنوات اتضح أن تلك النبوءة كانت قاصرة عن التعبير عن عظمة الكشف. فالمضادات الحيوية ذات النسخ البيولوجية المفردة MONOCLONAL. قد أحدثت ثورة في البحث البيولوجي الطبي، وبدأت تصبح أسلحة مهمة في علاج وتشخيص الأمراض. لذلك لم يفاجأ الوسط العلمي في الأسبوع الماضي حين منحت جائزة نوبل لـ 1984 للعالم الأرجنتيني المولد (ميلستاين)، البالغ من العمر 57 سنة، والألماني الغربي (كوهلر)، 38 سنة، والموجود حالياً بـ (معهد المناعة) في مدينة (بازل) بـ (سويسرة). وقد اقتسما الجائزة مع (نيلزجيرن)، 72 سنة، مؤسس ومدير معهد (بازل)، وأحد رواد المفكرين في حقل المناعة.

ويتعلق كشف (ميلستاين) و(كوهلر) بحقن خلية ورم بخلية تلد مضاداً حيوياً معيناً. وبذلك استطاعا تطوير مولد HYBRID لا يكتفي بصنع المضادات الحيوية فقط، بل ويتكاثر بنفس سرعة الخلية السرطانية. وقد عملت الخلية المستنبتة كمصنع دقيق لصنع المضادات الحيوية المطلوبة. وبما أن كل خلية في المادة المستنبتة هي سليل طبق الأصل، أو نسخة (CLONE)، من المولد الأصلي، فإن المضاد الحيوي يكون صافيا، وبالتالي فهو جهاز دقيق. يقول (ميلستاين) : «إنه يسمح لك بالتميز بين جزيء

MOLECULE وآخر». وتتجه المضادات المفردة ـ النسخ إلى أهدافها التي تتراوح بين خلية خبيثة، وجرثوم ملاريا طفيلي، أو مبنى معين داخل الدماغ. وبالفعل ظهرت علامات نفعها في علاج (الأمراض المترتبة عن) نقل الأعضاء، ومرض السرطان.

وتعد مساهمة (جيرن) في حقل المناعة أساسية جداً. و(جيرن) الذي ولد (بلندن) من عائلة دانماركية، لم يحصل على شهادته الطبية إلا في سن الأربعين، إلا أنه، وكما لاحظت لجنة (نوبل)، «ميز نفسه بأن أصبح أعظم منظّر في حقل المناعة». وتشرح نظرياته الكبرى كيف يتكون جهاز المناعة، وكيف ينضج، وكيف تتعدل الخلايا التي يتكون منها، ولم ينبهر (جيرن)، المتواضع بما أنجزه بقدر انبهاره بوضوع بحثي. فهو يقول : «إن جهاز المناعة يبدو الآن أكثر تعقيداً مما كان حين بدأت بحثي. وأنا أقل تفاؤلاً من أننا سنفهمه تماماً».

بقلم : مارغريت ستادر

(زيوريخ)

عن : كلوديا واليس

في الاقتصاد :
أرقام أنيقة

بالرغم من أن بعض أحجار الزاوية الحيوية التي تعتبر اليوم مقاييس أساسية لسلوك الاقتصاد، مثل الإنتاج الوطني الإجمالي (G.N.P)، ومقياس

أسمار الاستهلاك، فإن استعمالها بكشل واسع لم يتم إلا في العقود الأخيرة، فخلال الأربعينات خطا الاقتصاديون خطوات واسعة بقدرتهم على غربلة بلايين المبادلات التي تشكل السلوك الاقتصادي، ووضعها في قوالب إحصائية أساسية تبين حالة الاقتصاد. ولم يعن بتحويل هذا الخليط الهائل من الأرقام إلى نوع من النظام إلا (سير ريتشارد ستون)، البالغ من العمر 71 سنة، والذي حصل في الأسبوع الماضي على «الجائزة التذكارية لألفريد نوبل» لسنة 1984 في العلوم الاقتصادية.

ويعتبر (ستون)، الذي يعمل كأستاذ شرفي في جامعة (كامبريدج) الاقتصادي البريطاني الرابع الذي يحصل على هذه الجائزة منذ أن أنشئت سنة 1969، أول فائز غير أميريكي منذ سنة 1979.

توصل (ستون) إلى أفكاره خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك توصل إلى نظام المحاسبة الوطني الذي ما يزال صالحاً كإطار عمل لبلاد العالم. وقد ساعد (ستون)، و(جيمس ميد)، الحائز على جائزة (نوبل) لسنة 1977، أثناء عملها كساعدين لـ (جان مينارد كينز)، على إعداد دراسة لسنوات الحرب لتنظيم وترتيب جبال من المعلومات الاقتصادية في شكل خط بياني للاقتصاد الإنجليزي. وقد مكنت تلك المهمة الهرقلية قادة البلد من التقدير الدقيق لثرواتها.

وبعد الحرب، ترأس (ستون) مشروعاً (لهيأة الأمم) نتج عنه تطوير نموذج قياسي للحسابات لدول أخرى. وقد كانت الدول التي تتوفر لها طرق فعالة لتلخيص نشاطها الاقتصادي قليلة إذا لم تكن منعدمة. وتحت إشراف (ستون)، أعدت (هيأة الأمم) مجموعة هائلة من الخطوط العريضة والإرشادات التي تستعملها اليوم أكثر من مائة دولة. مما جعل المقارنات الدولية ممكنة.

ورغم أن بعض الاقتصاديين اعترضوا على هذا النظام الدقيق بدعوى أنه غير صالح لبعض الدول المتخلفة، نظراً لعدم دقة سجلاتها أو لكونها غير موثوق بها، فإنهم ما يزالون يتبعونه.

و(ستون) طويل القامة، ويصفه أصدقاؤه بأنه رجل مهذب، خفيض الصوت، متواضع، وهوايته جمع الكتب، وله منها أكثر من عشرة آلاف مجلد، ولكن أعمق اهتماماته هو ترتيب الأرقام. ويقول عنه (تيرانس باركر)، خليفته على رئاسة (مشروع النمو بكامبريدج) الذي طور نموذجاً للاقتصاد البريطاني : «إنه شديد الحماس للإحصاء الاقتصادي. وقد كرّس كلّ حياته المهنية لقياس الدخل والثروة، وهو شديد الحرص على أن يضع لها نظاماً». ويضيف (جورج جازي)، مدير (مكتب التحليل الاقتصادي بوزارة التجارة الأميريكية) : «هناك إحساس هائل بالنظام SYSTEM في عمله، وأناقة عظيمة كذلك. فقد كان وما يزال عملاقاً».

ويميل (ستون)، كرجل اقتصاد، إلى العمل داخل المكتبة أكثر منه تحت أضواء وضع السياسة العامة. ويقول : «إن رجال الاقتصاد الذين يتحدثون عن السياسة الاقتصادية هم شخصيات بارزة، وليسوا منطوين انعزاليين مثلي». وينتقد الفائز الجديد بجائزة (نوبل) مهنته بشكل ما، مبيناً أن عدداً كبيراً من رجال الاقتصاد اليوم يتوجهون إلى اختصاصات ضيقة ولا يعرفون ما يكفي من التاريخ وعلم النفس. ويقول : «يقترح الاقتصاديون على الحكومات وسائل علاج دون أن يأخذوا في حسبانهم قدرة الشعوب أو عدمها على التغير».

بقلم : ليسا مصداق (كمبريدج)

عن : جان غرينوولد

شبكة توزيع مياه فاس القديمة

عبد القادر زمامة

لعله من المناسب ونحن بصدد الحديث عن شبكة توزيع مياه مدينة فاس القديمة، أن نلتفت بإيجاز وتركيز إلى ما يحيط بقضية المياه في فاس من جوانب : تاريخية، وحضارية، وقانونية.

فالمياه في فاس، داخل الأسوار، وخارجها، بمنزلة دولاب تاريخي. حضاري، يتحرك باستمرار، منذ قرون، وهو العامل الفعال في معيشة السكان، وحياتهم، ونشاط المرافق والمؤسسات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، المتنوعة، المتكاملة.

وهو العامل الفعال أيضا، في هذه العطاءات الوافرة، التي جعلت هذه المدينة العتيقة، تنتمي بتربتها، وموقعها الجغرافي، إلى افريقية والمغرب، بينما ترتبط بعلومها، وفنونها، وحضارتها ومعالمها وأعلامها، بعدة مدن، وأقطار. وحضارات، في شرق الدنيا وغربها...!

وعند التعمق في دراسة تلك النعوت، التي نعتت بها هذه المدينة ـ عبر التاريخ ـ في أقلام المفكرين، والسياسيين، والمؤرخين، والجغرافيين. والرحالين، من مختلف القارات، نجد أن معظم تلك النعوت إنما جاء تعبيرا ناطقا، يصور جانبا من عطاءات حركة الدولاب التاريخي، الحضاري. الذي تحركه المياه الغزيرة...!

فظاهرة المياه الغزيرة، المتعددة المصادر...

- مياه النهر...
- مياه العيون...
- مياه الآبار...
- مياه المجاري الطاهرة «الحلوة».
- مياه المجاري العفنة «الحارة».

وظاهرة الاستفادة هذه المياه، واستغلالها، «حلوة» و«حارة» بكل أنواع الاستفادة والاستغلال، داخل أسوار المدينة، وخارجها، كل ذلك جعل معظم هؤلاء من حملة الأقلام، يفسرون، ويعللون، الظواهر الأخرى...

ولنأخذ مثالا واحدا، من أمثلة استغلال مجاري المياه «حلوة» و«حارة»، وهو مثال استغلال الشلالات، وحركاتها، لإقامة عدد من «الأرحية» التي تتحرك بطاقة تلك الشلالات المختلفة، وقد ساعد على وجود هذه الشلالات، ما نعلمه من وجود مرتفعات، ومنحدرات تعلو فيها المياه، وتنحدر، فتتكون المساقط، والشلالات، التي تبلغ في تعدادها ما يقارب المائة من الشلالات...!

أما الاستفادات، والاستغلالات، الأخرى المعروفة في المساجد، والحمامات، والمنازل، والسقايات، والحرف المتعددة، المحتاجة إلى المياه، فهي أمر واضح، يتجلى في الحياة اليومية، ويضفي على المدينة، وسكانها ومرافقها، طابعا من الطمأنينة، والنظافة، والنشاط، والحيوية...

وطبيعي أن ينشأ إلى جانب استغلال المياه، والاستفادة منها، فرديا، وجماعيا، داخل الأسوار، وخارجها، عدد من الأعراف، والعادات، والحقوق، والواجبات، والالتزامات، والمعاملات، والمنازعات... والكلمات الاصطلاحية المتعلقة بالمياه، وحركتها...

لهذا نجد في كتب النوازل، ومجاميع الفتاوي، عددا كبيرا، من القضايا التي تطرحها هذه القضية الحيوية، وتختلف فيها الأنظار، والأهداف، حسب الظروف، والأحوال، والمصالح العامة...

وهكذا تأبى مياه فاس إلا أن تجر دارس أوضاعها، إلى أن يتعمق في أشياء، من عصور التاريخ... وأطوار الحضارة... وأبواب القانون...!

ومن المؤسف حقا ألا يحظى الباحثون، والدارسون بمجموعات من الوثائق، والمستندات، القديمة، والحديثة، لمحاولة تتبع القضايا الحضارية في فاس، ومنها قضية المياه، لتكون أبحاثهم مدققة، واستنتاجاتهم معقولة، مدعمة، لا مجال فيها للتوهم، ولا للتخمين، ولا للحدس...!

ولعل الأيام - ونحن متفائلون - ستجود علينا بما يسد هذه الثغرات، ويعطينا من الوثائق، والمستندات، ما يفسر الماضي... ويفيد الحاضر... ويفتح آفاق المستقبل...

بعد هذا التصور الذي أعطى إطارا عاما، لهذه القضية، يجدر بنا أن نتناول موضوعا خاصا مدققا، معتمدا على وثيقتين إثنتين، عثرنا عليهما في هذا الموضوع...

ـ الوثيقة الأولى، كتبت، سنة 1127 هـ = 1715م على عهد السلطان. مولاي إسماعيل...

ـ الوثيقة الثانية، كتبت، سنة 1299 هـ = 1881م على عهد السلطان، مولاي الحسن الأول...

وكلتاهما تهتم بشبكة توزيع مياه فاس القديمة، وتتتبع أحوال هذه الشبكة، وما يعرض لها من عوامل طبيعية، وما تمتد إليها به الأيدي، من إصلاح، أو إفساد...

وكاتب الوثيقة الأولى، من أهل العلم، والخبرة، والممارسة، هو : محمد العربي بن عبد السلام ابن إبراهيم، الدكالي، الذي لا نملك له ـ مع الأسف ـ ترجمة وافية مفصلة، وإنما نملك إشارات حوله، نلتقطها من كتب التاريخ...

وحيث إن هذه الوثيقة ذات نفع عمومي ومفيد، للدارسين والباحثين. فقد نشرناها، بمجلة «البحث العلمي» الصادرة عن المعهد الجامعي للبحث العلمي بالعدد 31 الصادر سنة 1980م مع مقدمة، توضح أهميتها. وموضوعها، وكاتبها، ومترجمها إلى اللغة الفرنسية.

والوثيقة الثانية، تقرير عدلي، مكتوب بقلم موثقين، تلقوا شهادات. ومعلومات، ومشاهدات، من جماعة من الخبراء، وشيوخ النظر، والمستفيدين. من أهل العدوة، واللمطيين، والأندلس، عينوا للقيام ببحث ميداني، في مياه

فـاس، من منبع النهر، إلى مصبـه، والادلاء بشهـاداتهم لتكـون مستنـدا لحكم القضـاء، وتنفيذ السلطة...!

ولما لهذا التقرير العدلي من أهمية، ولما حواه من معلومات مدققة، عن توزيع شبكة المياه، وما يحيط بهـذا التوزيع من ملابسـات... نشرنـا نصـه الكامل، بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفـاس، بعـددهـا رقم 6 الصـادر سنة 1983م مع مقدمة تعين ظروف كتـابـة هـذا التقرير، ومـا يعكس من اهتمامـات، وتـوقعـات، وتخـوفـات، تتعلـق بميـاه مـدينـة فـاس، وشبكـة توزيعها...

ومن المظنون أن نشر هاتين الوثيقتين، في مجلتين جـامعيتين، في هـذه الظروف بالذات، ممـا يشجع المهتمين بهـذه المبـاحث، والـدراسـات، على فتح ملف خاص، يجمع الوثائق التاريخية، والحضارية، والقانونية، المتعلقـة بميـاه مدينة فاس، ليكون ـ استقبالا ـ مرجعا عند الحاجة، وسندا عند البحث...

ونعطي الكلمة الآن، لصاحب الوثيقة الأولى ليقول :

«مـا زلت منـذ عقلت، وأنـا أود أن نعثر على من تكلم في شـأن هـذا الوادي المبارك، الداخل لمدينة فاس، أو قيد مقاديره ومجاريه، وتقاسيمـه، في قرطاس، فلم أظفر بما يعتمد عليه في ذلك، مع الاضطرار إليـه، والاحتيـاج. ويكون عدة نافعة في الاحتجاج، حاسمة لمادة النزاع واللجـاج، بعـد البحث التـام والاستقصـاء في طلبـه عنـد الخـاص والعـام، مـع مـا علم من اعتنـاء المؤرخين، وذوي الأخبار بما خصت به هذه المـدينـة الادريسيـة، بين المـدن والأقطار...!

هكذا يشكو كاتب هذه الوثيقة ـ كما نشكو نحن ـ من قلة المصادر، أو ندرتها، ومع ذلك فقد استطاع بشيء من الممارسة، والبحث الذاتي أن يسجل معلومات دقيقة، عن شبكة توزيع مياه فاس القديمة...

ولقد اختار منهاجا دقيقا لعمله، ويتلخص هذا المنهاج في معرفة مبدأ التقسيم الأولي للمياه بين :

- العدوة : المسماة قديما، بعدوة الأندلس.
- والقرويين : المنقسمة إلى شطرين : يعرف الأول منها بـاسم : أندلس القرويين، بينما يعرف الثاني منها باسم « اللمطيين...

ومبدأ هذه القسمة الأولى هو الأقواس الأربعة المعروفة إلى الآن، قبالة ضريح سيدي مجبر، ومن هذه الأقواس الأربعة تنحدر مياه النهر، إلى المدينة القديمة...

ويلاحظ كاتب الوثيقة، أن المياه التي تنحدر إلى العدوة، تمر في فضاء مكشوف، بين الحدائق، والجنات، من فاس الجديد، إلى ناحية باب الحديد... ومنها إلى ناحية باب الجديد... إلى أن تصل إلى وادي الزيتون... ومنه تدخل إلى أحياء العدوة...

بينما المياه المنحدرة إلى القرويين بشطريها « الأندلس، واللمطيين، تمر في مسارب، تحت القناطر، والدور، والأسواق، وما إلى ذلك... مما يسبب بعض المخاطر في موسم الأمطار والسيول...

ويتابع منهاجه الدقيق، بمرافقة التقسيمات المتفرعة عن القسمة الأولى. الموجودة في كل من اللمطيين، والأندلس، ذاكرا مراكزها، بتفصيل لشبكة

الانتفاعات والاستفادات، في المساجد الكبرى، والحمامات و«الأرحية» والمنازل، وما إلى ذلك، إلى أن ينهي تتبعه لها، بوصولها إلى مجاري المياه «الحارة».

ولا يهمل الأجهزة المنصوبة قديما للتحكم في قسمة المياه... ويصفها شكلا، ومادة، و وظيفة ويذكر العناصر الإيجابية والسلبية التي تنتج من عملها...

ومن هذه الأجهزة : السد، والمنخر، والخنيزرة، والمصدة، والميزاب. والقنوط، والردعة، واللوح، والفرد، والجائزة، وما إلى ذلك مما كان معروفا عند الناس، وما يزال بعضه معروفا عند أهل الخبرة، والمعرفة، بمياه فاس...

وتطبيقا لهذا المنهاج، الذي اختاره الكاتب، نجده يركز كلامه على شبكة توزيع المياه، في كل من أندلس القرويين، واللمطيين، بينما يسكت عن شبكة التوزيع داخل أحياء العدوة...

والسبب واضح في ذلك، وهو أن الكاتب قدم لنا عند كلامه على التقسيم الأولي للمياه، عند أقواس سيدي مجبر، أن قسمة المياه المنحدرة إلى أحياء العدوة كانت تمر في فضاء مكشوف، بين الحدائق، والجنات، إلى أن تصل إلى وادي الزيتون...

فهذه القسمة، لا تتعرض تقسيماتها إلى التعقيد في التوزيع، بل إن عدد الانتفاعات، والاستفادات، منها محصور، محدود، في عدد من المجاري. والسدود المنصوبة للسقي هناك للجنات، والحدائق المعينة، بوسائل مشروعة، متفق عليها منذ القديم...

أما داخل أحياء العدوة فإن هناك شبكة للتوزيع، بعد دخول المياه من وادب الزيتون... وقبل وصوله إلى وادي مصمودة... وبعد وصوله... ولكن الكاتب سكت عن هذه الشبكة...!

وشبكة توزيع المياه داخل فاس القديمة كانت مخططة تخطيطا. يجعلها بمعزل عن مجاري الماء «الحار» تبتعد منها ما أمكن... لكن الخبراء قدروا أنه عند موسم الأمطار، والسيول، وتكاثر المياه، لابد من تخطيط مسارب احتياطية، تستقبل الفائض المائي، لتصبه في مجاري الماء «الحار» إتقاء مخاطر الفيضان...

وبذلك كانت مجاري الماء «الحار» ذات وظيفتين إثنتين :

- دفع الفضلات، المترتبة عن الاستعمال اليومي للمياه...
- وتلقي الفائض المائي عند الضرورة...

وكاتب هذه الوثيقة هو الوحيد - فيما نعلم - الذي حافظ لنا في وثيقته هذه على تسمية مراكز اجتماع المياه «الحارة» بأسماء خاصة، وفي كل مناسبة يذكر انتهاء مجاري المياه الحلوة إليها... وبعض هذه الأسماء ما يزال مستعملا إلى الآن...

فعن طريق تفصيل مجاري المياه، وشبكة توزيعها، من أعلى المدينة. إلى أسفلها أفادنا الكاتب فائدة أخرى وهي : مراكز مسارب المياه «الحارة» ذات الوظيفتين المذكورتين...

ومن المعلومات الدقيقة التي احتفظ لنا بها كاتب هذه الوثيقة، أن هناك في شبكة توزيع المياه داخل أحياء اللمطيين، ساقية تسمى : ساقية

جنات باب عجيسة...! كانت تأخذ حظها من الماء ـ داخل درب بوحاج ـ لتخرجه تحت سور المدينة لسقي جنات باب عجيسة...!

وهذا بطبيعة الحال يدل على فائض كبير للمياه، بعد الاستغلال والانتفاع، به داخل أسوار المدينة... يأخذ الطريق إلى سقي ما هو خارج هذه الأسوار، من حدائق وجنات باب عجيسة...!

ويمكننا أن نسمي ذلك، بعملية التوازن الحضري، بين الأحياء السكنية، وما يجاورها من مناطق خضراء، ذات نفع عمومي...

كما أننا نجد عند كاتب الوثيقة معلومات أخرى تتعلق بقادوسين إثنين. أحدهما خاص بمياه مسجد القرويين... والثاني خاص بمياه الضريح الإدريسي، وكلاهما يصل مباشرة من «الردعة» الموجودة إلى الآن بزقاق البغل، إلى المسجدين المذكورين...

بعد هذا نرجع إلى الوثيقة الثانية لنجد في مقدمتها ـ بعد الديباجة العدلية ـ التي كتبها الموثقون :

«...وتوجه معه شهوده ـ سامحهم الله ـ عن إذن من يجب، ـ سدده الله ـ وأرشده، مع جماعة وافرة، عينها الشرع الكريم، من أهل حومة أندلس القرويين... ومن أهل حومة اللمطيين... ومن أهل حومة عدوة الأندلس... وهم من أهل المعرفة، والخبرة، والبصر، وأهل الرأي، والنظر، من الفلاحين، والبنائين، والنجارين، والتجار، والرحويين، والقنويين، والنظار. والعارفين بأحوال الوادي المذكور، وما يعرض له من النقص، والزيادة في جميع الأمور، ومصاريف الوادي، وتقاسمه، على الخاص، والجمهور...».

وبعد البحث الميداني لهؤلاء الخبراء، من رأس الماء، وعين السمن، وعين البيضاء، بزواغة، وفي كل مرحلة من مراحل بحثهم يسجلون المشاهدات. والملاحظات الموافقة، والمخالفة لما هو مشروع، ومعمول به من الحقوق. والانتفاعات، والاستغلالات، المتعلقة بمياه النهر، وروافده، من العيون المجاورة له...

وكان هؤلاء الخبراء على إطلاع واسع بما كان على نهر فاس داخل الأسوار وخارجها من المجاري والسدود، لهذا تتبعوا مجرى النهر، واستنكروا كل ما يضر بالمصلحة العامة، عن خبرة ومعرفة، وإطلاع.

وعندما وصلوا إلى القسمة الأولية، التي تعين ما لكل ناحية من حقوق في الماء، أكدوا تلك الحقوق، وعلى ضوئها تمموا بحثهم داخل أحياء المدينة. وراقبوا جنات : الدوح، والزيات والحامية، بل إنهم راقبوا بعض دور السكنى، وما فيها من المجاري، والمشارب، التي تتعلق بها حقوق المنتفعين والمستفيدين...!

وإذا كانت الوثيقة الأولى تهتم بشبكة توزيع مياه فاس القديمة اهتماما يعين الخطوط العريضة، ومراكز تجمع المياه، وتقسيمها من الأقواس الأربعة إلى المصب الأخير، في مجاري الماء «الحار» فإن الوثيقة الثانية تزيد على ذلك بالاهتمام بالتقسيمات الخاصة، وتراقب تطبيق هذه التقسيمات مراقبة شاملة ودقيقة.

لهذا راعينا أثناء دراسة الوثيقتين، وتصنيف المعلومات الواردة فيها. هذه الملاحظة واعتبرنا الوثيقتين متكاملتين، تكمل إحداهما الأخرى، وذلك لمن يريد البحث لمعرفة شبكة توزيع مياه هذه المدينة... وما لهذا التوزيع

من دقة وفعالية وتأثير في حياة السكان ونشاطهم، وحيويتهم في مختلف العصور...

ولعله من الجدير بالتأكيد أن دراسة قضية مياه فاس مسألة حيوية.

- تفسر الماضي...
- وتفيد الحاضر...
- وتفتح آفاق المستقبل...

فاس **عبد القادر زمامة**

أزمة التجارة في الأندلس
في أواخر عصر الامارة

ابراهيم القادري بوتشيش

دأب معظم الباحثين على دراسة الجوانب المشرقة من تاريخ الأندلس السياسي والحضاري، ومن ثم عملوا على إهمال جوانب الأزمات، على الرغم من أهمية هذه الأخيرة في إعطائه صورته المتكاملة، ذات الطابع الشمولي، وبالتالي وضعه في إطاره الصحيح.

وإذا كانت تلك النواحي الثرية في حضارة الأندلس وتاريخها أمر لا يرقى إليه الشك بشهادة كل الدارسين بما فيهم الغربيين، فإنها «قتلت» بحثاً، في الوقت الذي لا زالت الأزمات التي عرفها تاريخ الأندلس في حاجة ماسة إلى دراسة واستقصاء. ولعل من هذا القبيل، تلك الأزمة التي شهدتها التجارة الأندلسية في أواخر عصر الإمارة (250 ـ 300 هـ).

ومن نافلة القول، أن اهتمام الدارسين ـ عرب ومستشرقين ـ بهذه الفترة، انصب كليا على معالجة الظواهر السياسية. ولم يقحم أحد نفسه ـ بما

في ذلك عمدة مؤرخي الأندلس العلامة ليفي بروفنسال[1] - في الوقوف على الأوضاع الاقتصادية التي سادت في هذه الحقبة، بل إن باحثا عرف بطول باعه في الدراسات الأندلسية، أكد هذا الغياب معللاً إياه بقوله : «لا نجد مادة يهتم بها المؤرخون لرصد الحياة الاقتصادية في تلك الفترة، على كثرة ما ذكروا عن الفترة السابقة واللاحقة»[2].

وحقيقة المشكل تكمن بالفعل في صمت المصادر التاريخية عن ذكر الجوانب الاقتصادية؛ وهذا الصمت في حد ذاته يترجم إحجام الباحثين عن التصدي للموضوع، غير أن الوقوف على مادة جديدة وردت على شكل نصوص في كتب النوازل والتراجم وكتب الحسبة[3]، إضافة إلى بعض الإشارات المتناثرة في الحوليات والمخطوطات وكتب الجغرافيا، أمكن بها إنارة بعض الزوايا المظلمة من الإشكالية.

وسينصب الاهتمام في هذه الدراسة على جانب هام من النشاط الاقتصادي، وهو التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي.

---

1) تناول الأستاذ ليفي بروفنسال في كتابيه الهامين «تاريخ إسبانيا الإسلامية» الجزء الثالث و «إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر» (بالفرنسية) الحياة الاقتصادية في عصر الخلافة، بينما لم يعالجها في هذه الحقبة.

2) أحمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. ص 149. الطبعة الثانية. الجزء الأول.

3) لم نتمكن من الوقوف على أي كتاب في الحسبة يوافق الفترة موضوع الدراسة، ولذلك التجأنا إلى حل منهجي : فانطلاقا من قناعتنا بوحدة التشريع في الغرب الإسلامي، تم الاعتماد على كتاب «أحكام السوق» ليحيى ابن عمر الذي عاش في نفس الفترة تقريباً. وإذا كنا قد ارتكزنا على وحدة الظاهرة، فإن أسباباً ذرائعية جعلتنا نعتمد على يحيى بن عمر كذلك لأنه أندلسي من موالي بني أمية، وعلى يده درس كثير من العلماء الأندلسيين، مما يجعل حسبته انعكاسا لأحكام الحسبة في الأندلس، فضلا عن وحدة المذهب.

ففيما يخص التجارة الداخلية، لاشك أن ضآلة الإنتاج الزراعي، واقتصاره على المواد المعاشية الاستهلاكية، وكذا انحطاط الإنتاج الصناعي[4]، وتدهور المدن، كل ذلك قلص من حجم المبادلات الداخلية. كما أن اندلاع الصراع بين الإمارات المستقلة، وما أسفر عنه هذا الصراع من خراب الطرق التجارية، وانعدام الأمن، وتفشي حركة قطع الطرق، زاد الوضعية تفاقماً.

نتيجة لذلك، اتسمت التجارة الداخلية بالاكتفاء الذاتي. ويكشف استعراض البضائع المعروضة في الأسواق غلبة الطابع المحلي على المبادلات الداخلية.

فمن خلال النوازل المعاصرة، يستشف أن أهم السلع المعروضة في الأسواق تمثلت أساسا في الجلود المخصصة للاستهلاك المحلي[5]. كما راجت مواد الاستهلاك الأخرى مثل العسل والزيت والسمن[6]، كذا القمح الذي شكل جوهر التجارة الداخلية، ويبيع من طرف الدلال والجلاب، ثم الحنطة، وجرت العادة أن تكون الأسواق أمام أبواب المدينة أو أسوارها، أو أمام

---

4) عن تدهور الإنتاج الزراعي والصناعي، خصصت في رسالتي الجامعية «أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي» فصلين لذلك، ويستحسن الرجوع، إلى صفحاتها الممتدة ما بين 107 ـ 122. توجد نسخة منها في الخزانة العامة بالرباط.

5) الونشريسي ، المعيار المعرب ج 6 ص 184 طبعة بيروت 1981 وينقل عن ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة.

6) يحي بن عمر : أحكام السوق ص 114 ـ 115. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية. مجلد 4 سنة 1956.

ضريح أحد الصلحاء، وفيها يعرض بائعو الحشو والدوم والحطب وغيرهم سلعهم البسيطة على سبيل البيع والشراء.

غير أن أهم بضاعة عرفت الرواج تمثلت في تجارة العبيد. وقد وفرت الحروب الداخلية أعداداً هائلة منها. وإذا كانت كثرة النوازل حولها تعكس أهميتها، فإن ابن سهل[7] ترك نصا بالغ الأهمية لإبراز ظاهرة جديدة طرأت في هذه الحقبة، وهي تحويل الأحرار إلى عبيد وبيعهم في الأسواق، وهذا ما يفسر قوله : «كثر بيع الأحرار في فتنة ابن حفصون»، حتى أصبح من الصعب التمييز بين الأحرار والعبيد، وهو ما يوافق ما ذكرته نازلة حول امرأة سبيت فادعت أنها حرة[8]. وقد تصدت الفتاوي لهذه الإشكالية، غير أن الفقهاء عجزوا عن إيجاد حل لها، فاكتفوا بالقول بأن «البينة على من ادعى الحرية»[9].

وفي مناطق الثغور، عرفت تجارة العبيد ذروتها بسبب الحروب التي استعرت بين الكيانات الثغرية من جهة، والصراع القائم بينها وبين الممالك المسيحية المتاخمة لها من جهة أخرى. كما وفرت الصوائف التي قام بها الجيش النظامي موردا هاما لهذه التجارة، حيث بيع العبيد بكثرة في أسواق النخاسة.

7) نوازل الأحكام (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 370 ق) ص 56.

8) مخطوط مجهول المؤلف ضمن مجموع رقم 2198 ■ خ. ع بالرباط ورقة 170 وفيها يقول المؤلف : «امرأة ألقيت بيد رجل ادعت أنها حرة من موضع سمته، وأن متغلبا أغار على ذلك الجانب، فسباها تلك الناحية، وذكر الذي ألقيت بيده أنه ابتاعها من ذلك الجانب».

9) هو قول الفقيه ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة. انظر نفس المصدر والصفحة.

أما أصناف السلع الأخرى : فقد عرفت تدهورا خطيراً؛ ينهض دليلا على ذلك ما شهدته أسواق قرطبة من كساد تجاري، وارتفاع في الأسعار[10]. وساهم ضعف السلطة المركزية وعدم مراقبتها للأسواق، ثم عدم الضرب على أيدي المحتكرين في تأزم هذه الوضعية. ولم تتمكن من إزاحة الضرر الفادح الذي أصابها حتى خلت الأسواق من الأقوات، بل أصبح الحصول على الخبز متعذرا[11]، وشجع ذلك المحتكرين الذين لم يستطع المحتسب وضع حد لهم[12].

وتوضح النوازل المعاصرة كذلك أن التجارة الداخلية أصبحت عرضة للاغتصاب، واختلاط الحلال بالحرام، ولذلك طالب الفقهاء بترك الأسواق[13]، مما أضعف جانب الطلب.

وفضلا عن ذلك تعرضت هذه الأخيرة لتطاول العسكر ونهبهم. وفي هذا الصدد أورد الونشريسي[14] نازلة حول «قوم معروفين بالغصب ليس لهم مال إلا من الغصب لبعض الجند الذين بالأندلس». واشتطت السلطة في فرض المغارم والمكوس على التجار[15]، وفرضت عليهم أداء ضريبة على

10) عبد الملك بن حبيب : التاريخ الكبير. المخطوط المصور بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية.

11) لين بول : العرب في اسبانيا ص 92 ـ 93 طبعة دار المعارف بمصر. الترجمة العربية : علي الجارم.

12) يحي بن عمر : أحكام السوق ص 134 ـ 135.

13) الونشريسي : م.س ج 6 ص 181 : وهاك نص النازلة : «وسئل ـ ابن لبابة ـ عن شراء الأفرية والجلود واللحم وغير ذلك من الأسواق، وأخبر بالفتنة التي كانت، وكثرة الحرام واختلاطه مع الحلال فأجاب من أراد الورع فلا يشتري من تلك الأسواق شيئا».

14) نفسه ص 172.

15) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ج 2 ص 54. طبعة البيضاء 1980.

الأبواب التي تدخل وتخرج منها البضائع، إضافة إلى زكاة السوق التي ابتدعتها لتموين بيت المال الفارغ[16].

ومن البديهي أن تتظافر هذه العوامل لترغم التجار على ترك الأندلس والهجرة إلى بلدان أخرى خاصة بلاد العدوة التي شيدوا فيها مدنا خاصة لمزاولة نشاطهم، بعيدين عن جور إمارة قرطبة. ذكر البكري[17]، أن بعض التجار الأندلسيين من أهل البيرة وتدمير عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل إفريقيا الشمالية، وأسسوا مدينة تنس سنة 262 هـ[18]، وعاشوا مع أهلها في وئام إلى أن حل بهم وباء، فاضطر قسم منها للرجوع إلى بجانة، وهي المدينة الوحيدة التي سلمت من الكساد التجاري. وبقي قسم آخر منهم يقدر بحوالي أربعمائة أسرة في المدينة التي شيدوها، فازدادت أرباحهم وثرواتهم. ويلاحظ أن من بين هؤلاء المهاجرين مسلمون وغير مسلمين[19]، مما يدل على أن تجار أهل الذمة تذمروا هم أيضا من إفلاس تجارتهم داخل الأندلس.

وعلى غرار المجموعة الأولى، هاجرت مجموعة ثانية إلى بلاد المغرب فرارا من الأوضاع المتردية، وهربا من المغارم التي أثقل بها كاهلهم، فشيدوا مدينة

---

16) Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III. P 301. leiden 1950.

17) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. ص 60 ـ 61. طبعة بغداد (دون ذكر التاريخ).

18) أخطأ القزويني حين جعل سنة 230 هـ سنة تأسيسها وهو لا يذكر المصدر الذي نقل منه هذا التاريخ انظر كتابه : آثار البلاد وأخبار العباد ص 177 طبعة بيروت 1960. وللمقارنة انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 177 طبعة بيروت 1980 من تحقيق. بروفنسال.

19) بدر : م.س. ص 155.

وهران[20] التي أصبحت «مرفأ في غاية السلامة وأكثر أهلها تجار»[21]، واستقروا فيها لمزاولة نشاطهم التجاري.

وبالمثل استقرت مجموعة أخرى من التجار الأندلسيين في مدينة القيروان[22]. وفي المدن الثلاث لم يجدوا ضالتهم المنشودة : ففي تنس تعرضوا لوباء خطير[23]. وفي وهران كان مصيرهم أسوأ حيث «خربت وهران وأضرمت نارا سنة 297 هـ، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم»[24]. أما في القيروان فقد تعرض بعضهم للاغتيال[25].

وثمة إشارات إلى هجرة بعض التجار الأندلسيين نحو الشرق، لكن يبدو أن أهم الهجرات تقاطرت على الإمارة الرستمية، فلا غرابة إذا كانت الجالية الأندلسية قد انتشرت في جميع أنحائها إبان ثورة ابن حفصون[26].

لقد لعبت هجرة التجار دوراً في انحطاط التجارة الداخلية، ولا أدل على هذا الانحطاط من انهيار قيمة العملة السائدة[27]، فهل سلمت التجارة الخارجية من هذا المصير المحتوم ؟

20) البكري : م.س ص 70 ـ ابن عذاري، م.س ص 136.

21) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 5 ص 385. طبعة بيروت [دون ذكر التاريخ].

22) ابن عذاري : م.س ص 169.

23) البكري : م.س ص 60.

24) نفسه ص 70.

25) ابن عذاري : م.س. ويذكر مانصه : «وفيها ـ يقصد سنة 300 هـ ـ قتل من التجار أبناء الأندلسيين بالقيروان أبو جعفر بن خيرون.

26) طلفاح : حضارة الأندلس : ص 200 طبعة بغداد 1977.

27) ظلت العملة فضية فقط. قارنها بالفترة اللاحقة حيث أصبحت ذهبية. وكان «الطبل» هو الوحدة الشائعة. انظر : ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان. ص 88. طبعة ليدن 1885.

لا تتم معرفة أحوال التجارة الخارجية بمعزل عن الصراع بين «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ومحاولة كل طرف إقصاء الآخر من زعامة البحر المتوسط، في وقت كانت الأندلس. إحدى الحلقات الرئيسية في هذا الصراع.

وإذا اعتبرنا ماذكره لويس[28] صحيحا من أن بزنطة لم تشكل أي عرقلة للإمارة الأموية خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري، فلا جدال في أن النصف الثاني منه (أواخر عصر الإمارة) عرف صراعاً حادا بين الجانبين، تمثل في النزاع حول بعض جزر البحر المتوسط.

لقد انتهت سيادة بزنطة على هذا البحر ابتداء من سنة 821م (206 هـ)[29] بسبب انشغالها في حروبها مع البلغار، وبفضل الانتصار الباهر الذي حققه الأغالبة سنة 212 هـ، وهو الانتصار الذي أصبح بموجبه البحر الأبيض المتوسط «بحيرة إسلامية» دون منازع[30].

غير أن هذه السيادة تضعضعت ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أي الفترة التي تمثل أواخر عصر الإمارة. وبالرغم مما ذكره بعض الدارسين[31] من أن السيطرة الإسلامية امتدت طوال القرنين الثالث والرابع، فإن هذا الزعم غير صحيح. فخلال النصف الثاني من القرن الثالث

---

28) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 177 طبعة القاهرة [دون ذكر التاريخ].

29) نفسه ص 168.

30) عبد الجليل الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجري. ص 148 ـ 149. طبعة الرياض 1969.

31) السيد سالم ومختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص 67. طبعة بيروت 1969.

الهجري فشل المسلمون في الاستيلاء على الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط، حيث لم يوفقوا في احتلال سردانية[32]، ولم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على كل أجزاء صقلية؛ بل استردت منهم بزنطة بعض الجزر كقبرص[33]. ولم يقدر لهم تحقيق هذه السيطرة حتى نهاية القرن الثالث على الأقل.

وابتداء من سنة 253 هـ (867م) انتهت السيادة الإسلامية تماماً، واستأثرت القوى المسيحية بالسيطرة على شرايين التجارة العالمية. وتجلى ذلك في قطع الطرق على المسلمين للوصول إلى مدن جنوب إيطاليا، وتوجوا جهودهم بتحقيق انتصارات متتالية على الكريتيين في بحر إيجه سنة 266 هـ. وبعد ذلك بسنة حققت القوات البزنطية نصرا مؤزرا[34]. وفي الفترة مابين 267 و 273 هـ. نظمت حملات موفقة ضد الأغالبة أرغموا إثرها على توقيع معاهدة سلم معهم[35].

ولم تكن البحرية الأندلسية إلا صدى لهذا التراجع. فبالرغم من دعمها من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238 هـ) إثر هجوم النورمان[36]، فقد عرفت ضعفا لا نظير له في أواخر عصر الإمارة. وثمة من

---

32) طرخان : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. ص 109. طبعة القاهرة 1966.

33) لويس : م.س.ص 164.

34) لويس : م.س. ص 33.

35) محمود إسماعيل : الأغالبة : سياستهم الخارجية. ص 161 طبعة البيضاء 1978 (الثانية).

36) السيد سالم ومختار العبادي. م.س.ص 148: ويذكر ابن حيان أن البحرية الأندلسية وصلت آنئذ إلى 300 مركب. انظر كتاب المقتبس. القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط ص 144. نشر محمود مكي طبعة القاهرة 1971.

الروايات ما يقيم الحجة على ذلك : ذكر ابن عذاري[37] أن عاصفة دمرت الأسطول الأندلسي أثناء توجهه إلى جليقية عبر المحيط بقيادة ابن مغيث سنة 266 هـ. وشكل هذا الحدث كارثة مروعة إلى درجة أن أحد الباحثين[38] ذكر أنها كانت بالنسبة للقوات المسيحية أكبر من كل الانتصارات التي حققتها، وهذا ما يفسر عدم قدرة الأسطول الأندلسي على مناجزة نظيره الأغلبي[39].

وزاد تعاقب الغزوات النورماندية من ضعفه[40]، وحسبنا دليلا على ذلك قيام بعض المتطوعة بمعارك بحرية بمعزل عن الأسطول الرسمي المغلوب على أمره. ففي سنة 256 هـ، قامت فرقة من المجاهدين بمهاجمة شواطئ بروفانس[41]. وتمكنت من السيطرة على جزيرة كامارراج Camarague، فحصلت على كثير من المغانم[42]. وبعد سنتين، تمكن هؤلاء من الوصول إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من شواطئ بروفانس[43]. كما تمكن مغامر آخر هو عصام الخولاني من اقتحام جزائر البليار وميورقة في نهاية هذا القرن[44].

---

37) البيان ج 2 ص 103 ـ 104.

38) Histoire de Arabes et de Maures d'Espagne Tom I p 146,. Paris 1851 : Viardot

39) محمود إسماعيل : م.س.ص 125.

40) Histoire d'Espagne Tom I P 314. Paris : Rosseewst.

41) طرخان : م.س.ص 203.

42) عنان : دولة الإسلام في الأندلس. ص 426 طبعة القاهرة 1960 (الثالثة).

43) طرخان : م.س.ص 203.

44) عنان : م.س.ص 341 ـ 342.

من ذلك يتضح ضعف الأسطول الرسمي الأندلسي، وهو أمر في غاية الخطورة، وتجلت هذه الخطورة في أن أبواب البحر الأبيض المتوسط قد أوصدت في وجه التجارة الأندلسية بسبب الحصار المسيحي، والقرصنة التي أصبح يعج بها، ولذلك تقلصت المبادلات التجارية، وتوقفت مع الشرق تماماً[45]. وكرست طبيعة الإنتاج الزراعي والصناعي الموجه أساساً للاستعمال المحلي هذه الوضعية، مما أدى إلى اختلال الميزان التجاري.

ويفسر هذا الاختلال بفقدان الدولة تحكمها في التجارة الخارجية والموانئ البحرية المعدة للتصدير، ذلك أن الكيانات التي انفصلت عن الحكم المركزي والواقعة على السواحل، احتكرت المبادلات التجارية مصداق ذلك استئثار إمارة بني حجاج بالسلع الواردة من مختلف الأصقاع، مما سد في وجه الإمارة سبل العيش[46]، حتى أنها اضطرت إلى إقرار سياسة التعايش السلمي معها كي تستفيد من تجارة الكماليات على الأقل، وبالمثل، أصبحت إمارة بجانة المستقلة قبلة للتجار الوافدين من مختلف الأقطار، مما هيأ لها الفرصة لاحتكار التجارة الخارجية لنفسها[47]. وسيطرت إمارة ابن حفصون بدورها على تجارة الجزيرة الخضراء حيث كانت لديها مراكب تسفرها إلى شمال إفريقيا، سرعان ما عادت عليها بالأرباح الطائلة[48]. ونحن في غنى عن تأكيد استئثار مختلف الإمارات المستقلة الأخرى بالتجارة في الوقت الذي كانت السيطرة عليها حقاً من حقوق السلطة المركزية.

كما يفسر اختلال الميزان التجاري أيضاً بقلة الصادرات وكثرة الواردات، وهذا راجع إلى ولع الأرستقراطية - أمراء وقادة جيش ورجال

45) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ج 2 ص 56.

46) Rosseewst Loc. op – cit P 371.

إدارة ـ باستيراد مواد الترف حيث لم ينقطع طلبها عنها البتة. ويتأكد هذا الزعم برصد البضائع المستوردة :

ذكر ابن حيان[49] أن أحد التجار سعى إلى التوسط لدى صاحب طراز الخليفة في بغداد ليخيط له أثوابا عراقية رفيعة تطرز باسم الأمير محمد. ولماتم له ذلك عاد بتحفه إلى الأمير، «ونال بها منزلة».

ومن مظاهر إسراف الأمير المذكور في اقتناء السلع الفاخرة، واعتنائه بتجارة مواد الكماليات، صدور أمره إلى صاحب العمل بالتوسع في هداياه لهم «فدخلت في أيامه الأندلس من المتاع الفاخر، والرياش النادر، والحيوان المستغرب والمستطرف ما لم يدخل من قبله من الخلفاء»[50].

ومن مواد الترف التي استوردها الأمراء، الحيوانات غير المألوفة في الأندلس حيث استدعى الأمير محمد التجار لجلبها إليه. وتفصح المصادر إعجابه الشديد بها[51] كما أن استجلاب أنواع الغروس لاستغلالها في غراسة «المنيات» كمنية الرصافة شكلت إحدى مواد تجارة الكماليات[52]، ونفس

---

47) ابن حيان : المقتبس ص [redacted] من القطعة الخاصة بالأمير عبد الله. نشر ملشور أنطونيا. باريس 1937.

48) ابن حيان : المقتبس ص 78 من القطعة الخاصة بعبد الرحمن الناصر. نشر شالميطا ط. مدريد 1979.

49) المقتبس، القطعة الخاصة بالأمير محمد. ص 164.

50) نفسه ص 276.

51) نفسه ص 277.

52) ن.م.ص.

الشيء يقال عن الرقيق الأسود الذي جبل عليه الأمير، مما جعل التجار يتقاطرون عليه حاملين معهم أعدادا كبيرة من إفريقيا السوداء[53].

وعلى منواله سعى الأمير المنذر سعياً حثيثا للحصول على مواد الترف. وتحفل المصادر بذكر تعامله مع التجار، وخاصة مع التاجر محمد بن موسى الرازي[54] الذي عرف باشتغاله في مواد الترف خاصة الحلي والعقاقير[55].

واكتسب تجار الكماليات مكانة رفيعة، إذ حضوا برعاية الأمراء الذين أنزلوهم منزلة كبيرة[56]، وأغدقوا عليهم الهدايا والإنعامات[57]. وحسبنا أن الأمير محمد أدخل التاجر الرازي في خدمته[58] وندبه في مهمات سياسية حين بدأ الصراع بين العرب والمولدين[59]. كما درج الأمير المنذر على استشارته في كبريات أمور الدولة ووضع فيه كل ثقته[60].

ولما كانت قصور الأمراء وزعماء الإمارات المستقلة وكبار الموظفين في حاجة إلى عبيد لاستعمالهم كخدم، وجواري وغلمان لإشباع لذاتهم ومتعهم، لم يتقاعس التجار عن جلب الصقالبة والغلمان من بلاد الافرنج، ذكر ابن

---

53) محمود إسماعيل : مغربيات. ص 168. فاس 1977.

54) ابن حيان : م.س ص 269 ويذكر ما يلي : «وقد كان الرازي ترك من الأمير المنذر ألطف منزلة»

55) المقري : نفح الطيب. ج 3 ص 111 طبعة بيروت 1968.

56) ابن حيان : م.س.ص 164.

57) نفسه ص 276.

58) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص 196 طبعة مدريد 1945.

59) محمود إسماعيل : م.س.ص 159.

60) ابن حيان : م.س.ص 269.

الفقيه[61] المعاصر لهذه الحقبة «أن الذي يجيء من هذه الناحية الخدم والصقالبة والغلمان الرومية والإفريقية والجواري الأندلسيات (يقصد الممالك النصرانية)، وجلود الخز والوبر والسمور».

وقد ارتبطت عملية استيراد الصقالبة باليهود، خاصة اليهود الرهدانية الذين قاموا بهذا النشاط التجاري ضمن رحلاتهم شرقا وغربا. وساعدهم في ذلك اتقانهم للغات كثيرة كالفارسية والرومية والافرنجية والصقلبية والأندلسية[62]. لكن يهود أربونة أسهموا بنصيب أوفر في هذا النوع من التجارة، إذ جلبوا الصقالبة إلى الأندلس عبر ممرات البيرينه أو عبر المحيط، ووصلوا حتى إفريقيا الشمالية[63].

كما أن تجارة الجواري الافرنجيات السودانيات والشرقيات على السواء، شكلت مادة هامة من تجارة الكماليات التي تهافت عليها الأمراء وقادة العسكر في «دويلاتهم».

وتذكر إحدى الروايات في هذا الصدد، أن التاجر محمد بن موسى الرازي أتى بجارية إلى الأمير محمد، ولكن حاجبه أفسدها عليه، ونبهه بأنها جاسوسة، ومع ذلك لم يخف الأمير إعجابه الشديد بها[64].

وعلى غرار الأمراء، اهتم زعماء الإمارات الانفصالية التي انتشرت خلال هذه الحقبة في طول بلاد الأندلس وعرضها بجلب الجواري من

61) مختصر كتاب البلدان ص 84.

62) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص 153 طبعة Ej-Beill.

63) لومبار : الإسلام في عظمته الأولى ص 200 طبعة بيروت 1977.

64) ابن حيان : م.س.ص 265.

الشرق، وبلغ شغفهم بهن إلى حد دفع أثمان خيالية لشرائهن. ومن هذا القبيل إبراهيم بن حجاج صاحب إمارة إشبيلية الذي دفع كية هامة من الذهب في سبيل اقتناء جارية أعجب بها[65]. كذا الحال بالنسبة لإمير غرناطة سعيد بن جودي الذي عرف بولعه الكبير بالجواري[66].

تجارة الترف إذن، كانت الخيط الموجه للتجارة الخارجية، مما يفسر أزمتها. كما أن ارتباطها بالأرستقراطية، والسلع الفاخرة «الأجنبية» هو وجه آخر لهذه الأزمة. وهي أزمة تجد تفسيرها كذلك في غياب طبقة تجارية «وطنية» أندلسية، وفي انعدام الشروط الموضوعية. وحسبنا أن خراب الطرق، واشتداد حركة القرصنة، وما نجم عن ذلك من قلة في «رأس المال»، كل ذلك جعل التجار المشتغلين في تجارة الترف بعيدة المدى يصطدمون بعدة صعوبات، الأمر الذي يعكس صمت المصادر عن ذكر نشاطهم في العاصمة قرطبة إبان عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300 هـ)، وما لحق بتجارة الكماليات نفسها من تدهور وتقلص وانكماش.

ومن الإنصاف القول أن المدينة التي استفادت من أصناف التجارات الأخرى فضلا عن تجارة الكماليات، هي مدينة بجانة لموقعها الاستراتيجي، وتسيير شؤونها من طرف حكومة اشتغل أفرادها بالتجارة، وعملت علاقات

---

65) من أشهر جواريه التي تذكرها المصادر بكثرة الجارية «قمر» التي اشتراها من الشرق. انظر : المقري : م.س.ج 3 ص 140 ـ 141.

66) ابن الأبار : الحلة السيراء ج 1 ص 157. طبعة القاهرة 1963.

التبعية وارتباطها بالحكم المركزي - رغم انفصالها السياسي - على جعلها الميناء الذي أمه تجار الشرق القاصدين بلاطات قادة الجيش وزعماء الإمارات المستقلة، ولذلك وصفت بأنها «باب الشرق ومفتاح الرزق»[67]، وحجت إليها سفن إفريقية وغيرها[68]، واكتظت أسواقها بضروب التجارات التي اشتهرت بها خاصة طراز الحريز كا تميزت بنهضة عمرانية، حتى أن أحد الباحثين[69] نعتها بأنها «دولة صغيرة».

ونظراً لهذه الظروف المواتية، فقد نشطت مبادلاتها التجارية مع تنس ونكور ومالقة[70]، وأقامت علاقات تجارية مع تجار وهران الذين كانوا قد هجروا الأندلس[71] ومع ثغور الشام ومصر.

إلا أن النهضة التجارية والعمرانية التي عرفتها مدينة بجانة يجب ألا تخفي عنا حقيقة هامة، وهي أن جميع المدن الأندلسية في هذه الفترة تعرضت للخراب إلى حد يمكن الحديث معه عن «انحطاط مديني»، وهو أمر له مغزى عميق، إذ جاء صورة ناطقة بأزمة التجارة، وانعكاساً أميناً للإفلاس الذي ظل ينخرها حتى بزوغ عصر الخلافة.

---

67) ابن غالب : فرحة الأنفس ص 238 وانظر كذلك ياقوت : م.س.ج 5 ص 119.

68) يفهم ذلك من خلال نازلة ذكرها الونشريسي.انظر المعيار. ج 8 ص 311.

69) السيد سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص 28. طبعة بيروت 1969.

70) السيد سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. ص 61.

71) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 299. طبعة ليدن 1906.

خلاصة القول، أن التجارة في الأندلس خلال العقود الأخيرة من عصر الإمارة، اتسمت بصبغتها المحلية، وطابعها الاستهلاكي، وبانحطاطها على المستوى الداخلي، وبانغلاقها وتقوقعها، ثم اقتصارها على مواد الترف الأجنبية على المستوى الخارجي، مما يفسر أزمتها، وتلك معضلة التجارة في أغلب عصور التاريخ الإسلامي.

مكناس : **ابراهيم القادري بوتشيش**

المصادر والمراجع المستعملة

1 - ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي : (ت 658 هـ) : كتاب الحلة السيراء ج 1 طبعة القاهرة 1963. تحقيق وتعليق حسين مؤنس.

2 - ابن حيان، أبو مروان خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان (ت 469 هـ) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس : القطعة الخاصة بأواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد تحقيق محمود مكي. طبعة بيروت 1973.

ـــ : القطعة الخاصة بعهد الأمير عبد الله نشر ملشور أنطونيا. طبعة باريس 1937.

ـــ : القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبد الرحمن الناصر نشر : ب. شالميطا ـ كورنيطي ـ صبح، طبعة مدريد 1979.

3 - ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300 هـ) : كتاب المسالك والممالك. طبعة E.J Beill. Lungdunibataroum 1889.

4 - ابن سهل، عيسى بن أصبغ عبد الله الأسدي (ت 486 هـ) : نوازل الأحكام. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ق 370.

5 - ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (ت بعد سنة 712) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج1 و2 تحقيق ج.س. كولان ول. بروفنسال. بيروت 1980.

6 - ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي (ت في القرن 6 الهجري) : فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس نشر وتحقيق الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول الجزء الثاني، طبعة القاهرة 1955.

7 - ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني (ت في أوائل القرن 4 الهجري) : مختصر كتاب البلدان. تحقيق Decoeje. طبعة ليدن 1885.

8 - بالنشيا، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس. طبعة مدريد 1945.

9 - بدر أحمد (دكتور) : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها. ج1 الطبعة الثانية دون ذكر تاريخ الطبع.

10 - البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت 478 هـ) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة بغداد. دون ذكر تاريخ الطبع.

11 ـ سالم عبد العزيز السيد وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس طبعة بيروت 1969.
12 ـ ـــ : مدينة المرية الإسلامية، قاعدة الأسطول الأندلسي. بيروت 1969.
13 ـ عبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238 هـ) : التاريخ الكبير. مخطوطة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد رقم 9. وهي نسخة مصورة عن النسخة الأصلية في بودليانا.
14 ـ عنان، عبد الله محمد (دكتور) : دولة الإسلام في الأندلس. القاهرة 1960 (الطبعة الثالثة).
15 ـ طرخان، علي إبراهيم (دكتور) : المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. القاهرة 1966.
16 ـ طلفاح خير الدين : حضارة العرب في الأندلس. طبعة بغداد 1977.
17 ـ القزويني، زكريا محمد بن محمود (ت 682 هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت 1960.
18 ـ لومبار (موريس) : الإسلام في عظمته الأولى من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر ترجمة ياسين الحافظ. طبعة بيروت 1977.
19 ـ لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. القاهرة دون ذكر التاريخ.
20 ـ لين بول ستانلي : قصة العرب في إسبانيا. ترجمة علي الجارم. طبعة دار المعارف بمصر.
21 ـ مجهول : كتاب مجهول العنوان يوجد في الخزانة العامة بالرباط مخطوطاً ضمن مجموع D 2198.
22 ـ محمود إسماعيل (دكتور) : الأغالبة : سياستهم الخارجية، طبعة البيضاء 1978 (الثانية).
23 ـ ـــ : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي : ج 2. طبعة البيضاء 1980.
24 ـ ـــ : مغربيات، دراسات جديدة، فاس 1977.
25 ـ المقدسي شمس الدين البشاري (ت حوالي 380 هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم نشر DEGOEJE. طبعة ليدن 1906.
26 ـ المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1040 هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 3. تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968.
27 ـ الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914 هـ) : المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. ج 6. نشر وزارة الأوقاف بالمغرب. طبعة بيروت 1981.
28 ـ ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (626 هـ) : معجم البلدان. ج 5. نشر دار الكتاب العربي. بيروت. دون ذكر تاريخ الطبع.

29 ـ يحي بن عمر (ت سنة 287 هـ) : كتاب أحكام السوق. نشره محمود مكي في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. المجلد الرابع سنة 1956.

30 ـ Provençal (L.E) : Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III Paris (maisonneuve). Leiden j Brill 1350.

31 ـ – L'Espagne Musulmane au X° siecle : Institution et Vie sociale. Paris (larose) 1932.

32 ـ Rosseewst (Hilaire M) : Histoire d'Espagne depuis les premiers temps jusqu'à la mort de Fernand VII. 2 Tomes. Paris (sans date d'edition).

33 ـ Viardot : Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Tom I Paris 1851.

إ. ق. ب.

مرّاكش ومنـــارة الكتبـــيّة(*)

حسن التويمي

طـــاوعتـــه لمـــا عصـــاني وأجبتـــه لمـــا دعـــاني
شـــوق يعربـــــد في دمي ويهـــز ـ في عنف ـ كيـــاني
فـــأزرتـــه أرضـــا بهـــا قـــد كـــان يحلم منـــذ آن
فعسى يتـــوب ويرعـــوى ويريحني ممـــا أعـــاني

☆ ☆ ☆

بنت ابن تـــاشفين يـــا أغلى الحرائر... والقيـــان[1]
يـــا دار من الهـــوى ويـــا أحلى المرابـــع والمغـــاني
قـــد كنت من حلم الرؤى فغـــدوت من حلم العيـــان

(*) منارة الكتبية أحد معالم مدينة مراكش العريقة، وهي ثانية المنائر ـ التي بنيت على طراز خاص ـ بالمغرب، بناها يعقوب المنصور على غرار منارة شبيلية وشقيقتها هي منارة جامع حسان بالرباط التي لم يتم بناؤها، فبقيت على حالها.

1) يوسف بن تاشفين هو أحد مؤسسي دولة المرابطين، وهو باني مدينة مراكش.

لله ما أحلاك في هذا الرداء الأرجواني
وأجل قدرك.. أنت في حدق العيون.. وفي الجنان

☆ ☆ ☆

وقفت منارتك العتيدة هاهنا.. كالديدبان
زحمت ذؤابتها السحاب فمال عنها الفرقدان
إني وقفت بها ضحى وقد اعتراني ما اعتراني
فتزاحمت في خاطري أشياء واختلجت معان
البعض أشجاني وبعض حديثها طربا شجاني
فإذا سؤال حائر ما كاد يلفظه لساني
كم مر من زمن عليك وأنت في هذا المكان ؟
تتأملين الحسن أم تحصين أمجاد الزمان
تستقبلين الشمس أوّ لَ ناظر... خلف القنان
تبدو بوجه مليحة صفراء مثل الزعفران
وتغيب عنك مع الأصائل... وردة مثل الدهان
فتودعين رحيلها وعلى جفونك دمعتان
لا تجزعي... فغدا تعود إليك كالخود الهجان

☆ ☆ ☆

قدامك الماضي وما يروي الرواة على لسان...
ووراءك الآتي المطل بكل هذا العنفوان
وعلى يمينك نام فارسك المجلي في الرهان
كالرمح أخلد بعد أن أبلى وكالنضو اليماني

تتطلعين بمقلتيـــــــك إليــــــــه من آن لآن
فكـــــأنمـــــا تخشين أن يسطـو عليـه الحـــادثـــان

☆ ☆ ☆

كم مر من زمن عليـــــك وأنت في هـــــذا المكـــــان
في شطحـــــة الصـــوفي أغرق في المشـــاهـــد والمعـــاني
أو سبحـــــة الفنـــــان حين يلـــج مخلـــوع العنـــان
أو كــــالمحب استغرقتــــه رؤاه فهــــــــو لهن ران
شـــاخ الـزمـــان وأنت حسنـــك يـــا صبيـــة غير فـــان
خطرت حـــواليـــك النخيـــل بمثـــل قـــامـــات الحســـان
فكـــأنهـــا وكـــأنهن ـ على المـــدى ـ في مهرجـــان
حملت بــــواكير الطلــــو ع، وهن أزهـــار الأمـــاني
وأمـــامـــك انبســط «الفنـــا ء» كـــأنـــه مجرى رهـــان
تجرى الحيــــاة بـــه على قـــدم، وتهفـــو رايتـــان
ويمـــوج بــــالآتين والر واد... من قـــــاص ودان
فكـــأنمـــا هـــو مـــوسم متجـــــدد في كـــل آن

☆ ☆ ☆

ترنـــو إليـــك الأمهـــا ت، وهن من وحم عـــوان
فيلـــدن أمثـــال الرمـــا ح شرعن في يـــوم الطعـــان
ويجئن بـــالسمر المـــديـ ـــدات القـــدود من الغـواني

☆ ☆ ☆

كم مر من زمن عليـــــك وأنت في هـــــذا المكـــــان
تسترجعين صـــــدى السنين من المنـــــائـــح... والأغـــــاني

وتلململين الـــــذكريـــــات وأنت ذاكرة الـــزمـــان
أو تـــــذكرين صبـــــاك حين تمر أسراب الحســـان
تغضين إن هن ابتسمن عن الـــــلآليء والجمـــــان
يختلن في حلـــل الشبـــاب كـــأنهن غصـــون بـــان
مـــا هن بـــالبـــدن القصـــار الحجـــدريـــات البطـــان...
العـــاجـــزات عن اقتنـــاص اللب بـــالمقـــل الرواني
المقصـــرات عـــن احتـــراز السبـــق في حلب الرهـــان
أو أن في أرواحهن كثـــافـــة مثـــل الـــدخـــان
بـــل إنهن القـــادرات على الفتـــون والافتتـــان
يصبين بـــاللفتـــات والنظرات والقضب اللـــدان
وطبـــاعهن أرق من نفس الربيـــع على الجنـــان
المخمليـــات المـــلامس... كـــالحرير الخسروان
الراميـــات ومـــا قصـــدن ـ بفـــاتـــك مثـــل السنـــان

☆ ☆ ☆

سحر العيـــون الســـود في ذاك القـــوام الخيـــزراني
هـــو مـــا يشـــد مشـــاعري ويهـــز ـ في عنف ـ كيـــاني
وأنـــا امرؤ تطـــويـــه أحـــيـــانـــا ـ وتنشر... نظرتـــان

☆ ☆ ☆

بنت ابن تـــاشفين يـــا أغلى الحرائر والقيـــان
إني وجـــدت هنـــا، وكنت فقـــدتـــه، دفء الحنـــان
بـــاللـــه لا تـــزهى على تكبرا... وارعى مكـــاني

لــو لا المحبـــة مـــا سمت قـــدمي، ولا شـوق حـــداني
فترفقي يـــا حلـــوة العينيـــن يـــا أغلى الأمـــاني

☆ ☆ ☆

للــــه مـــا أبهـــاك في هـــذا الرداء الأرجـــواني
ويـــد الأصيـــل تمروا نيســة على شرف المبـــاني
هي راحـــة الراقي يمـــو ذهن من إنس وجـــان
أو كف والـــدة حنت عطفـا... ومن كـالأم حـان...
مرت.... تهـدهـد طفلهـا مسحـا بـأطراف البنـان
لينـام بـاسم اللـه ـ من حضن الأمـومـة ـ في أمـان

بنغازي حسن السومي

وفود البيعة
بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم

د. فاروق حمادة

توطئة :

☆ لقد اجتمع العرب على أمر لم يجتمعوا على غيره من قبل، ولم يجتمعوا على سواه من بعد.

أجل ؛ إنه الرابط الذي ضم شملهم، ووحد صفوفهم، ووطد عزمهم، وأعلى شريف مكانتهم، وبعث فيهم روح الحضارة الإنسانية الواسعة التي تتخطى جزيرتهم وتجعل بلادهم قبلة الأحياء أمناً، وعلماً، ومنطلقاً للحياة الرغيدة المطمئنة...

إنه الإسلام، الذي أكرمهم الله تعالى به وخصهم بهبته ومنحته، وبه كان منهم ما كان.

لقد أطبق العرب على الإسلام والدخول في حماه، في حياة رسول الله ﷺ، وجاءوا إلى عاصمته (المدينة المنورة) يهرعون من كل حدب وصوب،

مبايعين على الرضى به - والحمل لأمانته وشرفه، ولئن كان النبي ﷺ قد لاقى العنت والمشقة في الدعوة، فما كان ذلك إلا من قريش ومَنْ والاها فلما سقط معقلهم وخضدت شوكتهم، وجميع قبائل العرب تنظر إلى أمرهم ماذا سيصير، أيقنت هذه القبائل أن هذا النبي حق وما جاء به هو الصدق فأقبلوا إليه، ولم يشذّ عن بيعة رسول الله ﷺ أي قبيلة ولم تتأخر أية جماعة في بلاد العرب، فقد أقبلت إليه الوفود من جنوب الجزيرة، ومن شرقها وغربها، سالما وبلغ عددها أكثر من سبعين وفداً سنعرض لها جميعها بحول الله تعالى.

قال ابن إسحق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تربّص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس، وهاديهم، وأهل البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله عز وجل أفواجا يضربون من كل وجه كما قال الله تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾[1].

☆ وقد استقبل رسول الله ﷺ وفود العرب وسادتهم بواسع الترحاب، وكبير الحنو والمحبة ويظهر ذلك من سروره بهم وترحيبه وهو

---

1) انظر ابن هشام في السيرة 4 / 222.

يقول لهم : (مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى) ومن حرصه على تزويدهم بما يسرهم ويرضيهم من أمور الدين والدنيا، فكان اليوم الذي يحل فيه وفد أرجاء المدينة كأنه عيد عند رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، فيتجمل رسول الله ﷺ بأجمل الثياب - ويكون ذلك في غمرة فرح وسرور بنصر الله. وينزلهم ضيوفا مكرمين في دار خاصة هي دار رملة بنت الحارث، أو يضرب لهم قبة في المسجد الشريف، ويتعاهدهم بنفسه صلوات الله وسلامه عليه للتعليم بكرة وعشيا، ويسائلهم عن أهليهم وبلادهم وأحوالهم. حتى إنهم كانوا يخوضون في أحاديث شتى من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن السيدة عائشة وقد سألها عروة بن الزبير بقوله : يا أمتاه لا أعجب من فهمك أقول : زوجة رسول الله ﷺ، وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ؟!

قال : فضربت على منكبي وقالت : أي عرية، إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له، فمن ثم[2].

وبعد أن ينالوا حظهم من العلم بهذا الدين يؤمر عليهم من يرضونه ويعترفون بفضله ويظهر للرسول ﷺ أهليته لذلك.

ثم يكرمهم بهدايا مادية كان قد خصص لها ربعا من سهام خيبر كما جاء ذلك في الحديث عن بشير بن يسار عن رجال من أصحاب النبي ﷺ أدركهم يذكرون أن رسول الله ﷺ حين ظهر على خيبر وصارت لرسول

2) انظر مسند أحمد 67/6. والأنعات : الوصفات والمقصود بها هنا الطبية.

الله ﷺ.... فقسمها رسول الله ﷺ على ستة وثلاثين سهما جمع كل سهم مائة سهم فجعل نصف ذلك كله للمسلمين، وكان في ذلك النصف سهام المسلمين وسهم رسول الله ﷺ معها. وجعل النصف الآخر لمن ينزل به من الوفود، ونوائب الناس[3].

وبعد أن اجتمعت الأمة العربية على الإسلام التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى قرير العين مطمئن النفس أن جهاده قد آتى ثماره وأن الدين قد توطدت أركانه في ربوع العرب فلا خشية على أفوله أو زواله من هذه الربوع وأن هذه الأمة التي اختصها الله بحمل هذه الأمانة ستحملها في الخافقين، وكذلك كان وإننا سنعالج تباعا قدوم وفود العرب إلى رسول الله ﷺ من وثيق المصادر وصحيح الأخبار مبرزين ما فيها من مواضع العظة والاعتبار مذكرين بأن هذا الموضوع الهام لم ينل ما يستحقه من البحث والدرس فيما نعلم، وهو من أجلّ الموضوعات في السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، لا سيما وإننا نلاحظ أن الكتب النبوية إلى الملوك والأمراء في عصره أو ما يسمى بمجموعة الوثائق السياسية قد لقيت عناية والحمد لله ودراسة بل دراسات، وهذا الموضوع جانب أصيل ومهم في السياسة النبوية، وبناء دولة الإسلام الأولى، وتوحيد صفوف المؤمنين في جوانب أخرى كثيرة.... سائلين المولى تعالى أن يكتب لهذه الحلقات الكمال والتمام، وأن تكون نافعة مقبولة عند الخاص والعام.

---

3) انظر مسند أحمد 37/4، وسنن أبي داوود الحديث رقم 3012.

1) وفد مُزَيْنة :

وهم أول من وفد على رسول الله ﷺ في أربعمائة راكب وذلك في شهر رجب سنة خمس للهجرة، فجعل لهم رسول الله ﷺ المجرة في دارهم وقال لهم : (أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم) فرجعوا إلى بلادهم[4] وكانت منازل مزينة على الساحل بين المدينة المنورة وتبوك وهذا يعني أنها كانت قريبة من مركز الدعوة الإسلامية، فعرفتها من كثب فلا غرو إذا أسرعوا إلى تلبية النداء والانضواء تحت اللواء.

وروى الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي[5] عن النعمان بن مقرن قال : قدمنا على رسول الله ف أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال : يا عمر زود القوم فقال : ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا، قال : انطلق فزودهم، قال : فانطلق بهم عمر رضي الله عنه فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى عُلّيّة فلما دخلنا إذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم، قال النعمان فكنت آخر من خرج فنظرت فما أفقد موضع تمرة من مكانها وقد احتمل منه أربعمائة رجل.

---

4) أخرج ذلك ابن سعد من طريق الواقدي من طريق كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده، والواقدي وإن كان إماما في هذا الميدان فكثير بن عبد الله ضعيف وانظر وفاء الوفا لابن الجوزي 749/2.

5) انظره في مسند أحمد 444/5 وزاد المعاد لابن القيم 36/3، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة 565/3 عن إسناد أحمد رجاله ثقات لكنه منقطع لأن النعمان قتل في خلافة عمر، وسالم بن أبي الجعد لم يدركه، وانظر الاستيعاب 546/3.

قلت : وأخرجه متصلا ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن) رقم 2151 من حديث دكين بن سعيد المزني وكان أحد أعضاء الوفد.

ومن المزنيين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ خزاعي بن عبد نهم، وبلال بن الحارث المزني، وأبو أسماء، وأسامة، وعبيد الله بن بردة، وعبد الله بن درة وبشر بن المحتفر، ودكين بن سعيد وعمرو بن عوف.

وقد أقطع النبي ﷺ بلال بن الحارث هذا معادن القَبَلِيَّة وكتب له بذلك كتابا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث المزني أعطاه معاده القبلية، جَلْسيّها وغَوْريها وجرسها وذات النصب وحيث يصلح الزرع من قُدْس، ولم يعطه حق مسلم) وكتب أبي بن كعب[6].

وقد بايعه خزاعي بن عبد نهم وكان أول من بايعه من الوفد، وكان خزاعي هذا سادناً لصنمهم المسمى (نهم)، فكسر الصنم ولحق بالنبي ﷺ[7] وهو يقول :

ذهبت إلى نُهْمٍ لأذبح عنده ... عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
وقلت لنفسي حين راجعت حزمها ... أهذا إله أبكم ليس يعقل ؟!
أبيت فديني اليوم دين محمد ... إلهي إله السماء الماجد المتفضل[8]

---

6) انظر هذا النص في سنن أبي داوود حديث رقم 3062 ـ 3063 والجلسي هو ما ارتفع من الأرض، وغوريها، الأرض المنخفضة، وقدس جبل عظيم بنجد وقيل هو المرتفع الذي يصلح للزرع.
وحديث إقطاع بلال بن الحارث أخرجه مالك في الموطأ كذلك عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن غير واحد من العلماء.
وأخرجه البيهقي موصولا والحاكم وغيرهما انظر المجموع للنووي 75/6، والأموال لأبي عبيد ص 423.

7) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص 202.

8) أخرجه ابن شاهين، انظر الاصابة 424/1.

فلما بايع ورجع إلى قومه لم يجدهم كما ظن فأقام فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت فقال أذكر خزاعيا ولا تهجه، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ خزاعيّاً رسولا ... بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو ... وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكان خيرا ... إلى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه ... من الأشياء لا تعجز عداء

وعداء بطنه الذي هو منه، قال : فقام خزاعي فقال : يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فانشدكم الله قالوا : فانا لا نبو عليك، قال فاسلموا ووفدوا على النبي ﷺ. وكان من الذين حملوا رايات مزينة يوم الفتح الأعظم فتح مكة، وكانوا آنئذ ألف رجل، وأخوه عبد الله بن عبد نهم ذو البجادين أحد الأواهين كان مع النبي ﷺ في غزوة تبوك قال ابن مسعود : قمت في جوف الليل في غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات فإذا هم قد حضروا له ورسول الله في حضرته، فلما دفناه قال : اللهم إني أمسيت عنه راضيا فأرض عنه.

وأما النعمان بن مقرن فهو أحد القادة الشجعان الذين أبلوا البلاء الحسن في فتوح العراق وفارس وقدم بشيرا على عمر رضي الله عنه بفتح القادسية، وهو فاتح أصبهان استشهد بنهاوند هو وأخوه سويد رضي الله عنهما وأرضاهما سنة إحدى وعشرين هجرية في يوم جمعة.

قال ابن عبد البر : وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وعند ابن سعد أنه كان مع خزاعي ولما جاء نعيه عمر بن الخطاب خرج فنعاه إلى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه وبكى[9].

وأبناء مقرن سبعة كلهم له صحبة وهجرة وفضل.

وكان في هذا الوفد قرة ابن إياس جد إياس بن معاوية الحكيم المشهور، يقول قرة : أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة فبايعناه وإنه لمطلق الإزار فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم، فما رأيت معاوية ولا ابنه قط في شتاء ولا حر إلا مطلقي الإزار لا يزران أبداً[10].

وقد خص النبي ﷺ المزنيين بفضل عظيم جعلهم مع الأنصار واشجع وجهينة وغفار وبني عبد الدار موالي ليس لهم مولى دون الله، والله ورسوله مولاهم.

وفي رواية أخرى : (قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم، وأشجع وغفار موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله)[11] وفضّلهم على تميم واسد وغطفان وبني صعصعة وناهيك بذلك من فضيلة وما ذلك إلا لأنهم نصحوا لله ولرسوله ولدينهم.

---

9) انظر طبقات ابن سعد 292/1 الاستيعاب 546/3، وتهذيب التهذيب 456/10، والبداية والنهاية 120/7.

10) قلت روى هذا الحديث معاوية ابن قرة بن إياس عن أبيه وقد أخرجه أحمد في مسنده 434/3 و19/4 وأبو داوود رقم 4082 وابن حبان في صحيحه موارد 108 وغيرهم.

11) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي فقال حسن صحيح انظر جامع الترمذي 379/4 وجمع الفوائد 588/2.

2 ـ وفد بني أسد بن خزيمة :

ومنازل بني أسد في نجد في مناطق بريدة وعنيزة اليوم وتلك النواحي قدم منهم عشرة رهط في أول سنة تسع بزعامة حضرمي بن عامر بن مجمع أبو كدام ومعه ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد وطليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة فيا بعد ثم عاد إلى الإسلام وحسن إسلامه، ونقادة بن عبد الله بن خلف، فقال حضرمي للنبي ﷺ : يا رسول الله، أتيناك نتدرع الليل البهيم، في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا رسولا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان صادقين**﴾ فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم[12].

وتعلم حضرمي بن عامر سوراً من القرآن الكريم فقال له النبي ﷺ هل تقرأ شيئا من القرآن الكريم، فقرأ (سبح إسم ربك الأعلى... إلى قوله : فقدر فهدى) فزاد : والذي امتنّ على الحُبْلى فأخرج منها نسمة تسعى بين شناف وحشا فقال رسول الله ﷺ : لا تزيدون فيها كافية شافية وفي رواية أنه قرأ عبس وتولى[13]. وسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء منها العيافة والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله، فقالوا يا رسول الله إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت ؟ قال : وما

---

12) أخرجه أبو بكر البزار عن ابن عباس كا في ابن كثير 392/6 وانظر التفسير للطبري مجلد 92/3/9، وطبقات ابن سعد 292/1.

13) انظر الاصابة 341/1 والدر المنثور 338/6، وقد أخرجه ابن شاهين من طرق عديدة.

هي ؟ قالوا : الخط، قال : علمه نبي من الأنبياء فمن صادف مثل علمه علم[14].

وكان من أمر هذا الوفد أن وقف الفارس الشجاع الشاعر المطبوع ضرار بن الأزور بين يدي الرسول ﷺ، فقال : أمدد يدك أبايعك يا رسول الله على الإسلام وأنشأ يقول :

خلعت القداح وعزف القيان ... والخمر أشربها والثمالا
وكري المحبّر في غمرة ... وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلة بددتنا ... وطرحت أهلك شتى شمالا
فيا رب لا أغبنن صفقة ... فقد بعت أهلي ومالي بدالا

فأجاب النبي ﷺ : ربح البيع، ما أغبن الله صفقتك يا ضرار[15]. وكان لضرار بن الأزور البلاء الحسن يوم اليمامة فقد قطعت ساقاه فاقبل يزحف محاربا ثم مات بعد أيام رضي الله عنه.

وكان من شأن هذا الوفد أن طائفة من بني أسد وهم بنو مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد يقال لهم بنو الزّنية قدموا معهم فقال لهم

14) انظر زاد المعاد 48/3 وعيون الأثر 250/2، قال ابن الأثير في تفسير الخط هذا : قال ابن عباس، الخط هو الذي يخطه الحازي، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حلوانا فيقول له : اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطا كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين وغلامه يقول للتفاؤل : ابني عيان أسرعا البيان، فإن بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة. ونقل تفسيرا آخر عن المزي وقال : الخط المشار إليه علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة وهو معمول به إلى الآن ولهم فيه أوضاع واصطلاح وأسام وعمل كثير ويستخرجون به الضمير وغيره انظر النهاية 47/2.

15) انظر الخبر لابن حبيب ص 87 والاصابة 208/2 وفيه هذا الخبر من طريق البغوي وابن شاهين والاستيعاب 211/2.

رسول الله ﷺ : أنتم بنو الرشدة، فقالوا : لا نكون مثل بني محولة، يعنون بني عبد الله بن غطفان[16].

وكان هذا من منهج النبي ﷺ أن يغير الإسم القبيح إلى الحسن.

ومن شأنهم كذلك أن استهدى النبي صلوات الله عليه وسلامه من نقادة بن عبد الله بن خلف أحد أعضاء الوفد ناقة فقال : يا نقادة أبغ لي ناقة حلبانة ركبانة ولا توفها على ولد، فطلبها في نَعَمه فلم يقدر عليها، فوجدها عند رجل فلم يعطها، ثم وجدها عند ابن عم له، يقال له سنان بن ظفير فأطلبه إياها، فساقها نقادة إلى رسول الله ﷺ فسح ضرعها ودعا نقادة فحلبها حتى إذا بقي فيها بقية من لبنها قال : أيْ نقادة أترك دواعي اللبن، فشرب رسول الله ﷺ وسقى أصحابه من تلك الناقة وسقى نقادة سؤره، وقال : اللهم بارك فيها من ناقة وفيمن منحها، قال نقادة فقلت : وفيمن جاء بها يانبي الله قال : وفيمن جاء بها[17] اللهم أكثر مال فلان وولده يعني المانح الأول، اللهم أجعل رزق فلان يوما بيوم يعني صاحب الناقة الذي أرسل بها[18].

ومن مناقب بني أسد بن خزيمة زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وكان السفير في زواجها جبريل عليه السلام، وفيهم جاء عن النبي ﷺ : (أسد خطباء العرب).

16) والزنية في هذا معناها : آخر ولد الرجل والمرأة كالعجزة، وبنو مالك يسمون بهذا لذلك وقال لهم رسول الله ﷺ ذلك نفيا لهم عما يوهمه لفظ الزنية من الزنا، وانظر لسان العرب 360/14، وهذا الخبر أخرجه ابن شبة بإسناد صحيح إلى أبي وائل الأسدي.

17) أخرجه أحمد في المسند 77/5 وابن ماجة في سننه حديث رقم 4134 وانظر طبقات ابن سعد 293/1.

18) انظر الخبر لابن حبيب ص 88.

وفي حديث أبي الدرداء قول النبي ﷺ : يا أبا الدرداء إذا فاخرت، ففاخر بقريش، وإذا كاثرت فكاثر ببني تميم، وإذا حاربت فحارب بقيس ألا إن وجوهها كنانة وفرسانها قيس... الحديث[19].

ويقول الشعبي : قد كانت لبني أسد ستّ خصال لا أعلمها كانت لحي من العرب، كانت منهم امرأة زوجها الله نبيه ﷺ والسفير بينهما جبريل، وكان أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش الأسدي، وكان أول مغنم قسم في الإسلام مغنم عبد الله بن جحش، وكان رجل منهم يمشي بين الناس مقنعا وهو من أهل الجنة وهو عكاشة بن محصن الأسدي، وكان أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي، فقال : يارسول الله أبسط يدك أبايعك، قال على ماذا ؟ قال : علي ما في نفسك، قال : وما في نفسي ؟ قال : فتح أو شهادة، قال : نعمْ، فبايعه فجعل الناس يبايعون ويقولون : على بيعة أبي سنان وكانوا سبعا من المهاجرين[20].

3) وفد طيء، وخبر عدي بن حاتم :

قلت : لقد بوب البخاري في جامعه الصحيح بقوله (باب قصة وفد طيء، وحديث عدي بن حاتم) وساق حديث عدي مع عمر الذي سنذكره من بعد، وكأنه لم يصح له على شرطه إلا هذا الحديث أما قدوم الوفد، وحديث زيد فليست كذلك، وقد ذكره ابن إسحق، وابن سعد وغيرهما.

---

19) أخرجه البزار في مسنده، وفيه سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد 42/10.
20) أخرجه ابن عساكر وسنده صحيح كما في كنز العمال انظر 304/5 بهامش مسند أحمد.

وقدم وفد طيء خمسة عشرة رجلا رأسهم وسيدهم زيد الخيل، وهو زيد بن مهلهل من بني نبهان فدخلوا ورسول الله ﷺ في المسجد، فعقدوا رواحلهم بفناء المسجد ثم دخلوا فدنوا من رسول الله ﷺ، فلما انتهوا إليه كلهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا فحسن إسلامهم ثم تكلم زيد، فقال له عمر : ما أظن أن في طيء أفضل منك. قال : بلى، إن فينا الحاتم القاري الأضياف، الطويل العفاف، قال : فما تركت لمن بقي خيرا، قال : إن منا لمقروم بن حومة الشجاع صبرا، النافذ فينا أمرا[21].

ثم قال له رسول الله ﷺ : (ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني ألا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه)[22]. وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير وقطع له (فيدا) وأرضين معه بناحيته، وكتب له بذلك كتابا.

وساق السهيلي خبر زيد من رواية أبي علي البغدادي وفيه : أن النبي ﷺ لما رآهم قال : إني خير لكم من العزى ولاتها، ومن الحجر الأسود الذي تعبدون من دون الله، ومما حازت مناع، ومن كل ضار غير نفاع، فقام زيد الخيل، فكان من أعظمهم خلقا وأحسنهم وجها وشعرا فقال له النبي ﷺ وهو لا يعرفه : الحمد لله الذي أتى بك من سهلك وحزنك، وسهل قلبك للإيمان ثم قبض على يده فقال : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل وأن أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله فقال له : بل أنت زيد الخير، فبايعه.

---

21) أخرجه ابن عساكر كما في فيض القدير 445/5.

22) انظر ابن هشام في السيرة 245/4، وابن سعد في الطبقات 321/1.

وفيه أن زيدا قال حين انصرف :

أنيخت بآجام المدينة أربعا ... وعشرا يغني فوقها الليل طائر
فلما قضت أصحابها كل بغية ... وخط كتابا في الصحيفة ساطر
شددت عليها رحلها وشليلها ... من الدرس والشعراء والبطن ضامر

والدرس : الجرب، والشعراء ذباب.

وذكر أبو الحسن المدائني : إن زيدا أهدى لرسول الله ﷺ المخذم والرسوب. وكان لصنمهم الفلس[23].

ثم أجاز رسول الله ﷺ الوفد بخمس أواق فضة لكل واحد منهم، وأعطى زيد الخير اثني عشرة أوقية ونشا.

وكانت المدينة وبئة فلما خرج زيد والوفد راجعا إلى قومه قال رسول الله ﷺ : (إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه) وسماها النبي ﷺ باسم غير الحمى قال السهيلي : هو أم كلبة، فلما وصل إلى نجد في ماء يقال له فردة أصابته الحمى بها فمات، فلما أحس بالموت قال :

أمر تحل قومي المشارق غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجد
ألا رب يوم لو مرضت لعادني ... عوائد من لم يبر منهن يجهد
فليت اللواتي عدنني لم يعدنني ... وليت اللواتي غبن عني شهدي

فلما وصلت راحلته إلى امرأته وليس عليها زيد رمتها بالنار جزعاً على زيد فاحترق بذلك ما كتبه له رسول الله ﷺ.

23) انظر الروض الأنف 226/4.

وقيل إن وفاته قد تأخرت بعد وفاة رسول الله ﷺ، قلت : ولكن هذا بعيد لان مثل هذا العلم السيد لابد أن يكون له ذكر في الردة والفتوح، ولم يأت شيء من هذا إلا ما جاء من طريق وثيمة بخبر صغير غير ذي شأن.

وقد كان زيد الخير جميلا وسيما ذكره ابن حبيب فيمن كانوا يتعممون بمكة ضمانة النساء على أنفسهم من جمالهم، جسيما يركب الفرس فتخط إبهاماه في الأرض[24].

شاعرا خطيبا بليغا جوادا يهاجي كعب بن زهير، وله شعر، ذكر بعضه ابن قتيبة في الشعر والشعراء[25].

وترك ابنين هي مكنف وحريث أسلما وصحبا النبي ﷺ وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد.

أما عدي أبو طريف، فقد حدثنا عن خبره هو فقال : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرءا شريفا وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع[26] فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت رسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعياً لإبلي : لا أبالك أعدد لي من أبلي أجمالا ذلك سمانا فاحتبسها قريبا مني، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذني ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عدي، ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن

24) انظر المحبر 232، 233.

25) انظر 292/1.

26) أي يأخذ لنفسه ربع الغنيمة

فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد، قال : فقلت :

فقرب إلي أجمالي فقربها، فاحتملت بأهلي وولـدي، ثم قلت : ألحق بهم بـأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الحوشية، وخلفت بنتا لحـاتم في الحـاضر، فلما قدمت الشام أقمت بهـا، وتخـالفتني خيل لرسول اللـه ﷺ فتصيب ابنـة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول اللـه ﷺ في سبـايـا من طيء، وقـد بلغه هربي إلى الشام، فجعلت في حظيرة بباب المسجد كانت السبايـا تحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقـالت : يـا رسول الله، هلك الوالد وغـاب الوافـد، فـامنن منَّ اللـه عليـك، قـال : من وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم، قال : الفار من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى وتركني، حتى إذا كان بعد الغـد مربي فقلت لـه مثل ذلـك، وقـال لي مثل ما قال بالأمس، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مربي وقد يئست منـه، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه، قالت : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن من الله عليك، فقال ﷺ : قـد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومـك من يكـون لـك ثقـة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني، فسألت عن الرجل الـذي أشـار إلي أن أكلمـه فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة قالت : وإنما أريد أن آتي أخي بالشام قالت : فجئت رسول اللـه ﷺ فقلت : يا رسول الله قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت :

فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطـاني نفقـة فخرجت معهم حتى قـدمت الشام، قال عدي : فواللـه إني لقـاعـد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينـة تصوب إلي تؤمنـا قـال : فقلت ابنـة حـاتم ؟ قـال فـإذا هي هي، فلمـا وقعت علي انسلحت ـ لامت وسخطت ـ تقول : الظالم القاطع، احتملت بأهلك وولدك

وتركت بقية والدك عورتك، قال : ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق له فضل، وإن لم يكن فلن تذلّ في عز اليمن وأنت أنت، فقال : قلت : والله هذا للرأي، قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إلى بيته إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها، قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك، قال : ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إلي فقال : أجلس على هذه، قال : قلت : بل أنت فأجلس عليها، فقال : بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال :

إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسيا[27] ؟ قال : قلت بلى، قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : قلت بلى : قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال : قلت : أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل، ثم قال : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من الحيرة على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه إنك ترى الملك

27) قوم لهم دين بين النصارى والصابئة.

والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال فأسلمت.

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، ووالله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ووالله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه[28].

وفي رواية أن ابنة حاتم وقفت من النبي فقالت له : يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم الطائي، فقال ﷺ : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ـ خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق[29].

وفي البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهما عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلا رجلا ويسميهم، فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي : فلا أبالي إذا[30].

---

28) انظر ابن هشام 247/4، وأخرجه أحمد في مسنده 257/4، 378، وتاريخ الطبري 112/3.

29) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وقال العراقي : بإسناد فيه ضعف، انظر تخريج إحياء علوم الدين 99/7.

30) انظر صحيح البخاري 102/8، وقال السهيلي : وأخته إسمها سفانة ولا يعرف لحاتم بنت غيرها ـ والسفانة : الدرة، انظر الروض الأنف 228/4، والاصابة 329/4.

وكان عدي قد وفى للإسلام وأهله بعد موت النبي ﷺ وأدى الصدقة ومنع من أطاعه من الردة.

وكان من شأنه أنه حين بدأت بعض القبائل تنتقض على الإسلام اتفق مع ابنه أن يرسله لرعي الإبل وأوصاه أن يبعد كل يوم أكثر فإذا جاء في المساء ضربه، وهكذا أياما حتى أبعد كثيرا وانطلق بالإبل فأداها إلى أبي بكر، فكانت نعم العون على قتال المرتدين.

وفي خبر الردة أن طليحة الأسدى أرسل إلى جديلة والغوث أن ينضموا إليه فتعجل إليه أناس من الحيين، وأمروا قومهم باللحاق بهم فقدموا على طليحة، وبعث أبو بكر عديا قبل توجيه خالد من ذي القصة إلى قومه، وقال : أدركهم لا يؤكلوا، فخرج إليهم ففتلهم في الذروة والغارب فبطأهم ذلك عن طليحة، ولما قدم عليهم قالو له : والله لا نبايع أبا الفصيل أبدا فقال لهم عدي : لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم، ولتكنّنه بالفحل الأكبر، فشأنكم به فقالوا له : فاستقبل الجيش فنهنهه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم، فاستقبل عدي خالدا وهو بالسنح فقال : يا خالد أمسك عني ثلاثا حتى يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم، ففعل، ولولا ذلك لم يتركوا فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة فقال له عدي : إن طيئا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيء، فأجلني أياما لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث ففعل فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه

فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه عليهم بركة[31].

وفي رواية أخرى أن خالدا لما رأى ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن قال لهم : هل لكم أن أميل بكم إلى حي من أحياء العرب كثير عددهم شديدة شوكتهم لم يرتد أحد منهم عن الإسلام فقال له الناس : ومن هذا الحي ؟ قال : طيء، فقالوا : نعم وفقك الله نعم الرأي فانصرف بهم حتى نزل بالحيين في طيء[32].

وهذه الرواية من طريق أبي مخنف والسابقة من طريق سيف بن عمر قلت : ولا منافاة بينهما وذلك لأن عديا رضي الله عنه استنقذ قومه فثبتهم على الإسلام فاستنصر بهم خالد لعلمه بثباتهم فنصروه.

4 - وفد تميم :

وفي لقاء هذا الوفد بالنبي ﷺ ومحاورته وإقامته من القرآن والفقه والحكمة والآداب الشيء الكثير مما يجعله جديرا بالتأمل الواعي من كل مسلم وباحث.

وتميم من أهم القبائل العربية وأعظمها شأنا قبل الإسلام وبعده وأكثرها عددا وأشدها بأسا.

ومساكن بني تميم كانت آنئذ بين نجد وبادية البصرة وما والاها. وسبب قدومهم أن النبي ﷺ بعث على صدقات بني كعب من خزاعة بش

31) انظر تاريخ الطبري 253/3، والبداية والنهاية 317/6.

32) انظر تاريخ الطبري 255/3.

بن سفيان، ويقال : النحام العدوي وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة، فاستنكر بنو تميم، وأبو وابتدروا القسي وشهروا السيوف فقدم المصّدق على النبي ﷺ فأخبره، فقال : من لهؤلاء القوم ؟ فانتدب لهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فأغار عليهم فأخذ أحد عشر رجلا، وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فجلبهم إلى المدينة، فقدم فيهم عدة من رؤساء بني تميم منهم عطارد بن حاجب بن عدس بن زرارة، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، والأقرع بن حابس، وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث، ونعيم بن سعد والقعقاع بن معبد، ومعهم لفيف من قومهم[33] وكان عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري والأقرع بن حابس شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم.

فلما دخلوا المسجد، وقد أذن بلال بالظهر، والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فعجلوا واستبطؤوه فنادوا يا محمد أخرج إلينا فخرج رسول الله ﷺ وقد تأذى من صياحهم، فصلى رسول الله ﷺ الظهر ثم أتوه فقال الأقرع بن حابس : يا محمد ائذن لي فوالله إن مدحي لزين، وان ذمي لشين، فقال رسول الله ﷺ : كذبت ذلك الله تبارك وتعالى[34].

33) انظر طبقات ابن سعد 392/1، وعلقها البخاري في صحيحه عن ابن إسحاق 84/8.

34) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وابن جرير في تفسيره مجلد 76/2/9 بإسناد جيد، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد كا في الدر المنثور 86/6.

فقالوا : جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطينا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس، أخي بني الحارث بن الخزرج : (قم فأجب الرجل في خطبته) فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأصدقهم حديثا، وأفضلهم حسبا فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس حسبا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم.

قالو : يا محمد ائذن لشاعرنا فقال : نعم : فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعاد لنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع[35]
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويّا ثم نضطجع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استقادوا فكانوا الراس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان بن ثابت غائبا فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ، فلما انتهيت إليه، وقام شاعر القوم، فقال ما قال، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقام حسان فقال :

إن الذوائب من فهر واخوتهم ... قد شرعوا سنة للناس تتبع[36]
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى إلا له وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... وإن حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

35) البيع واحدتها بيعة وهي موضع الصلوات والعبادات.
36) الذوائب مفردها ذؤابة وهي العالي من كل شيء، ومقصود بها هنا السيادة.

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا[37]
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم طمع[38]
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طمع
إذا نصبنا لحي لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع[39]
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا[40]
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع[41]
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية في أرساغها فدع[42]
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم ... شرا يخاض عليه السم والسلع[43]
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صَنَع[44]
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[45]

---

37) متعوا أي زادوا عليهم وظهروا.

38) لا يطبعون : لا يتدنسون.

39) نصبنا أي أعلنا الحرب والعداء، والذرع : ولد البقرة الوحشية.

40) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم، خشعوا : خضعوا وتذللوا.

41) الخور : جمع أخور وهو الضعيف، والهلع جمع هلوع، وهو الجبان الخائف.

42) الموت المكتنع : القريب الداني، وحلية اسم موضع تنسب إليه الأسود، والارسغ جمع رسغ وهو مربط القيد من اليد، والفدع : الاعوجاج.

43) السلع : شجر مر.

44) الصنع : الصانع الماهر المتقن لما صنعه.

45) شمعوا : إذا ضحكوا ومزحوا.

ويبدو أن الزبرقان بن بدر أحسن بقصوره في قوله الأول فقال قصيدة أخرى هي :

أتيناك كيا يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بانا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتحوا ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[46]
وان لنا المرباع في كل غارة تغير بنجد أو بأرض الأعاجم[47]

فقام حسان بن ثابت فأجابه بعصماء أكثر تركيزا على الوفد من الأولى وأشد وقعا وتحديا لهم فقال :

هل المجد الا السؤدد العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم[48]
نصرنا وآوينا النبي محمدا على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وثراؤه بجابية الجولان وسط الأعاجم[49]
نصرناه لما حل وسط ديارنا بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفسا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ولدنا نبي الخير من آل هاشم[50]

---

46) المعلمين جمع معلم وهو الذي يضع في الحرب علامة ليعرف بها، وانتخبوا : أعجبوا بأنفسكم وتكبروا، والأصيد المتكبر المتفاقم، المتعاظم.

47) المرباع : ربع الغنيمة، وكان الرئيس يختص به ويكنى بذلك عن أنهم رؤساء.

48) السؤدد العود : القديم والمتكرر، والندى : الكرم والعطاء.

49) الحي الحريد المنفرد الذي لا يختلط بغيره لعزته، وجابية الجولان موضع بالشام، يريد شرفهم من غسان ملوك الشام وهم وسط الأعاجم.

50) أم عبد المطلب بن هاشم كانت من بني النجار.

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم[51]
هُبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول ما بين ظئر وخادم[52]
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم ان تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زياً كزي الأعاجم

ولما سمع زعيمهم الأقرع بن حابس ذلك وقف فيهم قائلا : وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم على من أصواتنا[53].

فلما فرغ القوم أسلم من لم يكن منهم مسلما، ونزل فيهم قوله عز وجل : ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم**﴾ الحجرات 4 ـ 5.

ثم وقف النبي ﷺ فيهم فقال لهم : يا بني تميم أبشروا يا بني تميم اقبلوا البشرى، قالوا : بشرتنا فأعطنا، فرؤي ذلك في وجهه، فدخل ناس من أهل اليمن، هم الأشعريون، فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا : قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول

---

51) الوبال : الهلاك.

52) هبلتم : خسرتم وتقدتم، والظئر : التي ترضع ولد غيرها بأجر.

53) الخطب والشعر تجدها في سيرة ابن هشام 222/4، تاريخ الطبري 116/3 والبداية والنهاية لابن كثير 41/5.

هذا الأمر ما كان، قال : كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء[54].

فأعطى النبي ﷺ للوفد جوائزهم ودفعها إليهم بلال اثنتي عشرة أوقية ونشا وكان عمرو بن الأهتم أصغر القوم وقد خلفوه في رحالهم، فقال قيس بن عاصم المنقري للنبي ﷺ : يا رسول الله إنه قد كان منا رجل في رحالنا، وهو غلام حدث وأزرى به لأنه كان مبغضا له، فأعطاه مثل ما أعطى القوم، فلما بلغ عمرو بن الأهتم ما قاله قيس بن عاصم هجاه فقال :

ظللت مفترش الهلباء تشتمني ... عند الرسول فلم تصدق ولم تصب[55]
سدناكم سؤددا رهوا وسؤددكم ... بادٍ نواجذه مقع على الذنب[56]

وكان عمرو بن الأهتم يدعى في الجاهلية المكحل لجماله، وآله كلهم خطباء، قال ابن قتيبة، كان شاعرا شريفا يقال : كان شعره حللا منشرة[57].

---

54) أخرجه البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعه والنسائي عن عمران بن حصين الخزاعي ثم قال عقب الحديث (ثم أتاني رجل فقال : يا عمران ادرك ناقتك فقد ذهبت فذهبت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم) وذلك لحرصهم على العلم والتفقه انظر البخاري 403/13 و286/6 و83/8.

55) الهلباء شعر الذنب، واستعير هنا للإنسان.

56) مقع على الذنب : اقعى الكلب إذا جلس على اليته وضم ساقيه وأمر ذنبه خلفه.

57) انظر الشعر والشعراء 636/2، وهو القائل :

ذريني فإن البخل يا أم هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وبعد أن أخذوا الجوائز وأرادوا الانصراف قال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ أمرّ عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر بن الخطاب : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي، قال عمر : ما أردت خلافك فتاريا، وارتفعت أصواتها فنزل قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾ الآيات من سورة الحجرات 1 ـ 2.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه يحدثه كأخي السرار[58].

وقد جاء في خبر هذا الوفد أن قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم جلسوا إلى رسول الله ﷺ، ففخر الزبرقان بن بدر فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك ـ يعني عمرو بن الأهتم ـ فقال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدنيه، فقال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم، أنا أحسدك ؟ فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الولد، مضيع في العشيرة، (وفي رواية. لزبر المرؤة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال) والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا، وما كذبت فيما قلت آخرا، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت وإذا غضبت

58) أخرجه البخاري في صحيحه انظر 84/8، و376/13 وأحمد في مسنده 6/4 وغيرهما.

قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعا، فقال رسول الله ﷺ : (إن من البيان لسحرا)[59].

وولى رسول الله ﷺ الزبرقان صدقات قومه، فأداها إلى أبي بكر وقت الردة وثبت على إسلامه فأقره أبو بكر ثم عمر على الصدقات رضي الله عنهم أجمعين.

قلت : وفي هذا الوفد وما يتصل به ويتعلق بقصته نزلت سورة الحجرات بأجمعها وفيها من الأدب الإلهي الذي أدب به الأعراب الجفاة وغيرهم ومن الأخلاق الإسلامية الكريمة التي بصرت الناس بطرق المعايشة الاجتماعية والتآلف الحضاري، وفيها من الإنكار على العادات التي تخدش كرامات الناس وأعراضهم وتصون حرمتهم وإنسانيتهم، ومن البيان الذي يؤكد أن كثيرا من الناس يعلنون الإسلام بألسنتهم ولا تتشربه قلوبهم فلا يلتزمون حدوده ولا يسلكون مسالكه ما يجعل هذه السورة بقصة هذا الوفد نبراسا يعيش حيا نابضا في ضمير كل مسلم ليسارع إلى تطبيق أوامرها واجتناب نواهيها.

قلت : ومن قصة هذا الوفد وما جرى بين رجاله وأعيانه أمام النبي ﷺ يتبين أنهم كانوا غلاظا أشداء، وقد بين رسول الله صلوات الله عليه أن هذه الشدة الجاهلية ستنقلب إلى الخير وسيكونون أشداء على الدجال كما بين أنهم من صريح ولد إسماعيل، واعتز النبي ﷺ بهم فقال (قومي) فقد

59) أخرجه أبو نعيم والبيهقي بإسناد حسن لكنه مرسل، وقد وصله ابن شاهين والبيهقي من طريق ابن عباس انظر البداية والنهاية لابن كثير 45/5 والإصابة 543/1 ومجمع الأمثال 7/1.

أخرج البخاري في صحيحه وغيره عن أبي هريرة قال : (لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم : هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال : أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال : هذه صدقات قوم أو قومي)[60].

وعند أحمد في مسنده (أن رجلا نال من تميم عند النبي ﷺ فقال : لا تقل لبني تميم إلا خيرا، فإنهم أطول الناس رماحا على الدجال)[61].

(يتبع)

القنيطرة **د. فاروق حمادة**

60) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري 84/8، وانظر مجمع الزوائد 46/10.

61) انظر مجمع الزوائد 48/10 ورجاله رجال الصحيح.

دفـاعاً عن العربية :

أغلاط شائعة
وتصويبات لغوية بالرجوع إلى القرآن

انتخبها
مصطفى القصري

فيما يلي قائمة من الأغلاط الشائعة إلى يومنا هذا،وقد نقل طرفا كبيرا منها ابن قتيبة في كتابه«أدب الكاتب»،وهو من أهم مصادر الكتب في اللغـة. وإذا تصفحت كتبـا نحويـة أو لغويـة أو أدبيـة ومن بين هـذه الأخيرة مثلا معجم الأدباء والعقد الفريـد ووفيـات الأعيـان، وجـدت فيهـا الإشـارة إلى بعض الأغلاط الشائعة، وهي لا يمكن وضع جرد مستوف لها، وإنمـا هي أهم الأغلاط وأكثرها شيوعا على ألسنة الناس.

على أني أفضل استعمال غلط شائع في الكتابة بدل تصحيح لهذا الغلط دون أن أنبه القارئ إلى ذلك التصحيح. فمثلا قد أتحـدث عن أشفـار العيون بمعنى حروفها ولكن لا يتبـادر إلى ذهن القـارئ إلا الأهـداب، فـأكون قـد غلّطته إذا لم أنبهه إلى القول الصحيح، وهذه كلمة القافلة يقال لها قافلة مهما كان الركب ذاهبا أو صادرا، فأصبح معنى متعارفا عليه بين الناس.

وليس يكفي أن يشيع هذا الغلط من الخليج إلى المحيط عن طريق التلفزة والإذاعة والصحف التي يمكن أن تصف قافلة السيارات خرجت من عمان إلى دمشق، أو نضطر المذيعين والكتاب إلى لزوم تنبيه المشاهدين المستمعين والقراء كل مرة إلى أن القافلة هي التي تقفل وتعود من المكان الذي كانت فيه، فهذا شبه مستحيل.

على أن لدارس العربية أن يتحمل مسؤوليته ويتنبه مهما كان الأمر إلى هذه الأغلاط الشائعة حتى يكون على بينة من أمرها أثناء قراءته ومطالعاته خصوصا إذا كان اهتمامه منصرفا إلى اللغة والآداب العربية. تقول إن الأمر ليس بخطير، بقدر ما هو خطير استعمال التعابير الخاصة بلغة أجنبية معينة وإقحامها في اللغة العربية بترجمة مفرداتها كأنما هي من أصل عربي، على أنه لا بأس من ترجمة بعض التعابير وإثراء اللغة العربية بها خصوصا عن طريق الأمثال إذا تحقق هدف تبليغ المعنى إلى المستمع أو القارئ. ألا ترى هذا المثل الذي أصبح معروفا عند المتكلمين بالعربية عن طريق ترجمته إليها : تمخض الجبل فولد فأرا. فهذا لا يضر العربية في شيء، بل يغنيها إذا لم يكن مقابل له في كلام العرب. أما الشيء الخطير فهو مسخ العربية بإقحامها بعبارات مترجمة حرفيا بينما توجد فيها عباراتها الخاصة بها التي تؤدي المعنى المطلوب على أحسن وجه وأكمل صورة، فننبذ هذه العبارات ونكسي عبارات غير عربية عمامة وعقالا ونزج بها زجا في البيت العربي الذي ابتنى على قواعد ومقاييس معينة صقلتها القرون، نزج بها في لغة لها روحها الخاصة وتنفسها الذي اعتادت عليه، وحركاتها وسكناتها ودمعها وابتسامها وطربها من شدة الجزع أو السرور. ويكفينا الآن أن نرتب البيت العربي ليس إلا.

يقول كتاب صاحب ذرة الغواص عن هذه الروح : «ومن شواهد حكمة العرب في تصريف كلامها أنها جعلت فعلة بفتحها كناية عن المرة الواحدة، وبكسرها كناية عن الهيئة، وبضمها كناية عن الفرد لتدل كل صيغة على معنى يختص به وتمتنع من المشاركة فيه : إلا من اغترف غرفة : بفتح الغين وضمها. فمن قرأها بالفتح أراد بها المرة الواحدة، فيكون قد حذف المفعول به الذي تقديره : إلا من اغترف الماء مرة واحدة. ومن قرأها بالضم غرفة أراد بها مقدار ملء الراحة من الماء».

إن هذا المثل من أسرار العربية، وهاك مثلا آخر من أسرارها وحكمتها وهو أن بعض الحروف حين يكون الواحد قريبا من الآخر في الكلمات فإننا نجده دائما يعبر عن معنى واحد أو متقارب. انظر إلى الجيم والنون متقاربين : فإن وجود هذين الحرفين في الكلمة أكثر ما يعني الستر والسر والخفاء : مجن للحماية، جنون، جنة (محفوفة)، جنين، جنان بالفتح بمعنى القلب جن.

ومن شواهد حكمة العرب كذلك أنك لا تقول مثلا امرأة مرضعة إلا إذا كانت ترضع طفلها ساعة قولك ذلك، بل تقول امرأة مرضع لأن الرجل ليس بمرضع، فاستغنى العرب عن أداة التأنيث في حالة لا حاجة لهم بها، وكذلك الشأن في حامل وطالق وحائض فهذه صفات خاصة بالمرأة.

وفي كتاب الخصائص للفتح بن جني صاحب المتنبي وشارحه كنز لا يفنى وشواهد تكتب بماء الذهب من حكمة العربية وأسرارها تجده مبعثرا هنا وهناك في صفحات هذا المؤلف الثمين.

فهو يحلل بتفصيل في الباب الأول الخصائص في أحوال تصاريف واشتقاقات لفظة «ق و ل» ولفظة «ك ل م» مع تقلب حروفها، فيقلب لفظة «ق و ل» إلى «و ق ل» و«و ل ق» و«ق ل و» و«ل وق» و«ل ق و» فيجد لكل منها نحو الخفوف والحركة والاسراع.

وكان أستاذه أبو علي الفارسي يأخذ بهذه الطريقة ويقول بها، وكذلك الشأن في أصل «ك ل م»، ففي روح هذه الحروف الثلاثة مقلوبة على مختلف الأوجه ومشتقاتها ما يعني الشدة والقوة والعنف. انظر إلى «لكم» بمعنى ضرب «وكلم» بمعنى الجرح، و«ك م ل» تقتضي الشدة لأن الشيء إذا تم وكمل يقتضي القوة والشدة بالنسبة إليه إذا كان ناقصا، و«م ل ك» نفسها تقتضي الشدة، وذلك قدرة وقوة من المالك على ذات يده. ورحم الله شوقي الذي يقول في هذا المعنى :

ولكن توخذ الدنيا غلابا

ويحضرني أيضا في هذا الباب ما ذكر لي الأستاذ عبد الهادي بوطالب في لفظ «ع ب ر» بمعنى التجاوز والمرور من حال إلى أخرى، مثلا عبر النهر، العبرات بمعنى الدموع التي تنزل من الجفن إلى الخد فتعبره، العبير بمعنى العطر الذي يتأرج ويبرز من مكانه ليصل إلى الأنف. العبرة، بمعنى نتيجة التأمل والتجربة، والتعبير هو الإفصاح بالمعنى والخروج به إلى النطق به وإيصاله إلى الآخر. والكلام في هذا الباب طويل وعريض نتركه لمناسبة أخرى.

وحتى الحروف إذا كانت مخارجها قريبة بعضها من بعض فإن المعنى يتقارب أيضا بحسب شدة الحرف أو ليونته. وقد ذكر ذلك ابن جني أيضا

في باب آخر من «المخصص»، فجاء بأمثلة عدة بعد أن علق على ذلك بأنه وجد كثيرا من اللغة «مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها»، ومن هذه الأمثلة «قضم» أنهم قالوا قضم في اليابس «وخضم» في الرطب، وذلك يقول ابن جني : «لقوة القاف وضعف الخاء. فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف». وهكذ بخصوص «صر» الجندب فكرروا الراء لما هنالك من استطالة صوته، «وصرصر» البازي فقطعوه لما هنالك من تقطيع صوته «وسموا الغراب غاق حكاية لصوته والبط بطا حكاية لأصواتها، وقالوا قط الشيء إذا قطعه عرضا وقده إذا قطعه طولا وذلك لأن متقطع الطاء أقصر مدة من منقطع الدال». وهذا ما يسمى بالفرنسية Onomatopée إلى آخر ما جاء في هذا المعنى.

ومما يستملح في هذا الباب أن أعرابيا قرأ أمام أحد القراء قوله تعالى هكذا : ﴿**طيبى لهم وحسن مآب**﴾ فقال له القارئ : قل : طوبى، فقال الأعرابي مرة أخرى طيبى فعاوده القارئ، وكرر عليه طوبى، فقال الأعرابي من جديد : «بل طيبى» فقال القارئ «طوطو» فرد عليه الأعرابي «طي طي».

ومن المستملحات أيضا أن ابن جني سأل يوما أحدهم «كيف تقول ضربت أخوك» ؟ فقال : «أقول : ضربت أخاك» فحاول ابن جني إلزامه الرفع فأبى وقال لا أقول أخوك أبدا فقال ابن جني : «فكيف تقول ضربني أخوك» فرفع الأعرابي، فقال له ابن جني : «ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا، فقال الأعرابي : «إيش هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام». وعلق ابن جني على جواب الأعرابي بهذه الملاحظة الوجيهة : «فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام وإعطائهم إياه في كل موضع حقه وحصته».

أما أعضاء الجسم فهي سماعية أكثر من أنها خاضعة لقاعدة معينة. ومهما كان الأمر فالرجوع إلى القرآن أضمن. فإذا جهلت هل بئر لفظ مذكر أو مؤنث فارجع إلى القرآن تجد هذه الآية : **﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾**. وهذا باب اهتم به أصحاب اللغة طولا وعرضا حتى استنزفوه.

إننا سنورد فيما يلي بعض الأغلاط الشائعة على الألسنة أو الملتبس في أمرها أو تفسيرات قد تكون صحيحة ولكن الأفضل أن يرجع الإنسان في شأنها إلى القرآن. فمن المفردات التي يقع الالتباس فيهما وهي مستخرجة من كتاب «أدب الكاتب» لإبن قتيبة، وكتب أخرى شبيهة به وإنما استخرجناها منها مع بعض الملاحظات حين يقتضي الحال ذلك. كحاطب ليل. والمهم عندنا في هذا كله هو تنبيه الناشئة التي ليس لها من كتب اللغة ما يمكن أن ترجع إليه في أهم ما تريد تصحيحه إذا كان من همها الحفاظ على صفاء العربية وسلامتها كمقوم من مقومات حياتها الروحية، وعنصر أساس ترتكز عليه هويتها الثقافية والفكرية.

الخائن والسارق :

الخائن هو الذي أؤتمن فأخذ فخان **والسارق** من سرق سرا بأي وجه كان، فليس كل سارق خائنا.

البخيل واللئيم :

قد يذهب بعضهم إلى أنهما شيء واحد. وإنما **البخيل** هو الضنين الشحيح **واللئيم** أقبح لأنه جمع البخل ومهانة النفس.

أشفار العين :

يعتقد جل الناس أنه الشعر النابت على حروف العين، وإنما **الأشفار** هي حروف العين نفسها، يقال شفر الشيء بمعنى حده.

الطرب :

يذهبون إلى أنه الفرح فقط، ولكنه هو الجزع كذلك - فالطرب خفة وهزة تصيب المرء لشدة سروره أو شدة جزعه.

القافلة :

يقولون إنها الرفقة في السفر ذاهبة كانت أو راجعة، وإنما **القافلة** الراجعة من السفر لا غير. يقال قفلت فهي قافلة. ولكن الخطأ المشهور هنا خير من الصواب المهجور.

المأتم :

يذهب عامة الناس إلى أنه المصيبة، فيقولون كنا في مأتم، وليس بصحيح - إنما **المأتم** جماعة النساء تجتمع في الخير والفرح أو تجتمع في الجزع والحزن. وأنا أفضل أن يستمر الناس في غلطهم بأن يقولوا المأتم، نظرا للتطور الاجتماعي الذي فرض السكينة والسمت والصمت أمام الموت عوض العويل والنواح.

الحمام :

يذهب الناس غلطا إلى أنه الدواجن التي تستفرخ في البيوت، إنما **الحمام** ذوات الأطواق وما شبهها مثل الفواخت والقماري والقطا، وأما الدواجن التي تستفرخ في البيوت فهي اليمام.

الظل والفيء :

غالبا ما يعتقد أنهما شيء واحد، وليس كذلك لأن الظل يكون غدوة وعشية ومن أول النهار إلى آخره. ومعنى **الظل** الستر ومنها قولهم «أنا في ظلك» أي في سترك وحماك، ومنها ظل الجنة وظل شجرها. وظل الليل سواده، لأنه يستر كل شيء. يقول ابن قتيبة فكأن معنى ظل الشمس ما سترته الشخوص من مسقطها. وأما الفيء فلا يكون إلا بعد الزوال، وإنما يسمى بالعشي فيئا لأنه ظل مال من جانب إلى جانب أي رجع عن جانب إلى جانب، والفيء هو الرجوع ومنه قوله تعالى : **﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾**.

الآل والسراب :

الآل أول النهار وآخره الذي يرفع كل شيء وسمي الآل لأن الشخص هو الآل. وأما السراب فهو الذي تراه نصف النهار كأنه ماء، وهو ما يطابق بالفرنسية mirage. قال تعالى : **﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾**.

العرض :

يعتقد أحيانا أنه آباء الرجل وأمهاته، شتم عرضي بمعنى آبائي غلط منتشر، وإنما **عرض** الرجل نفسه. قال حسان بن ثابت الشاعر :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء

العترة :

يذهبون إلى أنها ذرية الرجل خاصة، وأن من قال عترة رسول الله يريد بها أولاد فاطمة خاصة، وإنما عترة الرجل ذريته وعشيرته الأقربون من مضى منهم ومن حضر. قال أبو بكر الصديق : «نحن عترة رسول الله التي خرج منها».

الخلف والكذب :

لا يفرق الناس بينهما، وإنما **الكذب** يكون فيما مضى وهو أن يقول الكاذب فعلت كذا وكذا وهو لم يفعل، أما **الخلف** فيكون فيما يستقبل وهو أن تقول سأفعل كذا ولا تفعله.

الفقير والمسكين :

لقد فرق الله بينهما في كتابه العزيز إذ قال : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ وجعل لكل صنف سهما، فالفقير تكون له البلغة من العيش، والمسكين هو الذي لا شيء له.

الخائن والسارق :

الخائن هو الذي أؤتمن فأخذ فخان والسارق من سرق سرا بأي وجه كان، فليس كل سارق خائنا.

الحمد والشكر :

لا يفرق الناس بينهما، ولكن **الحمد** هو الثناء على الرجل بما فيه من حسن، تقول حمدت الرجل على فعله وأما **الشكر** له فهو الثناء عليه لمعروف أولاكه.

الجبهة والجبين :

الجبهة ما يضع المرء على الأرض من وجهه حين يسجد في صلاته، فهو إذن مقدم الوجه كالغرة عند الفرس، والجبينان يكتنفان الجبهة من كل جانب جبين.

الأعجمي والعجمي :

الأعجمي هو الذي لا يفصح والعجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا كابن الرومي مثلا.

الأعرابي والعربي :

الأعرابي هو البدوي وإن كان في الحضر، والعربي هو المنسوب إلى العرب وإن لم يكن بدويا. ولكن ابن خلدون يسمى الاعراب عربا.

حاشية الثوب :

يذهب الناس إلى أنها جانبه الذي لا هدب له، وذلك غلط، وحواشي الثوب جوانبه كلها، فأما جانبه الذي لا هدب له فهو طرته.

الهجنة والإقراف :

في الخيل تكون **الهجنة** من قبل الأم من غير **العتاق**، والإقراف ألا يكون الأب من الخيل العتاق، فإذا كانت الأم من العتاق والأب ليس كذلك كان الولد مقرفا.

الحُمَة :

يذهب الناس إلى أنها شوكة العقرب، وشوكة الزنبور التي يلسعان بها، وإنما الحمة سمها خاصة، وكذلك هي ما للحية. ولكن جاء في الشعر العربي الأصيل بمعنى الإبرة، ذكره ابن الرومي في رثاء المغنية بستان.

الحشمة :

يضعها الناس موضع الاستحياء، وإنما هي بمعنى الغضب قال أحدهم : إن ذلك لما يحشم بني فلان. وما كنت أظنه إلا الاستحياء، ولن أقدر أن أستعمله إلا لهذا المعنى بسبب شهرته به.

البديهة والارتجال :

ليس معناهما واحد : فالبديهة فيها الفكرة، والارتجال تدفق الكلام بحيث لا يتوقف صاحبه. وهذه ملاحظة حسنة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار.

الغزل والنسيب :

النسيب هو **التشبيب** بالمرأة، وأما الغزل فهو معاشرة النساء والتخلق بما يوافقهن. ولم أكن أفرق بينهما شخصيا ولن أفرق بينهما مستقبلا نظرا للتعود على ذكر الغزل بمعنى التشبيب.

القاسط والمقسط :

القاسط العالم الجائر، قال تعالى : ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**﴾. والمقسط العادل من أقسط يقسط. قال تعالى : ﴿**فأصلحوا**

بينها بالعدل وأقسطوا﴾. وقال : ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾.

وهناك أغلاط شائعة أخرى وهي من الكثرة بقدر ما يسع منها مجلدا وسنكفي منها بما ورد هنا.

ونورد فيا يلي بعض العبارات التي قد يلتبس على المرء في شأنها هل يجوز أن يستعملها بهذا اللفظ أو ذلك، ولكن الأفضل أن يستعملها كما جاءت في القرآن، فذلك أقوم وأسلم. وجل هذه التصحيحات المقترحة توجد في قواميس اللغة مستشهدا بها من القران، وقد اعتمدنا بالخصوص في هذا المجال كتابا صدر قريبا عنوانه : معجم الأخطاء الشائعة لمحمد العدناني. فجردنا منه ومن غيره التحقيقات التالية التي نجدها مبعثرة في المظان.

استبدل الفضة بالذهب	: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير
برح المكان أفضل من بارحه	: فلن **أبرح** الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي
ينبغي له. لا تقل ينبغي عليه	: لا الشمس **ينبغي لها** أن تدرك القمر
أثمر (لازم) وهو المشهور	: انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. كلوا من ثمره إذا أثمر
زاد الأمر تعقيدا	: زاده بسطة في العلم والجسم
زاد في الأمر تعقيدا	: من كان يريد حرث الدنيا **نزد** له في حرثه
أجاب سؤاله	
ويجوز أجاب عن وعلى سؤاله	: أجيبوا داعي الله
حذر الشيء، حذر من الشيء	: هم العدو فاحذرهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك
أصابني الحُزن أو الحَزَن	: الحمد لله الذي أذهب عنا **الحَزَن**
(الوجهان في القرآن)	: وابيضت عيناه من **الحُزن** فهو كظيم
حاشا لله، حاش لله	: قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء. قلن حاش لله ما هذا بشرا
حُقّ له حق عليه	: وأذنت لربها وحقت

أحاط بالجيش	: ولا يحيطون بشيء من عمله
خشي الفقر وخشي من الفقر	: والله أحق أن **تخشاه**
خفي ـ مخفي : الأفضل خفي	: إذ نادى ربه نداء خفيا. ينظرون من طرف خفي إن تبدوا خيرا أو تخفوه
لا يخفى على	: إن الله لا يخفى عليه شيء ولا يخفى على الله من شيء إن الذين يلحدون في آياتنا **لا يخفون علينا**
أجاب سؤاله أو إلى سؤاله أو على سؤاله والكل صحيح	: أجيبوا داعي الله
حذر الشيء أو من الشيء	: هم العدو فاحذرهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك
خلد إليه، أخلد إليه صحيحان	: ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه
دعاه إلى الجنة وللمجرع	: وداعيا **إلى الله**
انذهل عن الشيء، **ذهل عن الشيء**	: يوم ترونها **تذهل** كل مرضعة عما أرضعت
لا **ذمة له** ـ لا ذمام له لهما نفس المعنى	: لا يرقبون في مومن إلاّ **ولا ذمة**
تربص له ـ **تربص به**	: قل هل **تربصون بنا**
رده لمنزله، رده إلى منزله	: فردّوه إلى الله والرسول. ومنكم من **يرد إلى** أرذل العمر
رزقه الله بالمال (خطأ) والصواب **رزقه الله المال**	: أنفقوا مما **رزقكم الله**
لا تقل أرسل له كتابا بل قل أرسل إليه كتابا	: وأرسلنا إليهم رسلا
تزوج بها ـ تزوجها (صحيحان)	: وزوجناهم بحور عين
سقط في يده، أسقط في يده (الأصح هو الأول)	: ولما **سقط** في أيديهم ورأوا أنهم ضلوا
سلبه ماله، سلب منه ماله (الصحيح هو الأول)	: وإن **يسلبهم** الذباب شيئا لا يستنقذوه منه
تسلل اللص من المخزن أو انسل منه	: قد يعلم الله الذين **يتسللون** منكم لواذا

السِّلْم ـ السَّلْم (صحيحان في المعاجم)	وإن جنحوا للسلم فاجنح لها. فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافة.
سواح، سياح جمع سائح وسياح هو الصحيح (ساح يسيح سياحة) وليس ساح يسوح)	: قل سيحوا في الأرض
سادة ـ سادات ـ أسياد كلها صحيحة	: إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا
شغله ماله، أشغله ماله (كلاهما صحيح)	: سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا : وأهلونا فاستغفر لنا
شك في أمره، شك بأمره	: الصواب الأول : أفي الله شك
شكا همه، شكا من همه	: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله
اشتكى إليه ـ اشتكى له	: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما
تغامزوا أو تغامزوا بالعيون (تغامزوا يكفي. اللهم إلا إذا أشرت إلى الشيء الذي تغامزوا به كالعيون أو اليد أو الحاجب وتقول تغامزوا بفلان أو عليه)	: وإذا مروا بهم يتغامزون
استغابه واغتابه	: ولا يغتب بعضكم بعضا
غاظه وأغاظه	: ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار
أفسح له مكانا وفسح له مكانا الأول خطأ	: إذا قيل لكم افسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم
فكر في، وتفكر في، وافتكر في (كلها صحيحة)	: انه فكر وقدر، ويتفكرون في خلق السموات والأرض
فوض فلانا بالأمر، فوض الأمر إلى فلان الصواب الثاني	: أفوض أمري إلى الله
قال إنه قال أنه : الثاني خطأ	: قال إنه يقول إنها، قال إني عبد الله آتاني الكتاب والحكمة
البئر مؤنث	: وبئر معطلة
الكأس مؤنث	: يطاف عليهم بكأس معين بيضاء لذة للشاربين

نعل أو نعلان ، الثاني هو الصحيح	: فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى
هداه الطريق، وهداه إلى الطريق	: ـ اهدنا الصراط المستقيم
وللطريق كلها صحيحة مذكورة في	: ـ وأهديناهم صراطا مستقيما
القرآن	: ـ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق
كنت أنت البادئ أو البادئ الأول أفصح عند معظم اللغويين، والقرآن هو القول الفصل :	: قال تعالى : كنت أنت الرقيب عليهم ولكن كانوا هم الظالمين
وحده : جاءت مرات في القرآن كلها منصوبة إلا أنهم يقولون فلان نسيج وحدِه وقرين وحدِه	: حتى تومنوا بالله وحده
الوارث، الوريث : الأول هو الصحيح	: وعلى الوارث مثل ذلك
وصل المكان وصل إلى المكان صحيحان	: قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق
وعده، أوعده : (وعده للخير وأوعده للشر) قال الأزهري : في كلام العرب وعدت الرجل خيرا، ووعدته شرا، وأوعدته خيرا وأوعدته شرا، فإذا لم يذكروا الخير قالوا وعدته وإذا لم يذكروا الشر قالوا أوعدته، وفي القرآن :	: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما : وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم
توفى الله فلانا، وتوفي فلان وتوفى فلان كلها صحيحة	: الله يتوفى الأنفس حين موتها، والذين يُتوفون منكم : كما نقرأ والذين يتوفون منكم
وهبه طيلسانا وهب له، صحيحان مذكوروان في القرآن	: يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكورا، فوهبني : ربي، هب لي حكما واجعلني من المرسلين.
جلس بشماله، جلس بشماله (الثاني صحيح)،جاؤوا من كل صوب وحدب،	: جنتان عن يمين وشمال

أو جاؤوا من كل صوب وحدب : وهم من كل حدب ينسلون

اضطر إلى الشيء، اضطر للشيء

الصواب الأول : ثم نضطرهم إلى عذاب النار، إلا من اضطررتم إليه

الأعاريب (هم البدو وسكان الخيام)

الأعراب العربان ، الأول أفصح : الأعراب أشد كفرا ونفاقا

معصوم عن أو من (الثاني أصح) : قل من ذا الذي يعصمكم من الله

الرباط

مصطفى القصري

الكتابة القصصية
في القرن الثاني
-2-

محمد حماد

ومن المفيد الآن أن نرى ما خلفه هذا الأثر الوافد على البيئة الأدبية العربية من معالم إيجابية فيها عامة، وفي فن الخرافة بشكل خاص، على مستوى المضامين التي وقفنا عندها، وعلى مستوى الصياغة الفنية.

أثر كليلة ودمنة في الأدباء المعاصرين واللاحقين :

لقد أعجب أدباء العربية بكليلة ودمنة، وراقهم أسلوبها وما حوته من حكم وأمثال، وقد تبلور هذا الإعجاب في ناحيتين :

أ ـ نظم معانيها من قبل بعض الشعراء تسهيلا لحفظها وإذاعتها، وقد كان البرامكة هم المشجعين على ذلك، خدمة لتراث أسلافهم الفرس إذ خصصوا لهذا العمل جائزة مهمة بلغت قيمتها مائة ألف درهم كما ذكر ابن المعتز في معرض حديثه عن أبان بن عبد الحميد اللاحقي (+ 200 هـ /

615م) الـذي نظم الكتـاب كلـه فيا يقرب من خمسة آلاف بيت، بعـد أن احتال على أبي نواس وصرفه عن هـذا العمل ليستـأثر دونـه بجـائزتـه[1]. ولم يبق من هذا النظم الاشذرات متفرقـة في بعض المظـان، كا فقـد نظم سهل بن نوبخت المعاصر لأبـان[2]. وممن نظموه في وقت متـأخر: أبو يعلى علي بن أحمد الحسين المشهور بابن الهبـاريـة (+ 504 هـ / 1111م) في كتـاب سماه: «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة».

وما يزال إلى اليوم بأيدي الناس.

ومما جاء في مقدمة هذا النظم :

لأن حفـــظ النثر أمر صعب	وكلفـــة يعجـز عنهـــا القلب
الا إذا مـــا حفـــظ المعـــاني	وقصـد الألفـــاظ بـــالنسيـــان
كلت طبـاع القـوم دون نظمـــه	وعجـزوا عن سبكـــه لعظمـــه
الا أبـــان الـــلاحقي الكاتب	فـــإنـــه في نظمـــه لغـــالب
ثم أبـــو يعلى أنـــا فـــإني	نظمتـــه بـــالجهـــد والتغني
متبعـــا فيـــه أبـــان الـلاحقي	وليس وهـو ســـابقي بـلاحقي
فـــإن يكن أقـــدم مني عصرا	فـــإنني أحسن منـــه شعرا[3]

ب - النسـج على منـوالها إذ أخـذ أدبـاء هـذا العصر ومن أعقبهم يجعلون من فن الخرافة قـالبـا يصبون فيـه مـاشاءوا من آداب وحكم تغري

1) ابن المعتز : الطبقات 240 - 241.

2) انظر حاجي خليفة ، كشف الظنون 1508/2.

3) ابن الهبارية : نتائج الفطنة 9.

جمهور المتأدبين بالإقبال على قراءتها والإفادة منها علاوة على أن هذا اللون من التعبير غير المباشر عن الأفكار الاجتماعية والسياسية يعفي صاحبه من كل تبعة قد تلحقه فيما لو اعتمد أسلوبا تقريريا مباشرا.

ومن الذين سلكوا سبيل كليلة ودمنة في التأليف سهل بن هارون الذي صنف مجموعة من الخرافات ذكر منها ابن النديم كتابي «ثعلة وعفرا» و«النمر والثعلب» كما ذكر من قصصه الأخرى كتاب «الهذلية والمخزومي» وكتاب «الوامق والعذراء» وكتاب «ندود وودود ولدود»[4] ولم يبق من هذه الآثار سوى واحد هو كتاب النمر والثعلب الذي عثر عليه أخيرا في تونس وتم طبعه بها.

كما حذا حذو كليلة ودمنة ابن الهبارية السابق الذكر في كتابه المعروف «الصادح والباغم»، وغيره كثير ممن نهج هذا النهج وليس في الإمكان تتبع ذلك لكثرته وقلة الاهتمام بالكشف عنه وإبراز قيمته.

جـ - نقضها والتقليل من شأنها فإذا كان الأثران السابقان عكسا موقف التقبل والإعجاب بكليلة ودمنة، الذي وقفته بعض الأوساط الأدبية سواء في عهد ابن المقفع وما بعده، فإن هناك موقفا آخر لبعض الأدباء يمكن أن ننعته بالسلبية، وهؤلاء هم الذين حاولوا التقليل من شأنها ورفضوا ماأعطي لها من أهمية مدفوعين بعصبية عربية ترىفي التراث الأدبي العربي كل المزايا التي تغني عن النظر في غيره، فوضعوا كتبا قارنوا فيها بين الأمثال والحكم الواردة في كليلة ودمنة وما يضاهيها في أشعار العرب.

---

4) ابن النديم : الفهرست 180.

ونعت هذا العمل بالسلبية لا ينطبق على هذه التآليف في حد ذاتها فلاشك أنها ذات فائدة لا تنكر مهما كان الحافز إلى التأليف وإنما سلبيته تتصل بطبيعة الموقف الذي رفض أن يكون لابن المقفع ـ الفارسي ـ أو لأي كان، فضل السبق في هذا المجال الأدبي.

ومما كتب في هذا الموضوع ـ ولعله أهم ما وصلنا من ذلك ـ كتاب محمد بن حسين اليمني (+ 400 هـ / 1110م)[5] «مضاهاةأمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من الشعر العربي» ومن العنوان يتضح هدف المؤلف وهو توجيه الأنظار إلى أن باب الأمثال والحكم في الأدب العربي موجود منذ القديم، وما جاء منه في كليلة ودمنة مسبوق، وقد اختار المؤلف الشعر مجالا للمقارنة والموازنة ولذلك كان النهج الذي سلكه يقوم على انتقاء المثل أو الحكمة من كليلة ودمنة واتباعها ببيت أو أكثر من الشعر العربي في نفس المعنى على هذا النمط.

«قال صاحب الكتاب» (ابن المقفع) يقال: يعد من البهائم من لم يكن له همة الا بطنه أو فرجه من كان. وقال الحطيئة وهو جرول العبسي.

وإنك الثور الذي لا يعوقه   سوى بطنه فيما يحاول شاغل[6]

وفي مكان آخر «قال صاحب الكتاب: يقال من سكرات السلطان الرضى عمن يستوجب السخط، والسخط عمن يستوجب الرضى، ولذلك قيل

---

5) هو أبو عبيد الله محمد بن الحسين بن عمر اليمني المعروف بالنحوي، من علماء اللغة في القرن الرابع، وقد ألف كتابه في نقض كليلة ودمنة سنة 358 / وأهداه للمعز الفاطمي كما ورد في خاتمة إحدى نسخه. القفطي : أنباه الرواة 112/3 السيوطي : بغية الوعاة 37 والصفدي : الوافي 379/2.

6) اليمني : مضاهاة كليلة ودمنة 12.

خاطر من لجج في البحر وأشد منه مخاطرة من صحب الملوك بغير أدب.

قال يزيد ابن الطثرية :

سخطت ولم أذنب وترضى مخالفا　　كأني أخو ذنب ففعلت معجب

فلو زرت ملكا كنت غير مخاطر　　وإن كنت أدنى واصلا وأقرب

ولو أنني لججت في البحر عائما　　على خطر في لجة أتسرب

منت على وديك فيا تسومني　　مخاطرةفي الناس من ذين أعجب[7]

وطبيعي أن يؤدي هذا النهج بصاحبه إلى شيء من العسف في المقارنة إذ في كثير من الأحيان لا تكون المعاني متقاربة بين الحكمة أو المثل المأخوذ من كليلة ودمنة، وبين ما يسوقه من أشعار، وإن وجدت علاقة ما بينها فهي جزئية أو لا تتجه نحو نفس المقصد. كما أن الاشعار التي أشتمل عليها كتاب اليمني بعضها لشعراء مشهورين يمكن الرجوع إلى دواوينهم للإفادة منها على نحو ما في هذا المضار كالحطيئة وابن الطثرية المتقدمين، وبعضهم الآخر من المغمورين الذين لم يرد في شأنهم شيء فيما وقع بأيدينا من مصادر كعبد الرحمان بن عبد الله ابن عثمان الذي أثبت المؤلف من أشعاره :

نقي لدنيئة ذو اجتناب　　يخاف الله ذو فعل سديد

تستر بالقنوع فكان أبهى　　من الملك المؤيد بالجنود

وأقصى اللهو والشهوات عنه　　فلم يحزن على عرض فقيد

وقارنها بقول ابن المقفع : «يقال من صفة الناسك الوقار والاستتار بالقنوع، ورفض الشهوات للتخلي من الأحزان، وترك إخافة الناس لئلا

7) نفس المصدر 15.

يخافهم».[8] وقد نبه محقق الكتاب الدكتور محمد يوسف نجم على مثل هذه الأشياء في التصدير الذي قدمه به فلا حاجة لإعادتها هنا.

ويهمنا من هذه الأصداء التي أوجدتها كليلة ودمنة ما نسخ على منوالها من خرافات في نفس الفترة التي تتناولها هذه الدراسة وهو كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون المشار إليه قبل قليل وسنسير على نفس المنهج الذي اصطنعناه في بحث كليلة ودمنة مع التنبيه إلى أوجه المقارنة بينهما كلما اقتضى ذلك الأمر.

كتاب النمر والثعلب :

وهو قصة واحدة مطولة بطلها ثعلب يمثل دور الحكيم الراجح العقل البصير بعواقب الأمور. وتتلخص وقائع هذه القصة في أن هذا الثعلب كان يقيم بواد خطر معرض للانجراف بالسيل، فنصحه بعض أصدقائه بالتماس مكان آخر لإقامته حتى يدرأ عنه كل شر محتمل فاقتنع برأيه، ولكن زوجته رفضت الرحيل واعتبرت نصيحة هذا الصديق من باب الحسد، وهكذا وقع ما كان منتظرا وجرف السيل منزل الثعلب وألقى بصاحبه على ساحل جزيرة من جزائر البحر، وهناك التقى بذئب حدثه عن ظروف الجزيرة الخاضعة لسلطان نمر شرس مستبد استأثر فيها بالنعم وحرم أهلها وأذاقهم مرارة العيش. فنصح الثعلب رفيقه الذئب بالتماس سبل التقرب إلى النمر وعرض خدماته عليه لعله يسند إليه أمر إحدى الولايات التابعة له مقابل التزامه بتقديم شطر من إيرادها له، مع كفايته مؤونة إداراتها وحفظ الأمن

8) نفس المصدر 9.

بها. وفعلا قام الذئب بسعاه لدى ملكه فأعجب بكلامه واستحسن رأيه وكتب له عهدا ولاه بمقتضاه على مناهل الضباء. وعندما عاد الثعلب موفقا لم ينس الذئب حسن مشورته فعينه وزيرا له. لكن لم يمض حين من الدهر حتى تنكر الذئب لكل ما التزم به نحو السلطان ولم يعد يبعث له شيئا من الفيء، فكاتبه النمر مستفسرا ثم مهددا متوعدا دون جدوى. وأخيرا بعث له جيشا ليضع حدا لتمرده، ولكن الذئب انتصر عليه في الجولتين الأولى والثانية ولم ينهزم إلا في المرة الثالثة، فقتل وأسر وزيره الثعلب وكاد يلقى مصرعه لولا ما ظهر منه من سداد الرأي وبعد النظر عندما حاوره النمر ووزراؤه في شتى نواحي المعرفة المتصلة بالخير والشر وفضل العلم والعقل وغيرها من المواضيع الأدبية المقصودة لذاتها في الكتاب، إذ استغرق هذا الحوار نصفه تقريبا. وهذا المقصد صرح به المؤلف في مقدمة الكتاب إذ قال : «أما بعد،ايدك الله بتوفيقه، وعصمك بتسديده، فني رأيت أن أصنع لك كتابا في الأدب والبلاغة والترسل والحروب والحيل والأمثال والعالم والجاهل، وأن أشرب ذلك بشيء من المواعظ وضروب من الحكم، وقد وضعت من ذلك كتابا مختصرا موعيا شافيا وجعلته أصلا للعالم الأديب، والعالم الأريب، مما أمكنني حفظه واطرد لي تأليفه»[9].

وعلى هذا فخرافة النمر والثعلب من حيث بناؤها الفني لا تكاد تختلف عن أحد أبواب كليلة ودمنة، بالخصوص في طريقة السرد المعتمدة على الحوار كوسيلة لإلقاء الحكم والمواعظ والآراء في شتى ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية.

9) سهل بن هارون : كتاب النمر والثعلب 8.

شخصية سهل في كتاب النمر والثعلب :

والفارق الأساسي بين خرافة سهل بن هارون هذه وبين كليلة ودمنة يقترن ببروز شخصيةالمؤلف في كتاب النمر والثعلب،لأنه من إنشائه وتخيله فهو مرآة تفكيره ومصب روافد ثقافته في كل ما اشتمل عليه من أفكار تلتقي فيها المعارف الأدبية لهذا العصر، وهكذا اشتمل الكتاب على.

أ - طوابع الثقافة الإسلامية.

وهي مؤشر على تمسك سهل بعقيدته التي لا تشوبها شائبة وعلى معرفة جيدة للتراث الإسلامي عامة، تتجلى في الألفاظ والتعابير القرآنية المبثوثة في مقدمة النص وفي صلبه، كما تظهر من خلال أقوال السلف المستشهد بها أحيانا بطريق مباشر أو غير مباشر. ففي خطبة الكتاب نقرأ الحمد لله الذي فطر العباد على معرفته وأوكل الألسن على عز صفته، وحسم الخلائق عن إدراك كيفيته، وخلق الملأ خلقا نوريا وكون الآدميين ماشاء أطواره وركب البروج وأدار الأفلاك وخلق الليل والنهار، فتبارك الذي بان في ملكوته، والملك الحاكم في بريته، وتعالى الحي الدائم الذي لا يموت، وسبحان المهين القدوس الذي لا يتوارى عنه مارق من مخلوقاته في ليل داج، ولا في سماء ذات أبراج، ولا في أرض ذات فجاج، ولا في بحور ذات أمواج، ولا في ظلم ذات ادعاج، يعلم الخفي وفوق الخفي ودون الخفي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي لا تشتبه عليه الأصوات بضروب اللغات، والعالم بمكنون الخفيات، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده

ورسوله، ونور فلق به الظلمات، وأتم به الكليات، وأوضح به الدلالات، وأقام به الرسالات، وختم به النبوات[10].

ومن أول وهلة نرى الطريقة التي سلكها سهل في حمد الله وتوحيده وإدراك عظمته من خلال ما يتراءى من مخلوقاته تقتفي إثر النص القرآني، فكل عبارة تحيلك على آية من آياته لفظا ومعنى، فتركيب البروج وإدارة الأفلاك وتعاقب الليل والنهار تستدعي قوله تعالى : ﴿**والسماء ذات البروج**﴾[11] وقوله : ﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين**﴾[12] وقوله : ﴿**وكل في فلك يسبحون**﴾[13] و﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[14] وكذلك الأمر في فجاج الأرض وأمواج البحر وظلماته وكذا النعوت المتصلة بالذات الإلهية كالحي الدائم الذي لا يموت، والمهين القدوس، والعالم بما تكنه الصدور... إلى غير ذلك مما هو واضح لا يحتاج إلى إحالة.

وبالإضافة إلى استمداده من القرآن يورد سهل في كتابه نماذج من أقوال السلف الحكمية اعتدادا بها، فما جاء على لسان الثعلب الحكيم منسوبا إلى عمر بن عبد العزيز قوله رحمه الله : «من أهدى لنا عيوبنا»[15].

ومن هذا كله نرى صدور المؤلف عن تفكير إسلامي فيما يتعلق بالإطار الفكري العام الذي يحيط بكتابته ويوجهها، وهو بهذا يتميز عن ابن

---

10) نفس المصدر 7.

11) سورة البروج 1.

12) سورة الحجر 16.

13) سورة يس 40.

14) سورة آل عمران 90.

15) نفس المصدر 8.

المقفع في كليلة ودمنة وغيرها حيث لا ذكر للإسلام ولا للقرآن ولا لأقوال أعلام المسلمين.

ب ـ التراث الأدبي العربي :

تستوقفنا أيضا في كتاب النمر والثعلب ظاهرة حضور التراث الأدبي العربي نظما ونثرا، فكثيرا من الأمثال والحكم التي ضمنها سهل خرافته عربية بعضها من عيون الشعر الجاهلي والإسلامي الذي نسبه إلى قائليه، وبعضها غير منسوب. فمن حكم الجاهليين ورد قول طفيل الغنوي :

إن النساء كأشجار نبتنا معا ... منهن مر وبعض المر مأكول
إن النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واجب لابد مفعول[16]

وقول الأعشى :

شباب وشيب وافتقار وثروة ... فلله هذا الدهر كيف ترددا[17]

ومن حكم الإسلاميين ذكر قول القطامي (+ 101 هـ / 720م) :

وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعه اتباع[18]

وقول أبي الأسود الدؤلي (+ 69 هـ / 688م) :

وليس الرزق عن طلب حثيث ... ولكن ألق دلوك في الدلاء
يجيك بمليها طورا وطورا ... تجيء بحمأة وقليل ماء[19]

16) نفس المصدر 11.
17) نفس المصدر 31.
18) نفس المصدر 11.
19) نفس المصدر 14.

بالإضافة إلى أبيات أخرى أغفلت نسبتها، ومنها :

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الظلام ظلام[20]

أما المنثور فإن أبرز ما يلفت النظر منه نصوص من الرسائل الديوانية ساقها سهل في إطار الصراع الذي نشب بين السلطان (النمر) وواليه (الذئب)، فقبل المواجهة العسكرية بينهما بدأت معركة أدبية كانت المكاتبة وسيلتها في إقامة الحجة على الوالي المتمرد، وفي هذا الصدد جعل سهل نماذج مما اشتهر من رسائل بني أمية وبني العباس معبرة عن واقع الحال في خرافته، ولكون هذه الرسائل غير منسوبة إلى كاتب معين ـ لأن سياق القصة يقتضي ذلك ـ فالدارس لا يستطيع بيسر تبين ما هو مضمن مما هو مبتدع من وضع المؤلف نفسه، خصوصا وان ما وقع بأيدينا من كتابة سهل في هذا المجال لا يفيد في تحديد خصائصها الأسلوبية.

فمن الرسائل الأموية المشهورة التي وردت في الكتاب على لسان النمر تلك التي كان بعثها يزيد بن الوليد إلى مروان بن الحكم في صدر الدولة الأموية، ونصها «أما بعد فإني رأيتك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا نظرت في كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، فإن كنت سلما فاقبل والا فإذن بحرب والسلام»[21].

أما الرسائل المطولة فلاشك أنها تمثل النماذج السائدة في أيام سهل وأحسب إنها من وضع المؤلف نفسه، فمن المستبعد إلا يضمن كتابه شيئا من ترسله مع طول باعه في هذا الميدان، خصوصا تلك التي ساقها في نطاق

---

20) نفس المصدر 33.

21) سهل بن هارون كتاب النمر والثعلب 28 وقد وردت الرسالة منسوبة إلى صاحبها عند القلقشندي في صبح الأعشى 391/4.

التهديد والوعيد، إذ تخير لها صور التعبير المأثورة في ذلك مع التزام السجع والازدواج، وهكذا نقرأ في إحداها «أما بعد فإنك لم تمر بقتل وثاب، صوب سحاب، ولا استدررت به عذب شراب، بل مريت به سوط عذاب، وكأس سلع وصاب[22] لو قد رأيت حلق الحديد مضاعف التشديد، وخوافق البنود[23] محفوفة بالجنود، وبوارق السيوف تضحك إلى الزحوف، وتفتر عن الحتوف، والقنا يتحطم، واليلب يتهشم، والأسنة ترعف[24] والقلوب ترجف، والفرائض ترعد، والسواعد تخضد[25] والهام تتفلق، والرقاب تتعلقم إذن لاستبدلت بفرحك ترحا، وبسرورك ضرحا وباغتباطك ندامة، وبتفريطك ملامة، وبجذلك إيلاسا[26] وبطمأنينتك إنحاسا...[27] والرسالة طويلة تزخر بصور التهويل على هذا النمط.

وفي نفس الموضوع أيضا نقرأ في رسالة أخرى صورا من التعبير والازراء مصحوبة بالفخر والاعتداد بالبطولة في عبارات متتالية تحيلنا على باب المفاخرات القديمة، فنجد «يا ابن اللكيعة وعبد العصا، أبالحرب تخوفنا، ونحن فلق جوانها[28] ومراضع البانها، ومثير عجاجها ورهجها، وخائضوا أغمارها ولججها، وسحائب الدماء بسيوفنا تنهل، وبروقها من

---

22) السلع والصاب : شجران مر طعمها وبها ضرب المثل في ذلك، قال حسان ابن ثابت :

فإن في حربهم فاترك عداوتهم   شرا يخاض عليه الصاب والسلع

23) البنود جمع بند وهو الراية.

24) اليلب الدروع أو خوذة من جلد، وترعف : تقتل.

25) تخضد تكسر.

26) الإيلاس هنا التوجع.

27) سهل بن هارون : كتاب النمر والثعلب 35.

28) الجوان : بمعنى الظلمة وهي بضم الجيم، وفي النص الجوان بفتح الجيم ولا وجه لها.

صفائحنا تنكل[29]، فنحن أبناء الحقوق، وفضلات السيوف، ما نجم قرن فتنة إلا حددناه، ولا سعى علينا فيها باغ إلا أبرناه...[30].

ويهمنا من هذا أن نشير إلى أن التراث الأدبي العربي له حضوره الواسع في كتاب النمر والثعلب فيما أورده سهل من أشعار ورسائل السلف، وحتى فيما نحسبه من وضعه نراه يستلهم فيه الأساليب المشهورة في الموضوع الذي يطرقه.

وأخيرا هناك ظاهرة أخرى تضاف إلى المناخ الفكري العربي الذي يسود في هذه الخرافة وهي أن أبطالها من الحيوان يحملون أسماء وألقابا عربية، فالثعلب سمي مرزوقا، وكني أبا الصباح، وصديقه دعي طارق وكني أبا المغلس، والذئب الذي لقيه في الجزيرة اسمه مكابر وكنيته أبا الفراء، وملك النور خلع عليه لقب المظفر بن منصور، وهكذا يجد القارئ لهذا الأثر الأدبي أنه أمام نص عربي توفرت له كل خصائص بيئته الفكرية والحضارة فجاء مستجيبا لشروط إبداعه.

جـ ـ المعارف العقلية :

بالإضافة إلى هذه الملامح من التراث العربي الإسلامي التي تبرز في كتاب النمر والثعلب، اشتمل أيضا على شذرات من المعارف العقلية تتصل بالمجالين الأخلاقي والسياسي على غرار ما رأيناه في كليلة ودمنة.

ففي المجال الأخلاقي نجد سهل بن هارون يصدر في تفكيره عن ثنائية متكاملة وواضحة المعالم، فالأخلاق عنده تقوم من جهة على أسس إسلامية

---

29) أنكل البرق ، لمع وأضاء.

30) نفس المصدر 32.

تبدأ من خشية الله واجتناب ما نهى عنه مع مسحة من الزهد، يتضح ذلك على سبيل المثال في هذا الحوار بين الثعلب والنمر إذ سأل هذا الأخير «من صغرت الدنيا في عينيه ؟ قال من كرمت عليه نفسه. قال فمن اعظم الناس قدرا ؟ قال من لا يبالي بالدنيا عند من كانت. قال أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم قال أي الناس أعلم ؟ قال أشدهم لله خشية»[31].

ومن جهة أخرى نرى المؤلف يجعل للعقل مكانته الهامة في تحقيق إنسانية الإنسان على المستويين الفردي والاجتماعي، فقد سئل الثعلب الحكيم «أخبرني عن الإنسان وحاله ونقصانه وكماله ؟» فأجاب «معنى الإنسان العقل، إذا رزقه استحق اسم الإنسان، وإذا عدمه فقد نقص ولا يلزمه إلا اسم الصورة»[32] ويتطابق مفهوم العقل عند سهل مع مفهومه في أدب ابن المقفع، فالعقل أداة لجلب المنافع ودرء المضار، فهو المرشد والهادي إلى سبل الخير العام، ومن الأقوال التي وردت في ذلك «العاقل موفق للرشد في كل أمره، ولا تلقاه إلا ناصحا للولاة موقرا للرؤساء، منقادا للفقهاء، موفيا للإخوان، متحرزا من الاعداء، غير حاسد للأصحاب ولا مخادع للأخيار ولا متحرس بالأشرار ولا مشارب على الناس... ولا بخيل في الغناء، ولا ذليل في الفاقة، ولا جالح في الغضب، ولا منقاد للهوى ولا مكذب بالقضاء، ولا متكل عليه، ولا متكلف مالا يطيق، ولا يسعى لما لا يدرك، ولا يعد إلا بما يقدر عليه»[33] فالعاقل على هذا الأساس هو المستفيد من الظروف، المحقق لكل شروط التجاوب مع بيئته.

---

31) نفس المصدر 66.

32) نفس المصدر 47.

33) نفس المصدر 61.

ولا شك أن هذه الثنائية في الفكر الأخلاقي عند سهل بن هارون مصدرها ثقافته المتنوعة المستوعبة للتراث العربي الإسلامي المرتبط بعقيدته الدينية القوية، وللمعارف العقلية التي أصبحت تكون رافدا مهما من الروافد الفكرية للعصر. ثم أن أسلوب سهل في تناول بعض القضايا يكشف عن نزعة منطقية جلية نستشفها من مثل هذا الحوار الذي تناول طبيعة العقل ومراتبه وحظ الناس منه قال فأخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه، أم الناس في نيله مستوون أم متفاضلون ؟ قال:بل متفاضلون. قال : فكيف دعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير فقيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان، فهل يقع اللقب الواحد على ذوي الدرجات الشتى ؟ قال نعم، وليس ذلك بخطإ من القائل، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن تدعو كل ذي درجة من درجات الجنس بلقب غير لقب الآخر، ولو كلفت اللغة ذلك لطال الكلام في غيره لتوزع المعنى المستوجب للام، ولكنها شملت كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد. قال فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد ؟ قال بالتمييز وكشف المعرفة، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت إذ يقال : بناة ونجارون وتجار وخياطون ولكل واحد منهم على صاحبه في الصناعة فضل أو عليه له فضل. فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل، وهم فيما أوتوا منه متفاضلون أحدهم فيه أكثر حظا منه»[34].

34) نفس المصدر 47.

فمثل هذه المناقشة لعلاقة الفكر بالواقع وتدخل اللغة في تصنيف الأشياء وتحديد صفاتها إشكاليات لا يتأتي الخوض فيها واستنباط النتائج منها إلا لمن له قدرة على التجريد مع إحرازه على ثقافة منطقية أحسب أن هذا النص يكشف عنها للقارئ بكل وضوح.

وفي المجال السياسي رأينا أن موضوع خرافة النمر والثعلب يتناول سياسة الملك، وينصب على ظاهرة من الظواهر اللافتة للنظر في أيام سهل بن هارون، وهي استبداد الولاة وطموحهم إلى الاستقلال عن سلطة خلفاء بغداد، إذ بدأت بوارد ذلك منذ أيام هارون الرشيد حين استقلت بعض الدويلات في الغرب الإسلامي كدولةالأغالبة في برقة وبني رستم فيالمغرب الأوسط والعلويين الأدارسة في المغرب الأقصى، وقد أشير إلى ذلك في مدخل هذه الدراسة. وعلى هذا يكون المضمون السياسي للخرافة ـ في إطاره العام ـ وصفا لواقع قائم ولكنه من حيث الصورة التي يقدمها عن الملوك وسيرهم ينطبق مع االآراء التي بسطها ابن المقفع في كليلة ودمنة والأدب الكبير، فجو الاستبداد يطالعنا منذ مدخل الخرافة في الجزيرة التي نزل بها الثعلب مرزوق، حيث سأل الذئب مكابرا عن سر الحرمان الذي يعاني منه سكان الجزيرة مع وجود خيرات بها عبر عنها بكثرة الضباء وبقر الوحش، فأجاب مكابر «ها هنا نمر يقال له المظفر بن المنصور قد تملك على هذه الجزيرة وغلب عليها، وهو من شراسته وبخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة الجور، وإني لأكلمك وما آمنه فرقا أن يخرج فيرانا :[35] وهكذا يكون الاستئثار بالمنافع أول مظهر من مظاهر جبروت الخلفاء

35) نفس المصدر 12.

الذين يرمز إليهم المظفر بن منصور ونتيجة لهذا الوضع غير العادل فإن ولاة الأقاليم كذلك يتحينون كل فرصة سانحة للتنكر لولي نعمتهم والتمرد عليه، وهو ما فعله الذئب مكابر.

وفي حوار آخر جرى بين الذئب ووزيره الحكيم الثعلب نجد وصفا لأخلاق الملوك ينطبق مع ما قدمه ابن المقفع في هذا الباب. قال الثعلب : «أيها الأمير، إن النمر وإن كان من الأخلاق الضيقة على ما قد عرفت وعرفنا، فقد تردى برداء الملك ودعي باسمه وسار بسيرة نظرائه، والملك صبي الرضى كهل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح، يخلط الهزل بالجد ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب، وربما أحفظه الأمر اليسير، وربما أعرض صفحا عن الخطب الكبير، أسباب الموت والحياة معلقة بطرف لسانه، لا يعرف ألم العقوبة فيبقي، ولا يؤنب عن بادرة فينتهي، يخطئ فيصوب، ويصيب فيفرط، مفتون الهوى فظ خليقة، أخرق العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعمله من حرمه وعنايته وطول صحبته أن يقتله لخطرة من خطرات موجدته، ولا ينفك أن يخطب إليه مكانه، وينافس الرجال موضعه، فلا الثاني بالأول يعتبر ولا الملك على ما فرط منه يزدجر...»[36].

ومن هنا نستنتج أن الرافد المشترك في كل من كليلة ودمنة وكتاب النمر والثعلب هو ما يتصل بالفكر الأخلاقي والسياسي الذي برزت فيه نقط التلاقي بينهما، وهو شيء إن لم يكن من تأثير أدب ابن المقفع في سهل فهو يدل على الأقل على وحدة المنبع الذي استقيا منه في هذا المجال.

---

36) نفس المصدر 24.

والذي نخلص إليه من كل ما سبق في هذا الفصل أن الكتابة القصصية في القرن الثاني أخذت اتجاهين متميزين :

1 - أولهما عربي خالص يعد استمرارا للقصص القديم الجاهلي والإسلامي الذي يأخذ مادته من القيم العربية في كل ما يتعلق بالوقائع التاريخية والأعراف الاجتماعية، وفي فهم البطولة والمغامرة والحكمة...الخ.

2 - ثانيهما من نتائج حركة النقل والترجمة والاتصال بالأمم غير العربية، حيث أصبحت المادة القصصية من جملة ما نال اهتمام أدباء هذا الجيل، فتم نقل نماذج من القصص غير العربي ونال القصص الخرافي أكبر نصيب من ذلك الاهتمام لدواع فنية وسياسية أشرنا إليها وقد ترتب عن هذين الاتجاهين وجود ثلاثة أساليب متميزة صيغت فيها هذه الأقاصيص : الأول اعتمد النهج العربي الخالص في أدوات التبليغ والتصوير من امثال واشعار وغيرها، كما رأينا في قصص الجاحظ وأضرابه. والثاني ينم عن روح شرقية عامة في العرض المسهب لعناصر الحكاية، وما يتردد فيه من حكم وعظات كما اتضح في كليلة ودمنة. وثالثها زاوج بين الأسلوبين وأفاد منهما كما هو الشأن عند سهل ابن هارون.

فاس محمد حماد

مقاصد التربية الموسيقية

عبد العزيز بن عبد الجليل

لا نستطيع أن نتحدث اليوم عن التربية الموسيقية بمعزل عن التربية بمفهومها العام كبناء متكامل تندرج في محتواه عملية إعداد كامل للفرد تشمل الجوانب العقلية والخلقية والجسدية والجمالية، كما لا نستطيع أن نستوفي جوانب التربية الموسيقية ما لم نتناول الحديث عنها من زاوية أوسع تشمل سائر الوسائل التعبيرية التي ندرجها فيما يمكننا تسميته بالوسائل الجمالية الاسطيقية.

واعتبارا لهذا وذاك، تشكل التربية الموسيقية ركنا أساسيا في تشييد الصرح القويم لتكوين الإنسان.

ولقد شكلت الموسيقى ظاهرة طبيعية وفطرية عرفها الإنسان منذ عهوده البدائية، واتخذ منها وسيلة للتعبير عن حاجاته، ثم تطور استخدامه لهذه الوسيلة مع تطور ملكاته العقلية ومهاراته اليدوية، لتتحول من صورة

بدائية للغناء إلى صور فنية متطورة تتضافر فيها عناصر الأداء الآلي والصوتي، ولتغدو بفضل ما تمتلكه من وسائل مستحدثة للتعبير والتصوير أقدر على ترجمة المواقف واستجلاء المشاعر والأحاسيس.

ولأهمية التعبير الموسيقى بكل ما تمتلكه اللغة الموسيقية، من خصائص كامنة في الإيقاعات والألحان والأصوات، باتت العناية بتهذيبه وتوجيهه أمرا ضروريا، وبات الاهتمام بتنشئة الناشئة تنشئة فنية صالحة من آكد واجبات المربين، حتى لقد ذهب أحد هؤلاء إلى القول بأن الطفل الذي يعرف كيف يغني لا يعرف الكذب.

والحق أننا إذا عرفنا كيف نستغل ميل الطفل للموسيقى وشغفه بالغناء أمكننا أن نحقق فوائد تربوية جلى، لعل أهمها :

1 - تربية الذوق الموسيقى الجميل، وهو في نظرنا يعني التأهل الجمالي والفني للتمييز بين ضروب الألحان، واستعداد النفس للتجاوب معها بكيفية فعالة، ثم القدرة على استيعاب الآثار الفنية وإدراك ما تعبر عنه من الانفعالات والمواقف سواء كانت هذه جلية السمات يمكن ترجمتها بالكلمات أم كانت خفية لا تترجمها الكلمات.

ولكي يصبح المرء قادرا على التمييز، فلا بد أن يتوفر على عناصر المقارنة والموازنة، وهذا يعني أن يتسلح بالخبرة الفنية، ويعود نفسه على سماع الآثار الموسيقية الرائعة. ومتى عودنا الطفل على سماع الموسيقى النظيفة يسرنا له سبل التعلق بها ووهبناه الحصانة ضد رخيص الأنغام فيما يستقبل من أيامه. ومن هنا تتجلى أهمية الدور الذي على كل من الأسرة والمدرسة أن تلعبه في هذا المضمار.

وكما أن التعرف على فنون الشعوب والاطلاع على وجوه ثقافتها مما يزيد في فهم عقليتها ـ إذ لا تستطيع الإلمام بعقلية الشعب الياباني مثلا ما لم تلم بالمعطيات الثقافية والفنية لهذا الشعب ـ فإن تنمية الذوق الموسيقي لدى المواطن وإطلاعه على نصيب وافر من التراث الموسيقي العربي عامة والمغربي خاصة لمّا يطبع شخصيته بالطابع الأصيل ويكسبه خصائص المواطن الحق.

2 ـ تنمية الفضائل الخلقية، ذلك أن الغناء ـ وخاصة منه الجماعي ـ يؤثر في سلوك الأطفال تأثيرا ملموسا، فيعودهم الجرأة في القول والشجاعة في المبادرة، وينظم حركاتهم تنظيما يحفزهم إلى الأقدام ويصونهم من شائبات التردد. فالطفل بخضوعه لحركات المعلم وإشاراته بالغناء آنا والصمت تارة أخرى ورفع الصوت آنا والهمس آنا آخر، والسرعة طورا والبطء طورا آخر، يتلقى بطريقة تلقائية دروسا عملية في النظام، كما أنه باشتراكه في الانشاد مع مجموعة الأطفال يتعود على فضيلتي التعاون والتضامن.

وينبغي أن تنطلق عملية التربية الموسيقية منذ السنوات المبكرة من عمر الطفل، وذلك استجابة وإرضاء لميوله نحو الموسيقى والغناء والتي تكشف عن نفسها بشكل ملموس وواضح. فإننا نلاحظ أن الطفل قلما ينقطع عن الترنم بما يسمع أو ترجيع ما تختزنه ذاكراته، ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على العلاقة المتينة التي تربطه بالموسيقى كما تربطه باللهو واللعب. ومن يدري، فلعل الغناء أن يكون في عرف الأطفال ضربا من ضروب الألعاب التي يمارسونها.

والواقع أننا نلاحظ اندفاع الطفل نحو الغناء بدوافع مختلفة : فهو آنا يترنم بكيفية تلقائية لا شعورية. وهو آنا آخر يقبل على الانشاد بعزم ورغبة، كما أنه قد يُدفع إليه دفعا. ويمكننا ملاحظة هذه الحالات في ثلاثة أطفال، يبدو أولهم منهمكا في بناء حصن من حصى الرمل، وهو خلال عمله يتغنى، فغناؤه إذن تلقائي لا إرادي. ويبدو ثانيهم منهمكا في الرقص والترنح، فغناؤه اختياري جنح إليه بمحض إرادته لمصاحبة رقصه. أما الطفل الثالث فقد مثل أمام معلمه الذي طالبه بأداء نشيد ما. وهو إذن في هذه المرة يمارس الإنشاد بشكل اضطراري. والطفل في الحالة الأخيرة أكثر اضطرابا، وموقفه أشد حرجا، فهو تحت تأثير الإلزام كثيرا ما يقع في ارتباك ينعكس على طريقة أدائه.

ومن هنا تبدو عملية التعليم صعبة وشاقة، تستدعي حنكة بيداغوجية ممتازة، كما تقتضي أن يتسلح معلمو الموسيقى باتخاذ الحيطة في الاضطلاع بهذه المهمة.

وليس يعني ذلك أن نعمد إلى حرمان الطفل من التعليم الموسيقي، عملا بالمثل السائر : كم حاجة قضيناها بتركها. ذلك أنه من الأكيد أن ذاكرة الطفل ستظل خلوا من معارف معينة طالما لم تقدّم إليه. غير أن هذه الحقيقة لا تنطبق على الآثار الغنائية المسموعة. ولبيان هذا أقول : إنك تستطيع أن تلغي من برامج التعليم ـ مثلا ـ مادتي التاريخ والجغرافية فتسد بذلك أمام المتعلم باب النهل من معارف هاتين المادتين، ولكنك مهما تماد في إلغاء مادة الأناشيد بالمدارس فلن تستطيع الحيلولة دون أن تتسرب الألحان والأنغام إلى أسماع الأطفال وقلوبهم وترسخ في ذاكرتهم، عبر أجهزة الإذاعة المبثوتة أينما حلوا وارتحلوا خارج جدران المدارس والمعاهد.

لكن يبقى أمامنا ـ فقط ـ أن نتساءل عن نوعية ما تتلقاه أسماع هؤلاء الأطفال وتلتقطه، وعن انعكاسات ذلك كله على سلوكهم وأخلاقهم.

وإذن، فلا بد من مواجهة مسؤولية تعليم الموسيقى للأطفال، ولابد من البحث عن وسائل مغالبة صعابها.

وتعتبر مرحلة ما بين السنة الثانية والسنة السادسة من أخطر مراحل عمر الطفل فيما يخص تلقيه للمحفوظات الغنائية. وذلك أنها ـ باعتبارها مرحلة التلقي والخزن ـ تستلزم تصنيفا مسبقا للمادة الفنية وتحديدا دقيقا لنوعيتها، كما تستلزم تحديد طريقة استعمالها وترديدها، وبالتالي إعداد معلمين أكفاء لتلقينها.

ومثل هذا العمل المجهد والمضني يفرض مراجعة شاملة للأناشيد والأغاني التي تروج في أوساط ناشئتنا من أجل فرزها وتصفيتها من الشوائب الفنية، وكذا تنحية ما كان منها صعب المنال، ثم من أجل إغناء خزانتنا الفنية بالألعاب الموسيقية التي تستجيب لرغبة الأطفال في الحركة والنشاط وتعودهم على النظام والانضباط.

كما أن هذا العمل يتطلب أن نتسلح بالشجاعة الكافية لمحاربة ظاهرة تحويل الأغاني الإذاعية إلى أناشيد مدرسية بمجرد استبدال كلماتها، وتلك ظاهرة خطيرة طابعها العام تشويه الألحان من جهة وتمييع أخلاق ناشئتنا من جهة أخرى.

وأخيرا، فإن هذا العمل يستلزم أن ينكب المهتمون بهذا الميدان على تأسيس لجن مختصة يعهد إليها تنظيم ندوات لتكوين الملقنين وإصدار بطاقات فنية دورية تحدد مفهوم الأناشيد المدرسية ومقاييس تأليفها نظما

ولحنا وإيقاعا، وحث ذوي الخبرة على الإنتاج والنشر والتدوين والتسجيل، بهدف خلق خزانة للأناشيد تساير مراحل النمو لدى الطفل. ومن الأنسب أن ننطلق في تعليم الموسيقى من السهل إلى الصعب، ومن الملموس إلى المحسوس، وذلك بتعداد فرص الغناء أما الأطفال وإعدادهم لتذوق جمال الألحان منذ نعومة أظفارهم، حتى تصبح الموسيقى بالنسبة إليهم متعة وتسلية، وهذا يعني أن نتحاشى تقديم القواعد النظرية إلى الأطفال الصغار. وكبديل عنها تتجه التربية الموسيقية نحو اعتاد أناشيد تتصل موضوعاتها بمحيط الأطفال، وركوب وسائل الترفيه من حركة ولعب، وتعريفهم على آلات النقر المعروفة بالباند (كالدف والطبل والجلاجل والمثلث المعدني) وتعويدهم على أن يميزوا بين النغمات الحادة الغليظة وبين أصناف الإيقاعات، ثم بين مصادر الأصوات البشرية منها والآلية بسائر أنواعها.

الابتكار الموسيقي والتأليف الموسيقي :

يعتبر الابتكار ـ على حد تعبير أحد أساتذة الموسيقى ـ ذروة التربية الموسيقية، ويكاد المربون يجمعون على أن من الحقائق المسلّم بها أن الأطفال طبعوا منذ صغرهم على الميل إلى ابتكار الألحان الموسيقية، نلاحظ هذا فيهم حين يعتزلون الناس ويختلون بأنفسهم، ونلاحظه في عزف صغار الرعاة على الشبابات وكأنما يستلهمونها الألحان المعبرة لتؤنسهم في المراعي الفسيحة. ولا بأس أن تهيأ للأطفال فرص للارتجال من حين لآخر، فلعل ذلك أن يقوي ثقتهم واعتزازهم بأنفسهم ويخلق في بعضهم روح الابتكار، ويبث فيهم فضيلة الشجاعة الأدبية. ولا يعني ذلك في شيء أن نطالب الطفل بإنجاز عمل فني مكتمل تتناسق فيه الأنغام وفق أسلوب إنشائي تحليلي دقيق المعالم،

وإنما هي ألحان بسيطة بعيدة عن التصنع والتكلف، يرتجلها الأطفال دونما سابق إعداد أو تفكير، نهتم بجانبها التعبيري ولا نكاد نكترث بجانبها الشكلي.

فالابتكار إذن لعبة، تقود الطفل إلى أن يغني بحرية مثلما تقوده المحادثة إلى الكلام بحرية. وحتى تظل هذه اللعبة محببة إلى نفس الطفل، ينبغي أن تتوفر على عناصر التشويق، وأن يطبعها التسامح والتساهل في الالتزام بقواعد التلحين حتى لا ينقطع خيط الابتكار البدهي وفطرية الوحي والالهام، وأن يسودها جو من التفتح الحر والثقة المتبادلة بين الملقن والمتلقّي.

ومما لا ريب فيه أن الاستماع المستمر إلى الآثار الفنية الرائعة، والاستعانة بذوي الخبرة على تحليلها وتجلية جوانبها الفنية لما يساعد المتعلم الدارس للموسيقى على تهذيب ذوقه وشحذ قريحته وتنمية ملكته، فإذا هو أقدر على ابتكار الألحان وارتجالها، مثله في ذلك كمثل النبع الفياض الذي يتدفق ماء.

وعندما يمارس المؤلف المبدع الكتابة الموسيقية فهو يبدو وكأنه يأتي أمرا طبيعيا لا يختلف عن الأعمال العادية التي يأتيها. وهذا يعني أنه يجد نفسه مقبلا على التأليف كلما أحس في نفسه ميلا إليه، وليس بالضرورة كلما عقد العزم عليه. وذلك أن امتلاك الوسائل التقنية لتركيب الألحان وصوغها قلما ييسر وحده سبل التأليف الجيّد أمام الملحن ما لم يسعفه الوحي والالهام.

وهنـا يكمن الفرق بين مؤلف محترف يجهـد نفسـه الأيـام الطـويلـة في صـوغ الألحـان وكتـابتهـا، وبين مـؤلف آخر يقبـل على التـأليف في بعض الأحيان بوحي من الميل إليه. ومن هنا أيضا نـدرك الفرق بين أعمـال تبرز فيها القدرة على استعراض الأساليب التقنية والتركيبات المعقدة، وبين أعمال أخرى تطبعها البساطة وتخلق المتعة والانشراح لدى المستمع.

وهنا يحضرنا قول الناقدة جيزيل بروليـه «نستطيع أن نميز بين نمطين من المؤلفين الموسيقيين : أول النمطين هؤلاء الـذين يبـدعـون تحت سلطـان الاعتبارات الشكلية، وثـانيهما أولئـك الـذين يخضعون لحـاجتهم إلى التعبير. وعلى ذلك يمكن تحديد الابداع نفسيا أو شكليا».

كما يحضرنـا قول الموسيقـار ليست «ان المـؤلف المـوسيقي المنـدرج تحت النمط الموسيقى البحت والذي يعنى عناية خاصـة بـالتركيب الشكلي للمـادة اللحنية، هـذا المؤلف لا يملـك القـدرة على أن يضيف إلى المـوسيقى أشكالا جديدة أو أن ينفخ فيها قوى جديدة».

ولقـد ظل تشـايكوفسكي زمنـا غير يسير ـ وهـو في طريـق استكمـال خبرته الثقافية في عالم التأليف ـ يسخر من الموسيقيين الذين لا يقبلون على الكتابة والتأليف إلا حين يواتيهم الالهـام ويسعفهم الوحي : فكان يرى أن الموسيقي المؤلف بما يملكه من وسائل تقنية للكتابـة الموسيقيـة في وسعـه أن يعمل بصورة منتظمة، مثله كمثل الاسكاف على حد تعبيره.

ولئن كان تشـايكـوفسكي قـد عـاد فيا بعـد ليـدرك الخطـأ الكامن في محـاولـة «لقـاء الالهـام في منتصف الطريق» وليـدرك أيضـا خطر أن يؤول الأمر بـالفنـان إلى أن يصبح مجرد آلـة للتـأليف، فكثيرا مـا كان يقع تحت

سلطان العادة المتحكمة فيه، فيقبل على الكتابة والتأليف، وذلك ما يعلل وقوعه في مزالق فنية لم يغفرها له النقاد، ومن هذه المزالق افتتاحية ألفها احتفالا بذكرى افتتاح المعرض الفني والصناعي لموسكو، فقد وصفها النقاد بأنها صاخبة جدا، غير أنها خالية من أي حماس ولا تحمل قيمة فنية.

والواقع أن المؤلف عندما يواجه بالسؤال عن طريقته في وضع الألحان قلما يوفق إلى الإجابة بما يكون نهائيا وحاسما، ذلك أنه لن يعدو أن يضع بين أيدي السائلين بعض التوجيهات والنصائح التي يمكنهم من خلال العمل بها الوصول إلى البناء الشكلي والهيكلي للحن الموسيقي. فليست إذن هناك طريقة معينة بالذات لتأليف الألحان الموسيقية، كما أنه ليست هناك طريقة معينة لنظم الشعر، وإلا لجاز لنا أن نسأل فحول الشعراء عن طريقتهم في نظم الشعر وأن نسأل بيتهوفن وموزارت وشوبرت عن طريقتهم في تأليف الألحان الموسيقية، ثم نحذو حذو هؤلاء وأولئك لنزج بأنفسنا في زمرة الشعراء والملحنين.

إن الإنتاج الفني الصحيح وليد المعاناة النفسية والتجربة الصادقة، وإن صلته بمجالي الذوق والخيال لهي أشد وثوقا منها بمجالات الفكر والمنطق والتأمل. وهو إلى ذلك مرتبط بمدى ما للفنان من قدرة وملكة في الصناعة الفنية، ودراية بأساليب التأليف، وحس إنساني مرهف، وموهبة خلاقة مبدعة. ثم هو بعد ذلك مرتبط بمدى تعامل الفنان المبدع مع المقتضيات المستحدثة في دنيا التأليف وتوظيفه للقيم الموسيقية التي تؤدي ضرورات التعبير إلى اكتشافها، وبالتالي مدى قدرته على إنجاز اكتشاف ما في عالم الاحساسات اللحنية.

وهـذا هو مـا يفسر ظـاهرة تنـاول الموضوع الـواحـد من طرف عـدة فنـانين، دون أن تقـع أعمـالهم في عيـوب المحـاكاة أو التقليـد. يقـول شـافنير Schaffner في المجلـة السيكـولـوجيـة لسنـة 1926. ان فـاجنيروديبـوسي وسترافنسكي لم يكتبوا «تريستـان» و«پليـاس» و«طقوس الربيع» على التـوالي إلا حين أصبحت هناك تآلفات جديدة صالحة للسمع تمام الصلاحية.

وعنـدمـا نقف على أبي تمـام وهو يـذكر الأوقـات المفضلـة إليـه لنظم القريض، أو نقف على بتهوفن وهو يتحدث عن لحظات الالهام فـإن الـذي ينبغي أن نستلخصه لا يتجاوز تحـديـد الجو النفسي أو الإطـار الفني الـذي يغريها بالإنتاج.

سئل كلوك. وهو من مـوسيقيي القرن الثـامن عشر ـ عن طريقتـه في التلحين، فأجاب : إنني أبدأ بتخيل الصورة البنائية لتـأليفي، ثم انظر إليـه من خلال هذه الزاوية الخيالية وكأنـه أثر جـاهز قـائم الـذات، غير أن هـذه العملية التحضيرية تتطلب منى في العادة سنة كاملة من العمل الشاق الذي ينتهي بي في الغالب إلى فراش المرض.

تربية الإحساس السمعي :

ولقد تبين لنا مما سبق أن النظريـات الموسيقيـة والقراءة الصولفـائيـة ليست غـايـة لـذاتهـا، وإنمـا هي بعض من وسـائل تعلم الموسيقى. وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن أول ما يجب الاهتمام به في هـذا المضمار العمل على تنمية الإحســاس السمعي لــدى المتعلم. أمــا التسرع في عرض النظريــات وتحليلهـا فكثيرا مـا كان سببـا في فشل عمليـة «تربيـة الأذن»، كما كان وراء عوامل نفور الناشئة من الأقسام الأولى بمعاهد التعليم الموسيقى.

يقول روبير شومان في رسالة وجهها إلى بعض تلامذته : «إن تربية الأذن لهي الغاية القصوى من تعلم الموسيقى، فعوّد نفسك منذ الصغر على التمييز بين النغمات والقرارات، واختبر الأصوات التي يحدثها النقر على الأجراس والقارورات... ان الشيء الأساسي لهو التوفر على أذن موسيقية ذواقة ولن يتأتى لك أن تصبح موسيقيا بإقبالك على الدراسات النظرية التقنية فحسب، بل باكتشافك عالم الموسيقى في جميع أشكاله وصوره».

ويقول هايدن : «كلما أحسست بجمال قطعة موسيقية كان معنى ذلك أنها تروق أذني وقلبي أكثر مما هي تستجيب لمقتضيات القواعد المدرسية الجافة».

ولعلنا نستخلص من هاتين المقولتين أن حاسة السمع تلعب دورا أساسيا في تحقيق الأغراض التي تتوخاها التربية الموسيقية، وأن الاهتمام بها أمر ضروري يفرض اتخاذ الوسائل الكفيلة بتنمية الإحساس السمعي لدى الأطفال.

ولن يتأتى ذلك إلا بواسطة الإكثار من فرص استماع الأطفال إلى الآثار الموسيقية الرائعة عن طريق الأشرطة المسجلة العزف الحي، وكذا تدريبهم على حسن الاصغاء، واثارة شوقهم إلى الغناء، على أن تكون النماذج الموسيقية المقترحة عليهم من النوع المعبر الحي والذي يناسب مستواهم ويساير نمو إدراكهم.

ولئن كان قد تهيأ لبعض الناس أن يخطوا الألحان على الأسطر بواسطة الرموز الموسيقية المتداولة، وأن يخضعوها بذلك لرؤية العين، فيجعلوا طريقها إلى القلب قرائية بصرية، فلقد كانت الموسيقى وما تزال

لدى أغلب الناس ألحانا مسموعة لا خطوطا مرئية، كما كانت الأذن وما فتئت طريقها إلى القلب والروح قبل غيرها من الطرق، فإن طريقة السمع أصل في الإنسان من سائر وسائل الوعي الأخرى، وإنها أقرب إليه تناولا، تأتيه عفوا دونما تكلف وتأتيه غريزة دون إجهاد فكر. ولقد أوتي كل أمرئ هذه الطاقة السمعية، إلا من حرمته الحكمة الإلهية نعيمها. ولكن الذي تختلف حظوظ الناس فيه هو مقدار ما يتفهمه كل امرىء ويتجاوب معه مما يسمع. وهذا أمر لا يرجع إلى السماع كحاسة مجردة، ولكنه يرجع إلى حظ الفرد من الثقافة الموسيقية، ومدى استعداده لاستيعاب ما تلتقطه أذناه والقدرة على تحليل ما تسجلانه. وتلك ملكات لا نغالي في القول إذا ذكرنا أن حظوظ الناس منها ضئيلة، اللهم إلا فئة قليلة ممن أسعفتهم الموهبة الوقادة والقريحة الخلاقة والعبقرية المبدعة. وما أقل أن يجود الدهر بهؤلاء.

ونحن عندما نتناول عملية الاستماع ذاتها بالتحليل فسنلاحظ أن الناس جميعا يمارسون الاستماع على ثلاثة مستويات اسماها بعض المهتمين بالأسماء التالية : المستوى الحسي، والمستوى التعبيري، والمستوى الموسيقي البحت.

وكما لمسنا - من قبل - الفرق بين درجات التغني لدى ثلاثة أطفال، تختلف مستويات اهتمامهم وانشغالهم بالغناء، ما بين غناء لا شعوري وآخر إرادي وثالث اضطراري، فإننا نلمس من جديد أن مستويات الاهتمام بالأثر المسموع هي بدورها تتفاوت بين الأنماط الثلاثة المطروحة للعرض فيما يأتي :

1 - **الاستماع الحسي :** تنحصر مقاصد الاستماع الحسي في مجرد حصول التمتع بالأصوات الموسيقية ذاتها. فالمستمعون في هذه الحالة يستسلمون

للاستماع دون إجهاد فكر في محاولة منهم للوقوف على وجوه التعبير الموسيقي أو استكناه مرامي المؤلف. ولكنهم يبدون منشغلين عن كل ذلك بانهماكهم في أداء عمل آخر. وتندرج تحت هذه الفئة مجموعة كبرى من المستمعين، وحتى ممن قد يعتبرون أنفسهم من ذوي الدراية بالموسيقى والشغف بها. وطبيعي أن هؤلاء المستمعين يسيئون استخدام المستوى الحسي للسماع حينما يغشون حفلات الموسيقى ودور العرض بدعوى أنهم يريدون نسيان أنفسهم، أو يطمحون في استعمال الموسيقى كوسيلة للتعزي عما يصادفهم في الحياة من مشاق أو يعترضهم من صدمات، أو أنهم يهربون عبرها من أعباء الأعمال المضنية. ومن ثم فأنت تراهم خلال حصة السماع منشغلين في أحاديث صاخبة، تتحول بهم أحيانا إلى مجادلات حادة، كما تتحول بهم أحيانا أخرى إلى ضرب العقود أو فك الالتزامات.

ولكن بعيدا عن هذه الأنماط من المستمعين، نجد جماعة من الناس، يستهويهم الاستماع الحسي فيحرك فيهم حساسية نحو بعض الجوانب التي تكشف عن درجة مرموقة من الوعي الموسيقي لديهم، وذلك مثل المادة الصوتية ذاتها، وكتباين أساليب استعمالها وطرق استخدامها بين مؤلف وآخر، وهم يهتدون نسبيا إلى معرفة أهم الخصائص الفنية التي تميز هذه الأساليب عن بعضها، كما يقفون إلى حد على طرق توظيف تلك الأساليب في التعبير الموسيقي، وذلك بهدف ربط تواصل أوثق مع الأثر الفني وتحقيق متعة نفسية أعمق من خلال سماعه، ومن ثم فهم يقيمون الدليل على أن الاستماع الحسي لا يخلو من وعي بالجمال الموسيقي وإن يكن هذا في مستوى أولي.

2 ـ **المستوى التعبيري :** يأتي المستوى الثاني الذي يقوم عليه الاستماع الموسيقي، وهو ما أسميناه سابقا بالمستوى التعبيري. ويراد بهذا المستوى محاولة تفسير اللغة الموسيقية واستجلاء المعاني التي تعبر عنها والحالات النفسية التي تصدر عنها.

وسوف نلاحظ منذ البداية أن الاستماع من هذا المستوى يستدعي توفر المستمع على مجموعة من القدرات والمزايا الفنية في مقدمتها حصيلة لا بأس بها من الثقافة الموسيقية، وقدرة بينة على تركيز الانتباه إلى الأثر المسموع، وخيال خصب قمين بالغوص في ثنايا الإنتاج الموسيقي والكشف عن وجوه جماله وتحليل مسار ألحانه.

وسوف نلاحظ بعد ذلك أن تضافر هذه القدرات لدى المستمع سينتهي به إلى توظيفها فيما يمكن أن نسميه بعملية التحليل الاسطيقي للإنتاج الموسيقي، وذلك من خلال الكلمات التي يوظفها فيما يستوحيه من تصورات ويستلهمه من معاني.

والواقع أن الموسيقيين يقفون إزاء هذا النوع من التحليل مواقف تطبعها السلبية غالبا. ذلك أن بعضهم يؤثر القول بأن الموسيقى لا تحمل أي معنى مجرد، بل يذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فيقولون : إن الموسيقى إطلاقا ليس لها من معنى إلا معناها الموسيقي البحت. وهم يريدون بذلك أن معنى الموسيقى «وهم أو هو كالوهم. وهو إن تكشف أمامك يوما فلن يتأتي لك التعبير عنه في كلمات محدودة». وإذن فمن العبث في نظر هؤلاء تجسيم الموسيقى فيما يذكرك بصوت القطار أو قصف الرعد، أو يوحي إليك باستعراض مواكب المهاجرين أو جحافل الجيوش

المنتصرة أو فلول الجيوش المهزومة. وإنما تلك تصورات صنعها الخيال، لا تمت إلى الواقع بصلة، وليس لها من أثر في الرفع أو النقص من قيمة العمل الفني ذاته.

وهم يرون بعد ذلك أن الموسيقى التي تحمل بكيفية دائمة شيئا واحدا لا يتغير، أو توحي بإحساس لا يتجدد، تنتهي بالمستمع إلى الملل في حين أن التي تتغير تركيباتها وتتجدد ألوانها تظل دائما حية، ولذلك فهم يفضلون موسيقى سانفونيات بتهوفن مثلا على لوحات تشايكوفسكي. والواقع الذي لا يسعنا إنكاره هو أنه لا سبيل إلى تبين المعنى المقصود في أية قطعة موسيقية بشكل نهائي حاسم يرتاح إليه كل الناس. ومع ذلك فمن باب الاقرار بالحق القول بأن للموسيقى قدرة خارقة على التعبير، وأن من وراء ألحانها معنى أو شعورا أو حالة نفسية، ثم القول بأن الكلمات غير قادرة على تحديد ذلك المعنى أو تشخيص هذا الشعور، وبأنها تزيد قصورا وعجزا كلما كانت الألحان الموسيقية مشرقة وجميلة. فإن أنت أسعفتك الكلمات مرة بوصف أو تفسير تطمئن إليه نفسك فلن يبلغ هذا الوصف من نفوس الآخرين ما بلغه منك، ذلك لأن اللحن الواحد قد يوحي بمشاعر متنوعة تختلف من شخص لآخر، كل حسب طبيعة انفعالاته وتبعا لصنف مزاجه، واعتبارا لظروفه.

3 ـ **المستوى الموسيقي البحت** : يدركنا الآن المستوى الثالث. ونعني به الاستماع الموسيقي البحت الذي يمثل قمة مستويات الاستماع، والذي قلما يدركه جمهور المستمعين. ويتجه الاستماع من هذا المستوى إلى استجلاء العناصر المكونة للبناء الموسيقي في عملية تحليلية تستهدف سبر

أغوار تلك العناصر ومعرفة طبيعة تركيبها وبنائها والوقوف على مواطن قوتها أو ضعفها، وطريقة المؤلف في توظيفها لخدمة فكرته.

وهكذا نجد المستمع من هذا المستوى منغمسا في تقصي قضايا ذات طبيعة تقنية بحت، مثل صنوف الإيقاعات التي استخدمها المؤلف، أو منهمكا في تقصي أسلوب التأليف العلمي لديه، أو مستعرضا التوافقات التركيبية التي التجأ إليها، أو متتبعا طريقته في هرمنة الألحان الموسيقية.

وطبيعي أن عملا من هذا القبيل لن يتأتى إلا لمن خبر القواعد الموسيقية وكان على دراية عميقة بقواعد وأساليب التأليف الموسيقى، كما كان على درجة لا بأس بها من الوعي بمواطن الجمال في التعبير الفني، وتوفر على حظ غير قليل من القدرة على التحليل والمقارنة.

أما المستمع العادي فإنه مهما بلغت درجة تركيزه عند الاستماع فلن يتجاوز حدود إسقاطات سطحية تقف عند وصف هامشي لعناصر البناء الموسيقى، فيرى مثلا أن هذا اللحن جميل أو غير جميل وينعت هذا الإيقاع بأنه باهت أو خافت، وذاك بأنه مثير أو حثيث، على حين يسلم في سهولة مفرطة بقضايا الهارموني والطابع الصوتي والقالب الفني وغير ذلك من الأمور التقنية التي قلما تخطر له على بال.

وعلى الرغم من هذا التقسيم لمستويات الاستماع، فإن الذي ينبغي إدراكه هو أن المستمع الواحد قلما يستقر لفترة طويلة من الزمن عند مستوى معين من مستويات الاستماع الثلاثة التي أتينا على ذكرها آنفا بل هو يتنقل عبرها في غير انتظام ودونما جهد عقلي يبذله : مثله كمثل الرجل

المقيم في شقة تتكون من مرافق متعددة تحمله الضرورة والعادة معا على أن ينتقل عبرها في غير انتظام كذلك.

وإذن، فالمستمع النموذجي هو ذلك المرء الذي تستهويه المادة الصوتية لذاتها، فتخلق لديه إحساسا بالمتعة والاطمئنان، أو يسمو به الاستماع إلى مستوى أعلى، فتولد فيه الألحان مشاعر الألم أو مشاعر الفرح، أو يرقى به الاستماع إلى مستوى التعامل مع المسائل التقنية التي استخدمها الموسيقي في تأليف عمله، وهذه هي مراتب الاستماع التي تتفاوت فيها درجات التفاعل مع الأثر الفني الواحد.

ونعود الآن لتناول اللغة الموسيقية من وجهة أخرى، ونعني بها وجهة العناصر التي يتألف منها الأثر الموسيقي وكذا المقومات الأساسية التي ينبني عليها، ليأخذ صورته الفنية الكاملة.

وبالفعل، فلقد حظي هذا الموضوع في مختلف العصور بعناية الفلاسفة والمنظرين، كما كان وما يزال المحور الرئيسي لأعمال النقاد الموسيقيين، الذين اتخذوا من هذه العناصر المقياس الأساسي لتقييم الإنتاج الموسيقي، وذهبوا في تحليلها مذاهب شتى، حتى ليوشك الدارس الذي يستعرض آراء هؤلاء بغية تلخيصها أو التوفيق بينها أن يتنكص عن هذا السبيل لما يعترضه من عقبات كأداء يولدها اختلاف الرأي وتشعب وجهات النظر.

فقد كان أفلاطون يرى أن الأثر الموسيقي يقوم على عناصر ثلاثة هي الكلمات واللحن والإيقاع، وكان بمقتضى هذا التحديد يربط الموسيقى بالأمر الشعري، بل إنه يكاد يسخر عنصري الإيقاع واللحن لخدمة الكلمة.

ومن ثم جاءت الكلمات في رأي أفلاطون في مقدمة المقوّمات التي تقوم عليها اللغة الموسيقية.

أما ابن خلدون فقد لخص النظريات السائدة على عهده في مقدمته لكتاب العبر فذكر أن عناصر اللغة الموسيقية ثلاثة أيضا «هي التناسب البسيط، والتناسب المركب، والتقدير بالعدد» فأما التناسب البسيط، فيكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه إلى تعلم ولا صناعة. وهو إذن اللحن المنفرد الذي تتعاقب عبره النغمات المنفردة في انتظام واتساق. «وأما التناسب المركب فليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم، وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى». وواضح من كلام ابن خلدون عن التناسب المركب أنه يعني الهارموني أو أسلوب ائتلاف مجموعة من الألحان في جملة موسيقية واحدة أو ما نسميه البوليفونية. وأما التقدير بالعدد فهو عند ابن خلدون ما يدل على الإيقاع. وشبيه بقوله فيه قول فانسان داندى (1850 ـ 1931) في كتابه «دروس في التأليف الموسيقي» : الإيقاع يعبر عنه بالأعداد، وهو يتصل بعلم الارتماطيقي.

وانّنا لنلاحظ أن عناصر اللغة الموسيقية عرفت نوعا من التحول مع ابن خلدون، فهو أولا ـ عدل بالمرة عن ذكر الكلمات كعنصر أساسي من عناصر الموسيقى، وبذلك خالف وجهة نظر أفلاطون، وهو ثانيا أضاف عنصرا جديدا وهو الأنغام المركبة أو ما عنى به أسلوب تركيب الألحان في صورته البوليفونية المبسطة. ولئن كان ابن خلدون يعترف في عبارة تنم عن أمانة المؤرخ الصادق بأن الناس لا يستوون جميعا في معرفة التناسب المركب، كما لا توافق سائر الطباع أصحابها في العمل بمقتضاه إذا هي توفر

لديها العلم به، فإن حديثه عنه وادراجه ضمن العناصر المكونة للأثر الموسيقي لما يكشف بوضوح عن حقيقة علمية راسخة، وهي أن العرب اهتدوا إلى الكونتربوان والهارموني وتناولوا تحليلها من الوجهة النظرية البحت، غير أن أذواق العامة فيما يبدو لم تكن لتستسيغ الألحان في صورتها المركبة كما لم تكن لتفضلها على سماع الألحان المنفردة.

وفيما كان جان جاك روسو (1712 ـ 1776) يحصر عناصر الموسيقى في اللحن والهارمونيه والحركة، مؤكدا بذلك ما استعرضه ابن خلدون من قبل، نجد هكتوربرليوز (1803 ـ 1869) يذكر هذه العناصر ذاتها ويضيف إليها عناصر أخرى يعتقد أنها ضرورية لبناء أي عمل موسيقي. هذه العناصر هي : التعبير، وتحوير المقامات، والتوزيع الآلي ومراكز انطلاق النغم، ودرجة شدة الأنغام وثروتها، وقد حملت هذه الإضافات فانسان داندي على القول من بعد : إن العناصر الموسيقية الثلاثة ـ أي اللحن والهارموني والإيقاع ـ لا تستطيع وحدها إدراك التأثير الفني والتعبيري ما لم يتوفر الأثر الموسيقي على عنصر الحركة.

وسيظل الحديث عن عناصر اللغة الموسيقية أمرا قائما باستمرار، كما ستزيد الكشوفات المستحدثة في مجالات أساليب التأليف في إغناء وإثراء هذا الموضوع، بل ان المفاهيم الموسيقية ذاتها ستعرف تحولا كبيرا وخطيرا، ليصبح الحديث عن الموسيقى مدعاة إلى الحديث عن تلك العقول الالكترونية التي تقوم مقام المؤلف بدور التأليف الموسيقي، بمجرد أن تزود بمعطيات نوعية خاصة، ولتصبح الرسوم والأشكال السمترية قائمة مقام الرموز الموسيقية وأشكالها وعلامات التحويل وغير ذلك من المفاهيم التي لا تزال المعاهد الموسيقية وحتى في أكثر دول العالم تقدما متمسكة بتلقينها.

وما من شك في أن البحث في عناصر اللغة الموسيقية يفضي بنا إلى النظر في الطريقة التي تودي بها هذه اللغة. ونقصد بذلك عنصرا جديدا هو الأداء، أي أداء الأثر الموسيقي سواء كان قطعة مغناة أو كان معزوفة آلية. وهو عنصر يفرض شخصا وسيطا تظل بدونه الألحان الموسيقية بكماء خرساء لا تملك سبيل انتقالها إلى الآذان. مثلها كمثل تصميم هندسي خط على الورق ولم يأخذ بعد طريقه إلى الإنجاز.

فالأداء إذن عنصر ضروري لبلورة العمل الموسيقي، ويمكن اعتباره بمثابة القالب الذي يعرض فيه ذلك العمل، عن طريق الصوت البشري أو بواسطة الآلة الموسيقية. ومن ثم فهو لا يقل أهمية عن الكلمات التي يضطلع بنظمها واضع الأغنية، ولا عن الألحان والإيقاعات التي يصب فيها الملحن تلك الكلمات. بل ان الأداء يتحكم في درجة نجاح الأثر المسموع ويحدّد مدى تأثيره في السامعين، فكم من عمل عبقري مسخ ملامح جماله أداء مستهجن بارد، وكم من عمل ساذج أضفى عليه الأداء الحي والجميل ملامح الروعة والجلال. ولذلك فنحن لا نعجب إذ نقف على أكثر من تسجيل للعمل الموسيقي الواحد، كما لا نعجب حينما نرى حرص زبناء الأسطوانات على اختيار ما سجلته أجود الاركسترات وأوسعها شهرة وأطوعها لقضيب مايسترو حنكته الخبرة الطويلة الأمد. كما لا نعجب بعد هذا وذاك لكثير من المستمعين إذ تسألهم عن مؤلف وملحن مقطوعة موسيقية واسعة الشهرة، فإذا هم ينسبونها لمغنيها. فهذه الأطلال لأم كلثوم، وهذه قارئة الفنجان لعبد الحليم حافظ، وهلم جرا.

وإذ يتحكم الأداء في درجة نجاح الأثر الموسيقي ومدى تأثيره في المستمعين، فإن من اللائق أن يتم على الوجه الأفضل حتى يكون كالمرآة

الصافية التي تنعكس عليها مقاصد الفنان الملحن. فالألحان التي يريد بها الملحن التعبير عن جمال الطبيعة تستدعي أداء لينا متواصلا يتسلسل فيه اللحن بيسر وينساب برفق كما تنساب المياه برفق من بين الحجارة، ويمتد خلاله النفس ليعبر عن اغتباط النفس وانشراحها بروعة الطبيعة. والألحان الحماسية التي تخاطب همم الناس وتهيب بهم إلى العمل والنشاط تستدعي أداء مرحا يعبر عن خفة الروح وعن استعدادها للعمل ويبعث الحيوية في المستمعين. وهكذا تتبلور طرق الأداء وتتنوع أساليبه بتنوع المواقف والظروف.

ولما للإيقاع من أهمية قصوى في بناء العمل الموسيقي، إذ بدونه تظل الموسيقى مجموعة غامضة لنغمات التقطت عفوا وعلى غير نسق معين ـ على حد تعبير روسو فسوف أخصه فيما يلي بمزيد من الشرح دون غيره من عناصر اللغة الموسيقية.

إن الإيقاع عنصر أساسي في الموسيقى، فهو يضبط حركاتها ويسكب فيها الحياة، ولولاه لظلت الألحان هيكلا لا روح فيه، ولكان الفن الموسيقي مبعثا للملل والضجر.

عرفه برليوز فقال : إنه تقسيم متساو للأزمنة بواسطة النغمات. وتحدث عنه روسو فقال : هو بالنسبة للألحان كالإعراب بالنسبة للحديث، وهو الذي يضمن سياق النغمات ويميز بين الجمل.

ولعل مما يؤكد أهمية الإيقاع في الموسيقى أنه يربطها بعلم الرياضيات وبذلك فهو يسمو بها إلى مصاف العلوم العقلية.

وليس الإيقاع بدعة أحدثها الموسيقيون، ولكنه ظاهرة طبيعية تعددت مظاهرها في الحياة، وتجلت في كثير من حركات الإنسان والحيوان والنبات. فالرياح التي تعصف تحدث صوتا موقعا، وخرير الماء وحفيف الشجر، وهدير البحار، كل ذلك أصوات موقعة تشهد بأصالة الإيقاع في الطبيعة. وحركات النجوم وتوالي الفصول وتعاقب الليل والنهار كأنما توقع على وتر الزمان حركات رتيبة الوزن. أما الكائن الحي فكل شيء فيه إيقاع من تنفس وخفقان قلب ونبض عرق وحركة لسان. فالإيقاع أساس لحياة أجسامنا، نعيش مادام خافقا متحركا، فإن هو توقف يوما كان ذلك إيذانا بالفناء.

ويجمع الباحثون على أن الإيقاع كان أسبق عناصر اللغة الموسيقية إلى الوجود، وأنه كان في طليعة ما اهتدى الإنسان البدائي إلى استعماله كوسيلة من وسائل التعبير : تعقب خطوات البهائم، فوجدها ثنائية أو رباعية عند سيرها الوئيد أو المعتدل. ثلاثية عند جريها السريع، واصغى إلى دقات قلبه فألفاها منتظمة آنا مضطربة آنا آخر.

ومن جهة أخرى لعب الإيقاع دورا حاسما في تطور الموسيقى الآلية، إذ بفضله تحررت الموسيقى من سيطرة الكلمة، وأصبح لها بناؤها الإيقاعي المستقل الذي ساعد على خلق إنتاج موسيقي خصب يخضع لقوالب معينة ويسمح بتعدد الأصوات وتلاحم الأنغام. وهو بحكم طبيعته النظامية وسماته الرياضية خلق الميزان الموسيقي وبذلك قسم الألحان وأفرغها في قوالب معينة.

والإيقاع بعد ذلك ينفرد من بين عناصر اللغة الموسيقية بكونه شائع الاستعمال في سائر الفنون من رقص ورسم وشعر ونحت، كما يمكن وضعه على رأس العوامل المساعدة على خلق التذوق الفني وتقوية الإحساس بالتجاوب بين الفنون بما فيها الفنون الأدبية : فإن القصيدة الشعرية بمقاطعها وتفعيلاتها وقوافيها تساعد بصورة حية على تحقيق التفاعل المنشود مع المستمع. وليست هذه الظواهر إلا مظاهر مشكلة من مظاهر الإيقاع الحي.

وعلى الرغم مما قيل ويقال عن عناصر اللغة الموسيقية، فإنها في واقعها تظل عناصر متكاملة، يكمل بعضها بعضا، ولا يمكن النظر إليها منفصلة إلا من زاوية نقدية أو بدافع من الرغبة في تقييمها وتحليلها. ومثل هذه العناصر في تكاملها وتآلفها كمثل اللوحة المرسومة التي تتضافر فيها الفكرة والألوان والخطوط والظلال لتخلق منها وحدة فنية متكاملة.

وكما بدأنا هذا الموضوع بالحديث عن علاقة الطفل بالموسيقى نجد أنفسنا مقبلين على انهائه بالعودة إلى نفس ما بدأنا به لنؤكد مرة أخرى وثوق الصلة التي بينهما، وفي هذه المرة من خلال ظاهرة طبيعية بارزة فيهما معا، هي ظاهرة الحركة.

فالحركة من أبرز خصائص الموسيقى، إذ كل شيء فيها يتحرك : الأنغام تنتقل على المدارج صاعدة آنا ونازلة آنا، والإيقاعات تتوثب متباطئة حينا ومتسارعة حينا، والأصوات بدورها تظل في تنقل ما بين عنف الأداء وليونته، والآلات نفسها أدوات متحركة تحت أصابع اليد وخيوط الأقواس.

وإذا كانت الحركة قرينة بالموسيقى، فكيف لا تكون قرينة بالطفل وهو هذا الكائن الحي، سباق إلى الألعاب، ميال بطبعه إلى ترجمة أحاسيسه بكل ما أوتي من حركات هي أفصح أحيانا من سحر البيان، وكأنما يعبر من خلال تلك الحركات وهذه الألعاب عن وجوده ويبرهن على حيويته.

فالطفل والموسيقى إذن توأمان تؤاخي بينهما الحركة، ومن مظاهر هذه الوحدة الحركية ما نلحظه من تحريك الطفل ليديه وسائر عضلات جسمه كلما انغمر بصوته في الغناء، فهو إذا رفعه عاليا رفع معه يديه إلى الفضاء، وقد يستقيم واقفا على قدميه، بل على رؤوس أصابعه، وكأنما يحسب أن حدة الصوت تستلزم رفع الجسم إلى الفضاء الأعلى. ثم هو إذا انخفض بصوته إلى درجات الغلظة تدلت إلى الأسفل ذقنه ويداه، وحدقت في سطح الأرض عيناه، فإن خفض من صوته وكبح قوته ضم إلى صدره راحتيه، وكأنما يعبر عن تضاؤل الصوت وخفوته، حتى إذا أطلق عنانه ليرتفع ويقوى انفتحت الراحتان وانكشفتا عن صدر واسع رحب.

مكناس عبد العزيز بن عبد الجليل

أنواع الأدب الشعبي بالمغرب
-2-

مالكة العاصمي

الغناء :

قد تعرف كل مدينة على حدة بنوع خاص من أنواع الفنون أو الغناء تتميز به. ولا تعرف غيره، عدا ما تقلد به مدننا أخرى بحكم سهولة تناقل الفنون بين الجهات المختلفة داخل الوطن أو خارجه.

ولكن مدنا أخرى قد تعرف تنوعا في ثراتها المحلي وغنى يجعل أشكالا من الغناء والإبداع الفني تفرض نفسها في حياة المجتمع في أوجه من نشاطه.

والمدن التي لعبت دورا هاما في تاريخ البلاد، عرفت وفادات من أقاليم أخرى. ومن اصقاع أخرى أمدتها بنماذج كثيرة من ثرات هذه الأقاليم، يستقر ويزدهر ويأخذ ملامح جديدة في بيئته الجديدة.

مراكش مثلا شكلت عاصمة الخلافة الإسلامية الواسعة خلال فترة غير قصيرة. بذلك وفد من إقليم الأندلس إلى عاصمة الامبراطورية المرابطية والموحدية النموذج الأندلسي. كما وفد إليها من افريقيا على عصر السعديين

النوذج الإفريقي / ووفد إليها من أقاليم المغرب النوذج الهواري من أقاليم السوس وفنون الرواس ـ والعيطة من الساحل ـ والعروبي من الأحواز / وإنشادات الصحراء.

ثم بحكم نشاطها كعاصمة امبراطورية عظيمة، وبحكم تنوع عناصرها فقد انتجت داخليا أشكالا فنية أخرى. أنتجت أنواعا من الزجل تغنيه الشيخات، وأنواعا أخرى يغنيها الأشياخ / وابتدعت أهازيج الدقة / وأغاني وإيقاعات متجاوبة ومتوازنة / وابتدعت أنواعا من الأغاني الدينية / ولتنوع الطوائف الدينية فيها فقد ابتدعت كل طائفة لنفسها نموذجا غنائيا خاصا، منها ما تغنيه النساء / ومنها ما يغنى للرجال / أو في حلقات الذكر وما أشبهها.

هذا زيادة على ما ابتدعه المجتمع لإمتاع نفسه في أفراحه ومسراته ومجالسه ونزهاته، وخلال أوقات عمله، وما ابتدعه لتعزية نفسه ومواساتها عند الملم المكاره.

الأغنية الشعبية تحكي قصة شعب تشكل في التاريخ عبر زمن غير قصير، وتقلب في أحداث. حقق انتصارات، وخضع لهزائم، وعانى صراعات. صراعات داخلية مع الإقطاع والرأسمال ومع العناصر الفوضوية وصراعات خارجية مع الأجناس والاتجاهات والإيديولوجيات الوافدة.

وهي في أحيان أخرى تحكي تفاعل الإنسان مع الطبيعة، وانشغاله معها، واندماجه فيها. تحلم بنجوم السماء، وأحلام الفجر في الليالي الصائفة، وتهلل لسقوط المطر، وامتلاء الأنهار والغدران. وتغني لقدوم الربيع،

ـرعرع النبت والـزرع، وتبرعم الثار. كا تشكـو إنحبـاس المطر، وحلـول الجفاف، وتشكو الأيام القائضة ومواسم الجليد.

وفي تاريخ الأمة يوجد قواد وأبطـال وحكـاء وعلـاء، تمجـدهم الأمـة والقبيلة لما لعبوه من دور في تاريخها وحياتهـا، فتغني لهم وتجتمع إليهم، وتقيم لهم المواسم أحياء وأمواتا، وتنتج لهم أدبا شعريا ونثريا.

هـذا طبعـا عـدا مـا تعبر عنـه الأغنيـة الشعبيـة من عواطف مشـاعر إنسـانيـة فرديـة ممـا يتفـاعل بين النـاس من حب وتعلق ولقـاء. أو هجران وتبـاعـد وحرمـان. ومن كرم وهجـاء ونفـور. ومن تقـدير واحترام. أو من اعتراف بالجميل وإشادة. أو ما سوى ذلك.

المشكل أننا لم نعد قادرين في الوقت الحـاضر على استيضاح خلفيـات هذا الثرات، وظروف نشأته. وما يعبر عنه من أقاصيص، وأحداث ومواقف. خاصة وأنـه ثرات غـاص بـالحركـة التي تكمل اللغـة وتعبر عـا لا تعبر عنـه اللغة، وغاص بـالألحـان التي تحمل مـدلولات الحب والكره، والحرب والسلم، والفرح والحـزن، والألم والمسرة. كثير من النماذج الأدبيـة في بعض الأقـاليم لا تزيـد فيهـا القصيـدة عن البيت الـواحـد، أو البيتين تتردد بهم وألم فـائقين، وتتبعها أنواع من التعبير الجسماني بـالرقص، والانتفـاض، والصراخ، وكل مـا يمكن أن يعبر عن الألم والثورة.

ونمـاذج أخرى تعبر عن موقف عكسي بـالفرح والـزغـاريـد الجمـاعيـة والتهليل وأشكال من الحركات الإيقاعية والبهلوانية والتقافز، وتغير الألحـان، وتبادل التصفيق، مما يعبر عن قصة فرح جماعي، أو حدث هـام خلق تعبيرا جماعيا بالفرح والنصر.

هناك أنواع من المواويل والبكائيات يتجاوب فيها أعضاء الفريق، ويتشاكون فيا بينهم مما وجدوه من عناء، ونزل بهم من ضيم، وينقلك اللحن والصوت إلى جو من الحزن ثقيل ممض.

وأحيانا يجتمع الناس في حلقات ويتراجعون الأصوات والأنغام الحزينة في نوع من التباكي الجماعي قبل أن يقرروا القيام برد فعل إيجابي والنهوض للتعاون على تنفيذ القرار.

ونجد أنواعا أخرى من الغناء تعتمد على الإشارات والإيماءات الخفية بدل الحركات الواضحة، بحيث تتحرك العين والأصبع واليد والرأس وتتناقل إشارات وإيماءات ورموزا خفية لا يدرك العدو مقاصدها، كمصطلحات قومية، أو كرموز منتقلة من التراث الإنساني، كحركة الأصابع فوق الرأس، أو أمام الجبهة، أو أمام الوجه، أو حركة الرأس نفسها، مما يمكن أن تلتقي فيه مع التراث البابلي أو الأشوري أو الفرعوني.

والذي يزيد في غموض خلفيات الأدب الشعبي، أنه أدب غير مباشر في تناول موضوعاته، بل هو أدب رمزي، يجعل اللغة تحيلك على الموضوع كما يحيلك اللحن، وتحيلك الحركة.

والسبب في ذلك أن المجتمع يجرد الحدث من صبغته الفردية الجزئية ويدخله في إطاره الفكري العام، كحدث له جذور وأسباب ومسببات وأن علاجه مرتبط بالموقف العام من القضية، وتصحيح مسارها. وهي قضية مبدئية عادة، ليس ما يحدث في المجتمع من ظواهر ومشاكل إلا خلفيات لها. وإذا نظرنا في ديوان سيدي عبد الرحمان المجذوب مثلا أو أخذنا نماذج من الشعر البربري أو الشعر الصحراوي أو الحوزي أو سواه لكشفنا هذا المظهر

الرمزي الغالب على الأدب الشعبي، والذي يساهم عبر الزمن في طمس الأصل التاريخي لهذا الأدب، ويخفي ما يحمله في تنايـاه من قصص وحكايات وأساطير وأحداث.

☆ ☆ ☆

واحتاج بالمناسبة أن أثير موضوعا طالما تناولناه ضمن ما نطمح إلى تصحيحه من أخطاء في مسيرة شعبنا الجديدة، هو موضوع مهرجان الفولكلور، الذي يقام سنويا في مراكش، بهدف كشف تراثنا الغنائي خاصة، وحفظه، والتعريف به.

ولا بأس كذلك في إطار وضع الأمور في نصابها وتصحيح المواقف التي قد تكون منحرفة أن نعترف بأن مهرجانا كهذا تشرف عليه وزارة السياحة، بسبب طبيعة الدور المنوط بهذه الوزارة وهو دور التعريف، والفرجة، وعرض النموذج وتقديمه.

غير أن هذا النموذج قبل أن يعرض للفرجة أو للتعريف به، وتقديمه، يجب أن يخضع لأنواع من التهيىء، والتحضير، والدراسة، والبحث، والمعالجة، والتصحيح، وهو ما يجب أن يقع في تهيىء مهرجان الفولكلور السنوي، أو هو ما يجب أن يقع يوميا فيما ينمو من عناصر الفولكلور، وما يكاد يتلاشى من مظاهر ثقافة شعبنا وتراثه الزاخر. وهذا أمر ليس من اختصاص وزارة السياحة، ولكنه عمل ثقافي صرف، ويجب أن يسند إلى الجهة المهيأة بحكم طبيعتها لتناوله، والإشراف عليه، بالتعاون مع الهيئات الشعبية، في كل

إقليم على حدة، لما لها من قدرة على استكناه التراث في إطاره البيئي والاجتماعي، والحضاري. واستحصار الأشكال والانماط التي اختفت مع الزمن أو تلاشت، أو تغيرت معالمها، وتكميل الصورة ورسم إطارها العام.

طرب الآلة

من الضروري الاجابة أولا عن سؤال بشان شعبية هذا اللون من الطرب أو عدم شعبيته، وقد تناولنا في نطاق بحثنا في مفاهيم الأدب الشعبي مدلولات هذا الأدب.

طرب الآلة لغويا هو أدب عربي في أغلب أشعاره، لكنه لم يأت على نمط الشعر العربي المعروف، بل ابتدع لنفسه نهجا خاصا في الأدب سمي الموشح، فهو إذن لا يشبه الأدب الشعبي في لغته العامية، بل أن لغته فصيحة في الغالب، وهي لغة النخبة المثقفة.

وطرب الآلة يستلزم إطارا يتميز بنوع من الفخامة من جهة والوقار من جهة ثانية، لذلك فهو يعزف ويغنى في الحفلات الرسمية، في بلاطات الملوك والأمراء، ورجال الدولة، وأعيان البلاد، ولا يغادر إطاره الرسمي إلا في القليل، ويروى أن المرحوم البريهي عندما دعى للغناء في الإذاعة أول تأسيسها رفض ذلك، لأن المذياع يغني في دكان الخراز والشكايري وهذا امتهان له ولفنه.

وموسيقى الآلة لم تنقل شفاهة، ولكنها ضبطت ووقع التاريخ لها وتدوينها ونشرها في الأندلس والمغرب خلال فترات متقدمة.

كما أن مؤلفي أشعارها، وواضعي طبوعها معروفون في الغالب كشعراء أو فنانين نسبت إليهم إنتاجاتهم.

هذه العناصر تبعد موسيقى الآلة عن أن تكون موسيقى شعبية لا على مستوى اللغة، ولا على المستوى الطبقي للفئة التي تتداولها وتنتج لها. ولا على المستوى التاريخي.

مع ذلك فموسيقى الآلة امتزجت بوجدان الشعب، وتناقلها في ثراته المحلي، المتميز عن باقي ثرات العالم العربي، فأحرى باقي العالم، وقد ازدهرت أيما ازدهار في عدد من المدن المغربية، وتعاطتها فئات الشعب وأحبتها.

ومن هذه الوجهة فقط سنعتبرها بتجاوز كبير ضمن إطار الأدب الشعبي وإن كانت في حقيقتها أدبا رسميا نخبويا.

إذا كان الشعب قد تبناها واستقرت في ثراته الأدبي والفني، فلماذا لا ننسبها له ولماذا ننسبها إلى الأندلس.

الموسيقى «الأندلسية» كما يسميها المصطلح العربي يسميها المجتمع المغربي طرب الآلة أو موسيقى الآلة، ولعل في مثل هذه التسمية ما يوحي بعدم موافقة المجتمع على هذا التمييز أو هذه النسبة.

كانت الأندلس والمغرب تتناقل ثراتا فنيا وموسيقيا موحدا، لأن الطريق إلى الأندلس كان يمر عبر المغرب بحيث قام المغرب بدور الوسيط في نقل الحضارة واللغة، والفكر العربي إلى الأندلس.

غير أن مؤرخين آخرين يؤكدون أن الموسيقى الأندلسية هي إبداع فرد معين في بيئة معينة، ومنها انتشرت إلى باقي البلاد. فهي إنتاج زرياب

أحد تلامذة إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقد هجر من بغداد على إثر اعجاب الرشيد به مما أثار غيرة أستاذه فطلب منه أن يغادر البلاد. فجاء واستقر في الأندلس، وابدع نوبات خاصة، وأسس مدرسة، وتناقل أبناؤه وتلامذته هذه النوبات، وهذا النمط الموسيقى، فذاع في الأندلس وصار فنها الخاص وطابعها.

أما انتقال هذه الموسيقى إلى المغرب فجاء في ركاب الوافدين من الأندلس بعد الهجرة الجماعية خلال مراحل الصراع المؤذنة بسقوط الدولة وخاصة ابتداء من العصر المريني في أوائل القرن السابع. ويقول الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل في كتابه مدخل إلى تاريخ الموسيقى العربية أنه «هاجرت إلى العودة المغربية جموع غفيرة من مسلمي بلنسية، وكانت مدن المغرب وبخاصة فاس الوجهة الأولى لهؤلاء المهاجرين فنشأ عن ذلك أن تلقى المغرب أسلوب التأليف البلنسي».

ويظهر لي أن الالتزام بمثل هذا الرأي هو قراءة للتاريخ من نهايته. لأن الهجرة بين الأندلس والمغرب ظلت متبادلة منذ فتح الأندلس سنة 91 هـ وأن الموسيقى المغربية انتقلت إلى الأندلس كما انتقلت الموسيقى الأندلسية إلى المغرب منذ أيام الفتح الأولى وقد أعجب المغاربة بشبه الجزيرة الإيبرية فرحلوا إليها وتنقلوا في مرابعها وتغنوا بفنونهم وموسيقاهم خلال هذه الرحلات بل لقد ألحق شمال المغرب بالحكم الأموي في الأندلس زمن عبد الرحمان الناصر في القرن الرابع ولو لفترة وجيزة. وأن طريق الأندلسيين إلى الشرق وفكره وحضارته وثقافته، وإلى مكة مركزه الديني، أو مصر وبغداد ودمشق مراكزه السياسية، كانت تمر عبر المغرب. وشكل العنصر البربري نسبة مهمة من سكان الأندلس، كما أن جزءا من ثقافة

المغرب وفنونه وعلومه وحضارته انتقلت إلى الأندلس عن طريق مدينة سبتة التي لعبت دورا هاما في علاقة المغرب بالأندلس وفي تاريخ المغرب الحضاري مما يفسر ماهية اللون الذي نجازف ونطلق عليه اللون الأندلسي وتنبه إلى أصوله الشرقية والاسبانية وتنسى أصوله البربرية.

وبالمقابل فلقد اتصل المغرب بالتراث الأندلسي منذ أيام الفتح الأولى وظلت الأندلس تمد المغرب بعناصر من تراثها وأتوقع أن تكون موسيقى زرياب ونوباته ومدرسته قد انتقلت إلى المغرب في فتراتها الأولى ضمن حركة المبادلة بين العدوتين. ولقد بدأت الهجرة المضادة من الأندلس إلى المغرب على الأقل بعد استيلاء أموي الأندلس على ثغور المغرب الشمالي أو على الأقل بعد قيام الامبراطورية المرابطية الكبرى في العقد الثامن من القرن الخامس 479 هـ. وأن هذه الموسيقى جاءت مع الوافدين من الأندلس بعد الهجرة الفردية إلى عاصمة الدولة زمن المرابطين والموحدين وبعد الهجرة الجماعية اثر سقوط الأندلس وأن هذه الموسيقى استقرت في المدن التي استقرت فيها أفواج الأندلسيين أو في المدن التي عبروا منها في طريقهم إلى العاصمة مراكش. وهو بالفعل ما يبرر وقوف هذه الموسيقى في حدود المدينة من الجنوب لكونها كانت هدف الرحلة ومنتهاها كعاصمة للدولة قبل سقوط الأندلس وبعدها. بل أن المغاربة أنفسهم نقلوا ألوانا من هذه الموسيقى خلال رحلاتهم وجولاتهم في الأندلس.

بذلك سيكون من باب التمحل اعتبار هذا اللون من الموسيقى لونا أندلسيا وسلخة عن أرضه وبيئته المغربية، خاصة وأنه ليس فيما ترسب لدى المجتمع من معارف ما يثبت صحة هذا الانتماء، وأن الواقع التاريخي لا يبرره ولا يستسيغه، بل يؤكد وجود كيان وهوية مغربية قبل فتح المغرب،

وبعده، قبل فتح الأندلس وبعده، وأن هذا الكيان تشكل خلال التاريخ واندمج وتطور ونما، ولكنه لم يمت أبدا ولم يسلم لحضارة وافده أن تستوطن على حساب وجوده وهويته، مما يؤكد أن موقفا كهذا يجانب منطق التاريخ الحضاري والتاريخ الاجتماعي للشعوب في علاقاتها التاريخية الحضارية.

ومنطق التاريخ يفرض علينا اعتبار الاغاظ الموسيقية الأولى التي شاعت في الأندلس وفي المغرب ذات أصول موحدة وتاريخ مشترك ومسيرة مشتركة مع اعتبار نوع من الاختلاف لا يزيد عن الاختلافات التي تقوم عادة بين ثرات الأقاليم المتباعدة أو المتجاورة بفعل الرواسب البشرية والفكرية والحضارية، وبفعل مكونات البيئة الجغرافية علما بأن القرن العاشر لم يكن فترة تبادل فكرا وحضارة، ولكنه كان فترة تقوقع الحكم المغربي داخل أراضيه وضعفه عن حمايتها، وحماية وجوده وتخبط دولة بني الأحمر، وملوك الطوائف بالأندلس، واجترار المجتمع الأندلسي لهزائمه، مما شكل اللون الغرناطي المتميز.

مراكش　　　　　　　　　　　　**مالكة العاصمي**

وَصفُ القُدس

في القرن الخامس الهجري
من رحلة: خسرو قبادياني

تقديم وترجمة:
المرحوم د. عبد اللطيف السعداني

الحديث عن القدس، هو حديث عن جراح دامية في عقيدة ملتهبة... وكل حديث اليوم عن هذه البقعة المقدسة من أرض الله هو تعبير عن الحقيقة الصارخة في أذهان أهل التوحيد بما لحق هذا المكان وأهله من ظلم، وما عمل فيه الإنسان الظلوم الجهول من زيف وتزوير... وشهادة لأولئك الذين حملوا عقيدة التوحيد بصدق وأمانة، ودافعوا عنها مجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله، أولئك هم المسلمون. وهم، هم اليوم الذين ينهضون لنجدة القدس من مشرق بلادهم إلى مغربها... وفي هذا المغرب تركزت جهود المسلمين في «لجنة القدس» التي يرعاها ويرأسها جلالة الملك الحسن الثاني فبارك الله لهم ووفق...

ـ كانت الروح المهيمنة على مدينة القدس روح الاطمئنان والسكينة تأخذ بقلوب الزائرين لها وتخط في ذكرياتهم صورا دقيقة كاملة لمعالمها. فلا تنمحي رغم مرور الأيام والأعوام، كأنما تحتفظ هذه المدينة الوديعة في هذه الذكريات الأمينة، بطابعها الديني الإسلامي فيما عسى أن يلحقه من تغيير أو تشويه أو محو لآثار الشخصية الإسلامية. وقد حدث ذلك ويحدث اليوم...

ـ كذلك وجدتني بعد مرور ستة عشر عاما على زيارتي للقدس الشريف، وكأنها بالأمس القريب، والمغاربة في طريق حجهم «يقدسون» بل و«يخللون» بدءا أو ختاما فيرون في ذلك أن عمل الصالحات قد تم لهم...

ـ وكذلك وجدت الرحالة الفارسية أبا معين حميد الدين ناصر بن خسرو القبادياني المروزي (394 ـ 481 هـ) وهو يقف بالقدس في طريقه للحج يوم الخميس خامس رمضان سنة 438 هـ. فيطيل وصف هذه المدينة كما كانت في القرن الخامس الهجري في رحلته المفيدة البديعة الأسلوب المسماة ب : «سفرنامه» رحلة.

ـ ولئن قامت الصهيونية بمحاولة محو الآثار، فعبثا تحاول... وهذا النص الذي أنقله عن الفارسية وأوضعه بين يدي القارئ «القدس» دليل على ذلك : وإني لأرجو أن ينفع الله به كما كان قصد كاتبه، وكما هو القصد عند مترجمه غيرة على العقيدة الإسلامية السمحاء. وذكرى للوفاء لمكرمة أحملها في نفسي لعمدة القدس المنضال المجاهد الأخ روحي الخطيب.

في الثالث من رمضان غادرنا «الرملة» فوصلنا قرية تسمى «خاتون» ومن هناك قصدنا قرية أخرى يقال لها «قرية العنب» وقد شاهدنا في

الطريق الفيجين الغابوي كثيرا قد نبت فوق الجبال وفي البرايا، ورأينا في هذه القرية عينا طيبة تتفجرّ من الحجر. وهناك بنيت اصطبلات وأنشئت العمارة.

- ذهبنا صعدا من هناك، وقد خيّل إلينا أننا نتسلّق الجبل حتى إذا انحدرنا من الجانب الآخر أدركنا المدينة. فلما ارتفعنا قليلا تجلت لنا صحراء عظيمة : بعضها حجري وبعضها ترابي. وفوق الجبل أقيمت مدينة «بيت المقدس».

ومن طرابلس - المدينة الساحلية - إلى بيت المقدس، ستة وخمسون فرسخا. ومن بلخ إلى بيت المقدس، مئة وستة وخمسون فرسخا.

- خامس رمضان، سنة ثمان وثلاثين وأربع مئة حللنا ب «بيت المقدس» فتمّت بذلك سنة شمسية. منذ أن غادرت بيتي كنت خلالها في سفر مستمر. فلم نقم في أيّ مكان، ولا نلنا فيها راحة كافية.

- يسمي أهل الشام وتلك الأصقاع بيت المقدس «قدسا» ومن لم يستطع الذهاب إلى الحج من أهالي تلك الأقاليم. فإنه يحضر القدس في ذلك الموسم نفسه، ويقف بالموقف، ويذبح أضحية العيد، كما هي العادة. وربما يحضر هناك في السنّة، في أوائل ذي الحجة، أزيد من عشرين ألف نسمة يأخذون معهم أبناءهم، ويذبحون الأضحية.

- ويقصد ذلك المكان من ديار الروم والبقاع الأخرى جميع الرهبان وكثير من اليهود لزيارة الكنيسة والبيعة اللتين يوجدان هناك. وستوصف الكنيسة الكبيرة هناك في المكان المخصص لذلك.

ـ سواد بيت المقدس وقراه كلها منطقة جبلية. والزراعة وشجر الزيتون والتين جميعها بورية. والنعم كثيرة ورخيصة. ومن العمد من يدخر الواحد منهم في الآبار والأحواض خمسين ألف منّ من زيت الزيتون يحملونها من هناك إلى أطراف العالم.

ـ ويقال إن أرض الشام لم تعرف القحط قط. وسمعت من الثقات أن شخصا رأى في منامه الرسول عليه الصلاة والسلام يقول له أحد الكبار : «يا رسول الله ! أعنا على المعيشة» فأجابه الرسول عليه السلام قائلا : أنا مكفل بخبز الشام وزيتها».

ـ والآن أصف مدينة بيت المقدس.

ـ هي مدينة أقيمت فوق جبل. لا تسقى إلا بماء المطر. في قراها عيون ولكن المدينة خالية منها إذ أنها أنشئت فوق حجر. وهي مدينة كبيرة، فقد كان بها لما عايناها عشرون ألف نسمة، حسنة الأسواق، عالية البناء فرشت أرضها كلها بقطع حجرية. وحيثما كان جبل، وأينما كان مرتفع. نحتوه وسووه حتى إذا نزل المطر صارت الأرض كلها نظيفة، والصناع في تلك المدينة كثيرون. لكل جماعة رواق على حدة. ومسجدها الجامع ناحية المشرق وسور المدينة الشرقي هو سور المسجد الجامع. فإذا تجاوزت المسجد الجامع، فهناك صحراء كبيرة غاية في الانبساط يقال لها «الساهرة» ويقال إنها البرية التي ستكون بها القيامة، وأن الناس سيحشدون هناك. لأجل هذا قدم إليها من أطراف العالم خلق كثير واتخذوها مقاما آملين الموت هناك. فإذا جاء وعد الحق سبحانه وتعالى كانوا حيث الميعاد. ـ «إلهي ! كن في ذلك اليوم الملجأ بعبيدك» اللهم إنا نسألك العفو آمين يا رب العالمين.

ـ وبجانب تلك الصحراء توجد مقبرة عظيمة وهي أماكن مبجلة كثيرا فالناس يصلّون فيها ويرفعون أيدي الضراعة، فيقضي الله سبحانه وتعالى حاجاتهم. «اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين».

ـ وبين المسجد الجامع وصحراء الساهرة، هذه واد عظيم الانحدار. وفي ذلك الوادي الذي هو أشبه ما يكون بخندق بنايات كبيرة على طريقة القدماء. رأيت قبة عظيمة قد نحتت موضوعة فوق بيت، فلا أعجب منها، فكيف بأمر نقلها ! وكان يتردد على الألسن أنها بيت فرعون وأن ذلك الوادي هو وادي جهنم، سألت : من لقب هذا المكان بهذا اللقب ؟ فقيل : في أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عسكر بالجند في صحراء الساهرة. فلما أبصر ذلك الوادي قال : هذا هو وادي جهنم. وأما عوام الناس فيقولون : إن كل من قصد ذلك الوادي، يسمع صراخ أهل النار يتعالى من هناك. ولقد ذهبت هناك، ولكني لم أسمع شيئا.

ـ وبعد قطع مسافة فرسخ ونصف من المدينة، والنزول في منحدر. عين تنبع من حجر تسمى عين سلوان. شيدت فوقها عمارات كثيرة. وينساب ماء تلك العين نحو قرية كثرت بها العمارة، وخطت فيها البساتين ويقال : إن كل من غسل وجهه وبدنه بذلك الماء تزول عنه الآلام والأمراض المزمنة وقد حبست على تلك العين أوقاف كثيرة.

ـ ولبيت المقدس مستشفى حسن وله أوقاف كثيرة، تمنح فيه للناس الكثير من الأشربة والدواء. ومن الأطباء هناك من يأخذ راتبا من الوقف. ويقع ذلك المستشفى والمسجد الجامع كليهما في طرف المدينة الشرقي. وأحد

أسوار المسجد الجامع بجانب وادي جهنم فإذا رؤي ذلك السور الحادي للوادي من خارج المسجد الجامع كانت المسافة مئة ذراع وسوره قد بني بأحجار عظيمة لا أثر للطين والجبص خلالها. والجدران بداخل المسجد الجامع كلها مستقيمة.

ـ وبسبب «الصخرة» التي هناك بني مسجد في نفس المكان وهذه الصخرة هي التي أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة. فلما نزل هذا الحكم واتخذها موسى قبلة لم يعش طويلا، ومات على إثر ذلك إلى أن آل الأمر إلى أيام سليمان عليه السلام، إذ كانت القبلة جهة الصخرة فبني مسجد حولها بحيث تقع الصخرة وسط مسجد، وتكون محرابا للناس. وإلى عهد نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله أنها كانت القبلة أيضا هي الصخرة تولى الوجوه شطر تلك الناحية فتؤدى الصلاة إلى أن قال الله تبارك وتعالى : ﴿**إن القبلة هي المسجد الحرام**﴾، وسيأتي وصفه في مكانه.

المرحوم : **د عبد اللطيف السعداني**

نحن والطيور

محمد العلوي الصوصي

في صباح يوم من أيام الربيع وجدت طائرا صغيرا في حجرتي دون أن أعرف كيف دخلها. فبدا المسكين حائرا، مرتعشا، قلقا ـ لا يعرف قرارا ولا يجد هدوءا ـ أرهبه ضيق المكان ـ وأغشى عينيه الظلام ـ فحبس أنفاسه. يريد الوقوف فلا يستطيع. لأنه لا يلمس إلا الغليظ الخشن في بيتي الضيق. ولكن قلقه لم يطل لأني أشفقت عليه وأسرعت بفتح النافذة على مصراعيها ليخرج بسلام. فأسرع كالسهم واستروح الهواء الطلق فلحق بإخوانه الجماعة الطائرة ناسيا محنته ـ كأن شيئا لم يقع ـ

دفعني هذا الحادث البسيط إلى تتبع حركات ذلك السرب الطائر وهو يرسم خطوطا في الهواء، ويخطط صورا رمزية برقصاته البهلوانية معرجا ذات اليمين وذات الشمال باسطا أجنحته في هذا الفضاء الذي لا حد له ولا

نهاية. ثم يقبل ويدبر، يشتبك ويتفرق كأنه يشخص أهازيج فلكلورية. والكل في نشوة وزهو وسرعة جنونية.

فأي معنى يا ترى لهذه الحركات وهذا الطيران المتحرر من كل قيد، وأي معنى لهذه العربدة ؟

إنها الحرية ! إنها فرحة الإحساس بالوجود ونشوة العافية. وكانت تنطلق الصيحات من السرب المائج وتعلو الأصوات ثم تتفرق الجموع ويبدأ البحث عن القوت وبناء الأعشاش وتفقد الفراخ والدفاع عن الحياة. وتمضي الساعات ويلتئم الجمع من جديد ليستأنف جولاته مستمتعا بهذا الأفق الواسع وهذا الفضاء الرحب الذي يزنه الزمن المخصص للفرد بالنسبة للأبدية. أجل، إن في كل هذا الذي رأيت دروسا تلقننا إياها هذه المخلوقات. يلقننا إياها الزيز الذي يقضي لياليه في اللهو والغناء، وتلقننا إياها هذه الطيور المختلفة المتنوعة.

فلغة الطيور أقرب شيء للغة الإنسان من أي مخلوق آخر. فالطائر يعبر عن شخصية الفرد.

وإذا حاولنا أن نفهم أو نسجل أنغام الطيور ومقارنتها بلغة الإنسان فسنجد «ولا شك» أن تعبير الإنسان أشبه بما يحكيه العالم المجنح. وما علينا إلا أن ننصت باهتمام وتأن وصبر إلى لغة الحمامة أو اليمامة أو الزرزور أو «الحداد»، إنه يخيل إليك أن لغتها لا تخلو من معنى، بل من معان كثيرة وأنه يعبر عن أحوال وهواجس وأفراح واتراح. وكم يتاح لنا مرارا أن نستمع إلى بعض الطيور وهي بين المروج وفوق الأغصان وعلى جنبات الأودية

وضفاف الغدران. فإذا تمعنا وهي تشدو فسنجد في صوتها «نوطات» متوالية النغمات لا تتبدل ولا تتغير.

فهذا، يرسلها صيحات متوالية أو متقطعة، وآخر، يرددها أوامر من أعالي الشجر ويرعد ويتوعد ويهدد - وثالث، راقه الظهور وطغى عليه الإعجاب وعشق الفخر، فهو يرسلها صيحات مندفعات طويلة النفس تصم الآذان، وآخر، يتعشق الهزل وتعجبه الفكاهة فيقضي أوقاته في المزاح والثرثرة والضحك بلا سبب - ثم تجد الصب الولهان يهمس بأسراره وكوامنه إلى الطبيعة ويبثها ضناه وأساه ثم يسكت طويلا ينتظر شيئا ثم يعود ليكرر أنشودته.

وبعده يفاجئك الثرثار الذي لا يعرف السكوت. فينطلق غير مبال استُمِع إليه أم لا، وكثيرا ما تختلط عليه الأمور حتى لا يعي ما يقول. وهناك الشاعر المرتل للقوافي، وهناك الخجول الذي يتمتم ولا يستطيع الإفصاح عما به، فيتمتم ويسكت. ثم هناك الخبر الذي يفاجئك بكلام طويل في صوت عال ثم يذهب ولا يعود - وتسمع أيضا المتكبر المتبجح الذي يرسلها قهقهات عاليات وضحكات صاخبات.

ثم هناك الأستاذ الوقور يحسب أنه وسط هالة من الطلاب فيدأب على توضيح المواد وتفسير الأقوال وحل المشاكل. ثم هناك الأستاذ المتدرب المعيد يرتل درسه في رتابة مضنية.

ثم تسمع المتخاصمين اللجوجين يصيحون فترتفع أصواتهم في جلبة هائلة. وهناك المتناجون بقول الأول فيستمع الثاني ويجيب. ثم هناك الأب الحازم صاحب الكلمة العليا والقول الفصل وصاحب الحل والعقد، ثم

الأمهات القلقات المستعطفات الراعيات، وهناك المسبحون بحمد رب الملك والملكوت صاحب العزة والجبروت.

وجميع هذه الأصوات تشكل سنفونية نسقتها قوة الإحساس بالحياة وحب التغني بسعادة العيش والاستفادة من متع الدنيا وزينتها وشكر رب النعم، وكل هذا لا يلهيهم عن العمل الجاد في السعي وراء الرزق ورعاية الأسرة والدفاع عن الوكر وتربية النشء والدفاع عن حوزة العش بجد وعزيمة وإيمان قوي لا يعرف الوهن.

ثم يأتي الغروب ـ فتراها جماعات تعقد جموعها حسب الأهواء ثم تتكون دائرة أو دوائر في أعلى الأشجار تتبادل الحديث. ولربما تعقد محكمة أو محاكم مؤلفة من ذوي النباهة والمعرفة أو مؤتمرا لتدارس شؤون البيئة أو شؤون الطير.

ثم يخيم الظلام ـ فتروح لتلوذ بأعشاشها ويسكت كل شيء ويسود الهدوء الكامل ـ وتطبق الآية الكريمة : ﴿**وجعلنا الليل سباتا والنهار معاشا**﴾.

فهلا استفاد الإنسان من دروس هذه الأمة الطائرة، واقتبس من استعمال أوقاتها. فلو فعل لجمع بين محاسن الدنيا وثواب الآخرة وطبق مصداق الآية الكريمة.

يحكى أن أحد الطغاة كان كثيرا ما يترك دنياه ويزهد في الكرسي والجاه والمحاسن والجمال لينقطع مدة من الزمن يقضيها بين الطبيعة بعيدا عن الضوضاء ليستكين إلى نفسه ويستمع إلى غناء البلبل الساعات الطوال. فتلين أعصابه ويراجع نفسه وضميره فيستغفر وينيب.

فهل يوجد منا من يتفرغ للطبيعة ومحاسنها ويختلي بنفسه مناجيا ضميره شاكرا ربه.

وكم ألوم نفسي على غفلتها، وكم تؤاخذني الحسرة بعدم اقتناء بعض الأوقات لأتفرغ إلى نفسي للاستمتاع بالطبيعة وجمالها والطيور وأنغامها والجداول وخريرها والسماء وصفائها والزهور وعبيرها ومخلوقات الله وعجائبها.

وإذا كانت للطيور لغة فإن ما يقوله العندليب فوق كل نغم. لقد ألفناه في طفولتنا وشبابنا واستأنسنا به وكانت أغاريده تطربنا ونهوى في كل مناسبة الإنصات إليه، مما يذكرنا بقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي في البلبل :

شدا فوق فرع مورق بلبل الوادي	فياحبذا الوادي وياحبذا الشادي
فقلت لــه زدن بربــك إنني	إلى نغم حلـو ترجعـه صـادي
أفـدن بــأسرار المحبـة خبرة	فـأنت عليم بـالخفي وبـالبـادي
ضللت طريقي في هوى من أحبـه	وإنك فيوادي الهوىوحدك الهادي

أذكر أنني كنت ذات يوم مع رفاق لي في أحد سفوح الأطلس المتوسط وكنا حينذاك في معركتنا التحريرية بعد نفي بطلها ملكنا المفدى محمد الخامس قدس الله روحه، فكانت الأخبار تحمل إلينا وقائع أحداث المعركة بناحية تادلة كإسقاط طائرة القائد العام لجيوش الاحتلال بالمغرب. كما كانت تصلنا أخبار امتداد المعركة بين إخواننا وجيوش الاستعمار.

فبينا نحن جلوس تحت دوح عظيم تنتابنا الهواجس إذا بالعندليب يرسل أغرودته، وإذا بنا جميعا منصتون في صمت رهيب إلى ألحان هذا الطائر الصغير، فخيل إلينا أنه جاء ليفرج عنا، أو ليشاركنا همومنا، أو ليقوي من عزيمتنا، أو يبشرنا بقرب الانتصار. والغريب أنه لم يفارقنا اليوم كله حتى غابت الشمس.

ولقد سعدت بسماعه بعد ذلك في مناسبات شتى. فهو لا تلهيه مشاكل الدنيا، ولا تثني عزيمته صروف الزمان. فكان لي حقا نعم الأنيس ـ وسارت الأيام، وقلت فرص الاستماع إليه. وكيف السبيل إلى ذلك وقد طغى الضجيج وتلوث الهواء الذي كان صافيا، وقطعت الأشجار، وغاضت العيون، ونبضت الآبار، وذبلت الأزهار، واختلطت الفصول وانتشر الأسمنت والحديد، وتحجرت القلوب، وخشنت الطباع، وأهينت الفضيلة، وحلت الكآبة محل المرح، والحزن محل الفرح، واليأس محل الامل، والشره محل الرضى بالحال، واندفعت الناس مع تيار العالم المتمدن، فلا نسمع إلا صوت الآلات وهرير الحديد وخرير المروحات النارية ولا نتنسم إلا الدخان الخانق، ولا نلمس إلا الغليظ الخشن، ولا نأكل إلا ما لا يلذ ولا يطيب، وإذا بنا نذهل عن كل شيء وصرنا لا نفرق بين الغث والسمين.

ومما يزيد في الأسى أن بعض الدراسات حول البيئة انتهت إلى أن عددا من أنواع الطيور سينقرض عما قريب. وأن العندليب من المهددين بصفة خاصة. يا له من خبر ! ووا أسفاه على هذه الكارثة الكبرى ـ التي ستقضي على مخلوق كان بهجة الدنيا وزينتها ـ وهل يا ترى درى ما ينتظر بني جنسه من فناء ؟ وهل علم أن هذه الأرض التي كانت له مرتعا وكان

لما بهاء لم يعد له فيها نصيب، لعدم تبصر بني آدم وضعف تفكيرهم في عواقب ما يصنعون ؟

وبعد هذه التأملات القاتمة، جالت بفكري مقطوعة الشاعر شفيق جبري في العندليب :

دع العندليب على غصنه	يردد على الغصن ألحانه
فلم أر في لحنه كلفة	تهجي أن ناح ألحانه
لئن دون الناس أشعارهم	لقد جمل الروض ديوانه
وان قيد الوزن أفكارهم	لقد أطلق الشدو أوزانه
كتمت السجون عن العندليب	فراح يبثك أشجانه
وأخفيت عنه دموع الجفون	وقد بلل الدمع أجفانه
فهل شط عن وكره جاره	فأصبح يندب جيرانه ؟
أم الصقر أو دى بخلانه	فودع بالنوح خلانه
أم الريح هبت بأفنانه	فزلزلت الريح أفنانه
فيالك من ممعن في الحنين	ألم يشهد الناس امعانه ؟
أتبكي العنادل أوطانها	ولا يندب المرء أوطانه ؟

فما أتعسنا إن ضحينا بما تمدنا به الطبيعة من أزهار وطيور ورياحين ومناظر لا تحلو بدونها الحياة.

الدار البيضاء

محمد العلوي الصوصي

الأستاذ علي الصقلي ومسرحيته الرائعة "المعركة الكبرى"

محمد بن عبد العزيز الدباغ

الجمال هبة من الله يضعها في الكون، لتكون جاذبية لنفوس المرهفين، وأرواح العاشقين، ترشدهم للخير، وتهديهم للتي هي أقوم.

وإن مظاهر الجمال تنصب على الطبيعة في خلقها، فتستميل العيون بما يبدو عليها من توازن في ألوانها، أو في صورها، ومن ثم ملكت الزهرة بشكلها وأريجها من يبصرها أو من يتلقى شذاها، وملك الطائر المغرد من يستمع إلى موسيقاه، وملكت نجوم الليل من يستأنس بنورها، ومن يوازي بين ضيائها وما حولها من ظلام.

ولم تكن هاته المظاهر مقتصرة على الطبيعة في مفهومها العام، بل وهب الله للإنسان أيضا قدرة جعلته، هو بنفسه، يمثل أنواعا شتى من أنواع الحسن، ويتقمص أشكالا من أجناس الجمال، ويتدخل في تنسيق الألوان،

وتبديل الألحان، وإبداع الصور الجذابة التي تستبد بالنفوس، وتستميلها وتجعلها دائرة في فلكها.

إن هذه الموهبة الجمالية، التي وضعها الله في الإنسان، جعلت من بعض الأفراد شعراء قادرين على الإبداع، يملكون زمام اللغة، ويتصرفون في كيفية ترتيبها نظما، وفي كيفية شحن ألفاظها إيحاء، فإذا بالذي يسمع ويتأمل، لا يدري كيف أصبحت اللغة غير اللغة، والإيحاء غير الإيحاء.

إن الشاعر الحق يصبح في الكون ممثلا لأشكال الجمال، ومجسدا لمحاسن الطبيعة، فهو الزهرة الشاذية، والطائر الغريد، والنجم الثاقب، إنه باقة معنوية تتكون من سحر البيان، ومن تمازج الألحان، يختال في موسيقاه اختيال الظافرين، ويتحكم في تنسيق ألفاظه الشائقة، وفي توليد معانيه الرائقة، فلا ترى ولا تسمع إلا ما يثير البهجة في النفس، وما يبعث على التأمل في الكون، وما يدعو إلى المعرفة بحقيقة الحياة.

ولقد عرف العرب قيمة الشعر فاعتزوا به، وجعلوه فنهم السائد، وديوانهم الخالد الذي سجلوا فيه حروبهم وأفكارهم وفلسفة حياتهم وبنوه على أصول فنية، ما زالت إلى الآن تستهوي الآذان، وتستميل الأذواق.

وهم في احتفائهم هذا، لم يكونوا بعداء عن التقييم الصحيح الذي ينبغي أن يكون للشعر في الحياة، لأن الشعر فن تمتزج فيه الفنون، بل هو أسمى ما بلغ إليه الفن البشري، لأنه يضم أشتاتا مختلفات من ألوان الإبداع، فهو رنات موسيقى، وتوازن أنغام، وتحليق خيال، وتوليد معان، وترابط صور... إنه الدم الذي يسري في شرايين الحياة، إنه الخفقة التي ينبض بها الكون، إنه الدفء الذي يمثل حنان الوجود. ومن ثم أصبح للشعراء الدور

الأساسي في توجيه الناس نحو الحق والفضيلة، فإذا أخلوا بهذه الغاية فقد حرفوا هذا الفن عن مقصده، وأبعدوه عن غايته، لأنهم حينئذ سيكونون قد شوهوا جماله الظاهري بقبح محتواه. وهذا هو السر في الاختلاف الموجود بين الذين كانوا يربطون الفن بالأخلاق، وبين الذين كانوا يرون استقلال الفن ووجوب الاعتداد به لذاته، لا لما يدعو إليه من مبادئ وقيم.

والغالب أن أكثر النقاد في هذا العصر، هم الذين يرون الالتزام مبدأ يجب أن يتبع، بحيث لا تبقى لأصحاب الفن حرية في أن يكون أدبهم ذاتيا محضا، يعبرون به عن إحساساتهم العاطفية، أو يدعون فيه إلى ما لا ارتباط له بالمصلحة العليا للإنسان.

إن الأدب لا يكون أدبا عند هؤلاء إلا إذا كان في خدمة الشعوب، وفي إبراز قضاياها الأساسية، وهو رأي إن لم يستطع الإنسان أن يطبقه تطبيقا كاملا، نظرا لوجود بعض النوازع الذاتية أحيانا، فهو، على الأقل، يجب أن يمثل الجانب الأقوى في الاستخدام الفني، لأن الإنسان لا يحيا لنفسه الأنانية وإنما يحيا في إطار اجتماعي، متماسك متبادل المصالح، فلا استمرارية فيه لأصحاب الأثرة، الذين يفقدون الرحمة والنظرة التعايشية الشاملة.

إن استغلال الأدب لأهداف إنسانية سامية، وجعله مذكيا لعواطف الناس نحو الخير والكرامة والعزة، لما أصبحت الضرورة تدعو إليه، فليس هناك أخس من الانقياد إلى الهوى، ومن الانسياق إلى العبث. فالإنسان لم يخلق للملذات العابرة، وإنما خلق ليكون داعية للخير، ومرشدا للفضيلة.

وحيث إن هذه المبادئ لم ترتبط في العصر الحاضر بالشعر وحده، نظرا لمزاحمته أنواعا أخرى من الأدب، كالقصة والمسرحية، فقد حاول بعض الشعراء أن يوظفوا الشعر في المجال القصصي، والمجال المسرحي، عساهم بذلك أن يبقوا عليه بين مزاحمات الفنون الأخرى. وهنا كانت المشكلة معقدة، حيث أصبح الشاعر مقيدا بقيود مختلفة. فهو مطالب بقوانين الشعر، وقوانين القصة والمسرح جميعا. ومن المعلوم أن الجمع بينها يحتاج إلى براعة فنية، وإلى شروط متداخلة، قل أن تجتمع عند شخص واحد. وهذا هو السر في أن الشعر القصصي لم يصبح إلا في قصص الأطفال، المكتوبة لهم بأسلوب بسيط، والمتعلقة، في الغالب، بالأمثال الناطقة على ألسنة الحيوانات، وأن الشعر المسرحي لم ينجح إلا عند الذين اضافوا إلى الملكة الشعرية قدرة على التركيز، والحوار، واختيار الأحداث المناسبة.

ولقد كانت الريادة في هذا النوع من الشعر عند العرب لأحمد شوقي، كما هو معلوم، وسار على نهجه في ذلك شعراء من مختلف الدول العربية، ومن بين الذين تقدموا إلى هذا الميدان فوفقوا الشاعر المغربي الأستاذ علي الصقلي الذي يعد من ألمع شعرائنا، وأقدرهم على الجمع بين سلامة المضمون، ورونق العبارة. لقد اختار حادثة من أشهر الحوادث في المغرب، فجعلها موضوع مسرحيته الهادفة إلى إذكاء الوعي الوطني، وإلى إشعار المغاربة بضرورة الالتحام حول الحق، وبضرورة مواجهة الاستعمار في أي مظهر من مظاهره، وبضرورة الاحتفاظ بالقوة الوطنية لحماية البلاد، وحماية حدودها من أي نوع من أنواع التدخل الأجنبي، لقد سمى مسرحيته، المكونة من ثلاثة فصول، بالمعركة الكبرى، ويعني بها معركة وادي المخازن، التي انتصر فيها المغرب على البرتغاليين انتصارا باهرا، وذلك يوم الإثنين، منسلخ

جمادى الأولى من سنة ست وثمانين وتسعمائة هجرية، الموافق للرابع من غشت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية.

وتعتبر هذه المعركة مجالا خصبا لإذكاء الروح الوطنية والدينية، لما لها من المفعول القوي في تثبيت روح المقاومة، وإرساء جذورها في النفوس التواقة إلى المجد، الراغبة في العزة، ولهذا اختارها الشاعر علي الصقلي، لتكون موضوع مسرحيته الرائعة، التي تعتبر تصويرا لمرحلة من المراحل العصيبة، التي كان المغرب يعيش فيها بين البحث عن إثبات وجوده، وحفظ استقلاله، وبين الرضوخ إلى قوى أجنبية، تريد أن تتحكم في مصيره، وأن تعبث بوحدته، سواء كانت هاته القوة إسلامية، كالدولة العثمانية، أو كانت نصرانية، كدولة البرتغال.

وكان التدبير السياسي يقتضي البحث عن قائد وطني، يستطيع أن يحمي الكيان، وأن يحافظ على الوحدة والاستقلال، دون أن يستسلم لهؤلاء أو لأولئك، وهي مهمة شاقة، تحتاج إلى الحذق والفطنة، والذكاء والدهاء، والحنكة والمرونة، وقد جمعت هاته الصفات في أخوين اثنين، هما عبد الملك السعدي، وأحمد المنصور، اللذان فكرا في خلق علاقة ودية بينهما، وبين العثمانيين، لا تصل إلى حد السماح لهؤلاء بالاستيلاء على المغرب، ولكنها، في الوقت ذاته، لا تجعلهم أعداء، يبيتون ضده المؤامرات، ويحيكون الدسائس، كما كانوا يفعلون من قبل، لذلك كان همهما الأول هو التوصل إلى حكم المغرب، وإبعاد ابن أخيهما محمد المتوكل، المعروف بالمسلوخ، عن العرش لأنهما كانا يحسان بضعفه عن المقاومة، وبعجزه عن حماية البلاد من الواجهتين المذكورتين، لكن المتوكل هذا، لما أحس بدهائهما وخطتهما، ارتأى أن يحتمي بالبرتغاليين، وأن يرتمي في أحضانهم، فتعاهد معهم على أن يحموه من عميه،

مقابل التنازل لهم عن ثغور البلاد المغربية، وهو تناول أزال هيبته، وجعل الهيئة الوطنية في البلاد تثور عليه، وتنساق مع الأخوين المذكورين، بل دفعت الثورة أهل الحل والعقد أن يخلعوا من ربقتهم بيعة المتوكل، وأن يقلدوها لعبد الملك، لما له من القوة والحزم، ولما يبدو عليه من العزم الصادق على تثبيت أركان الإسلام بالمغرب، ومحو آثار كل مظهر من مظاهر الاستعمار.

ولقد احسن الأستاذ الصقلي في بلورة هذه الجزئية الدالة على أنه يومن بقيمة هاته الهيئة المثقفة، وبأثرها في توجيه الرأي العام، وفي الإطاحة بالأراجيف والأكاذيب، مبرزا شعور الحاكمين بهاته الهيئة التي تستشار في مصير الدولة، وفي أخذ القرارات الخطيرة المتعلقة بمستقبلها، في سلمها وفي حربها، ولهذا جاء في المسرحية على لسان عبد الملك قوله للعلماء ولقواد الجيش : ص 133.

قد دعوناكُم مصابيحَ الهدى	والوغَى نقبسُ منكم أجمعينْ
ليس كالفكرة والسيف معا	إذ يسيران، خدين وخدينْ
فإذا النصرُ على خطوهما	سائرٌ في الركب، للخطو قرينْ
قد دعوناكم وفي النفس أسى	كاد منا شرُّه يَفري الوتينْ
نحن من يوم عبوس كالدجى	قابَ قوسينِ، عن الشر مُبينْ
كغرابٍ ناعقٍ مِن حولنا	في صداه الشؤمُ محموم الرنينْ
منذرٍ بالويل ممن بيتوا	غزونا، ويلهمو، دنيا ودينْ
الصليبيون وُحداناً غَدوا	وزَرافاتٍ إلينا ينفرونْ
وبنا طرا تواصوا، جنفا،	وتناجوا بالأذى جم الفنونْ...

وما ان سمعت الهيئة العلمية والقيادية قوله، حتى أعلنت عن اتحادها والتحامها من أجل الدفاع عن الإسلام، وعن الوحدة الوطنية، وهنا قال الملك مرة أخرى متوجها إلى العلماء الأجلاء. ص 137.

ليس لي أن أكونَ في مثل هـذا ... أنـا، بـالرأي دونكم مستبـدا
لا ! ولا لي أن أحمل العبء وحدي ... حـاصـدا حسرة النـدامـة حصـدا
ليس أدعى للظلم حقـا وأدنى ... من ولي يمـارس الحكم فردا
علمـاءَ البـلاد، يـامن، لـزامـا، ... بهمـو يستضـاء حـلا وعَقـدا
سنـةُ الحكم تلكـو في بـلادي ... لستُ منهـا أرضى لنفسي بُـدّاً
مـذ حَملتّم رسـالـة العلم حُمّلـ ... ـتم ثقيـلا من الأمـانـة إذا
وعليكم من السمـاء رقيـب ... أن تكـونـوا أوفى وأوفر عهـدا
أنتمُ الشعب مقلـةً وضميرا ... ولسـانـا بـه إلى الحـق أهـدى
وبكم يستغيث، مـا عظم الخطـ ... ـب، ومـا ظلـه على الخلق مـدا
ولـذا قـد دعـوتكم فـاستجبتم ... ولأنتم، في حـومـة الرأي، أجـدى
ولَعلي بكم على الـدرب أمضي ... سـالكا أفضـل المنـاهـج قصـدا

وهنا تتردد الألسنة بالدعاء، وتبين، بصدق، ما يجب أن يتخذ من الحيطة للكفاح، من أجل محاربة هذه الحملة الصليبية، ومحاربة ذاك الداعي الخائن الذي استسلم لنزواته المغامرة، فانساق إلى البرتغال، دن أن يبالي بالأخطار التي سيوقع فيها وطنه، ولهذا تعالت الصيحات من هؤلاء العلماء المستشارين، الذين عبر الأستاذ الصقلي عن آرائهم، بصدق، فبين ما يحتدم في نفوسهم من إيمان، وما تجيش به خواطرهم من صمود وتحد لكل مظاهر الذل والخذلان، فقال على لسان أبي المحاسن يوسف الفاسي ص : 152.

الجهاد، الجهاد، مولاي ولنمـــــــض جميعا في ركبك المخفور

ويعد هذا المشهد، وهو الثامن والأخير من الفصل الثاني، من أطول المشاهد الممهدة للمعركة، التي خص لها الفصل الثالث بشاهده كلها، ولعل الحبك الفني كان يقتضي ذلك، لأن الأمر يتعلق بتصوير مدى اهتمام عبد الملك بالمسؤولية، وبتصوير مدى الالتحام الذي كان بين هيئة الحكم الثوري وبين الممثلين للشعب من علماء وقواد.

ولقد اختار المؤلف عددا من العلماء المشهورين، ليكونوا منطلقا للحوار، من بينهم أبو المحاسن يوسف الفاسي، والفقيه أحمد المنجور، والعالم علي السكتاني.

وإذا كان العالمان الأولان لا خلاف في إمكان مشاركتهما في هذا الحوار، فإن عليا هذا لا نعلم أنه كان حيا في هاته الحقبة، فهو قد توفي قبل ذلك بكثير، إنه قد قتل مع أبي عبد الله محمد المهدي، المعروف بالشيخ، بن الأمير عبد الله، القائم بأمر الله، وذلك في عهد السلطان سليمان العثماني، الذي أرسل جماعة من الأتراك، الذين تآمروا سرا، وعملوا على اغتيال أبي عبد الله الشيخ، وقتل معه، أثناء تنفيذ المؤامرة، علي السكتاني، والكاتب أبو عمران الوجاني حسب ما في كتاب الاستقصا للناصري.

وهذا الخلاف الزمني لا يؤثر في الناحية الجمالية التي تمتاز بها المسرحية، ولا في الهدف الرمزي الذي يسعى الأستاذ الصقلي إلى تحقيقه من خلال مسرحيته، بل كان يتعمد، أحيانا، تحوير بعض الحقائق، لخدمة فنه، ويتجلى ذلك في تسجيل نهاية سبستيان ملك البرتغال، الذي لم تجعله المسرحية قتيلا من بين قتلى المعركة، ولكنها جعلته يقف حيا أمام أحمد

المنصور، الذي أراد أن يعفو عنه، رغم مواقفه، لكن سبستيان ينتحر وهو يقول :

دمي فداؤك ياعرشي وياوطني العفو أقتل لي من قبضة الهون

ومما يمتاز به الصقلي دقة ملاحظاته، وحسن تصرفه في بعض الإشارات التاريخية العابرة، فهم يذكرون أن المعركة حين اشتدت وقربت من النهاية، كان فيها عبد الملك محتضرا، بسبب مرض ألم به، لكن حاجبه لم يعلن عن هذا المرض، فكان يدخل خباء الملك يستشيره في توجيه المعركة، وفوجئ، في إحدى دخلاته، بالفاجعة، حين رأى الملك ميتا وأصبعه على فمه، كأنه يشير إليه أن اكتم خبر موتي على الجيش وقواده، ليلا يضعفوا أو يضطربوا.

ويشخص الشاعر هذا الموقف، ويستنطقه على لسان الحاجب رضوان، الذي يتوجه إلى الملك، بعد أن لاحظ تلك الأصبع على فمه، فيقول : ص 186 :

فصيح أنت، حتى في الممات ! كأنْ مازلت في عز الحياة
حريص أنت، حتى حين تودي على أخذ بأسباب الحصاة
ورب إشارة أغنت، فكانت ـ بما قد أوضحت ـ أوفى أداة
لقد حاذرت أن ينهار جيش وينقلب النظام إلى شتات
إذا ما قيل : مت، وأنت ذخر لنصر نرتجيه على الغزاة
وما ألهاك أنك أنت ماض إلىالفردوس تمرج في ثبات
فما بارحت حتى كنت تدعو وتوصينا بكتمان الوفاة
يقينا منك أن النصر رهن بسر فضحه رأس المنات

وأختار هذا الوزن المتلائم مع الموضوع المنتقى، وجعل تلك التاء في الروي معتمدة على ذلك الردف المعطي للصوت موسيقى تجعل الإيقاع جذابا مؤثرا.

وتنتهي المسرحية بعد إعلان البيعة لأحمد المنصور الذي يقول معقبا على الانتصار ص 208.

أيها النـاس هـاهنـا قـد حفرنـا بيــد الحـق للصليب ضريحــا
وأقنـــاه شـــاهـــدا أن للظلــ ـــم انهيـارا وإن تعـالى صروحـا
فليبشر عـدونــا، مــا أتــانــا، أن قبرا لـه هنـــا مفتــوحـــا
وبــأنـــا عنـــد اللقـــاء كرام للمعــالي نجـود جسما وروحــا

وهكذا يمكننا من خلال الأبيات المنتقاة أن نستشف القدرة على التعبير الملائم للموضوع، فمن الأوزان المتنوعة، إلى الكلمات الواضحة، إلى التوازن الصوتي في الجرس الداخلي، والإيقاع الذي تنتهي بـه كثير من القوافي، كما يمكننا أن نستشف من خلالها الروح الوطنية العارمة، التي تنبثق من نفس الشاعر، ليجعل هذه المسرحية داخلة في الأدب الالتزامي الموجه.

إن الأديب الصقلي في مسرحيته هاته، قد حرص على الجمع بين أصول المسرح وأصول الشعر، فكانت الإيحاءات التصويرية، والمقابلات الصوتية. والنغمية، ممزوجة بأحداث القصة، وبحركة المواقف التي تبعث على تجسيد الواقع، وتشخصه تشخيصا يجعل القارئ لا يعيش الأوهام، وإنما يعيش الحقيقة، وكأنها واقع يمارس، لا تاريخ يحكى ويروى. وإني أعتبر هذا النوع

من المسرحيات، رغم كونه يعتمد على الإيقاع، لقادر على التأثير السمعي أكثر من غيره، نظرا لامتزاج فنين، واشتراكهما في السعي وراء اظهار سلسلة من الأحداث، تعين كلا من المشاهد والقارئ على التعمق في معرفة الأشياء، وعلى تمثل الظواهر الاجتماعية، والوقائع التاريخية، وعلى الاستفادة من الإيحاءات المقصودة التي يكون الغرض منها رفع المستوى الوطني، والأخلاقي، وتربية الذوق الاجتماعي، والسياسي، بصورة تبعث على المتعة، وتستغل عناصر الجمال.

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

ردٌّ على نقد(*)

الحاج هاشم محمد الرجب

اطلعت في مجلة «المنـاهل» الزاهرة (ص 326 ـ 346) العـدد 30 لسنـة 1984 على كلمة نقد وجهها الأستاذ أحمد عيدون لبعض ما ثبتته من الأبعاد الموسيقية في كتـاب (الأدوار) لصفي الـدين عبـد المؤمن الأرموي البغـدادي المتوفى سنة (693 هـ ـ 1294م) وهو الكتـاب الـذي قمت بتحقيقـه وشرحـه، وقد توهم الكاتب الناقد بأن ما ثبتته في هذه الأبعاد لا ينطبق على مـايراه هو. وإني في الوقت الذي أقدم فيـه شكري وتقـديري للكاتب الفـاضل على تتبعه لمثل هذه الأبحاث، في الوقت الذي أصبح فيه الذين يهتمون ويبحثون في مثل هذه الأمور (الموسيقى القديمة) قلة في العالم الآن حيث أن عددهم ـ كما اعتقد ـ لا يتجاوز عدد الأصابع لكنني أجد أن الناقد الفاضل لم يكن موفقا في نقده للأسباب التالية.

(*) أطلعت مجلة «المناهل» السيد أحمد عيدون على هذا النقد فأجاب عنه بتعقيب، يجده القـارئ بعد هذا الرد. (المناهل).

إن الأستاذ عيدون متفق معي في جميع نسب الأبعاد للأرموي إلا في نسب أبعاد البقيات الثلاث الذي يحتويه البعد الطنيني إذ أنه يعتقد أن نسب هذه الأبعاد هي نفس نسب الأبعاد البقيات الثلاث التي يحتويها البعد الطنيني عند فيثاغورس وهذا غير صحيح كما سأبرهن على ذلك.

وقبل أن أدخل في الموضوع أود أن أثبت ما يلي :

لقد اعتبر الأرموي :

أولا ـ بعد البقية ـ وهو البعد الذي يحتوي على نغمتين محصورة بينهما بعدا واحدا وأطلق عليه حرف (ب) فكل نغمتين هو بعد بقية.

ثانيا ـ بعد المجنب ـ هو البعد الذي يحتوي على ثلاث نغمات محصورة بينها بعد أن ـ وأطلق عليه حرف (ج) فكل ثلاث نغمات هو بعد مجنب.

ثالثا ـ بعد الطنيني ـ هو الذي يحتوي على أربع نغمات محصورة بينها ثلاثة أبعاد وأطلق عليه حرف (ط) فكل أربع نغمات هو بعد طنيني.

إن نسب الأبعاد للبقيات الثلاثة الذي يحتويه البعد الطنيني عند الأرموي تختلف عن نسب الأبعاد عند فيثاغورس وذلك بالدليل التالي.

إن نسبة البقية الأولى من البعد الطنيني عند فيثاغورس وعند الأرموي (آ،ب) هي نسبة واحدة وهي ($\frac{256}{243}$). أما نسبة البقية الثانية فعند فيثاغورس هي نفس نسبة البقية الأولى ($\frac{256}{243}$) ولكن عند الأرموي نسبتها ($\frac{135}{128}$) بدليل أن نسبة المجنب الأول (آ، ج) عنده كل وتسع كل ($\frac{10}{9}$) فإذا طرحت نسبة البقية الأولى ($\frac{256}{243}$) من نسبة المجنب الأول يبقى ($\frac{135}{128}$) والعملية هكذا $\frac{10}{9} - \frac{256}{243} = \frac{135}{128}$ وهي

نسبة البقية الثانية (ب، ج) عند الأرموي بقي عندنا نسبة البقية الثالثة (ج، د).

فعند فيثاغورس نسبتها ($\frac{531441}{524288}$) وهي ناتجة من :

$\frac{256}{256} + \frac{256}{256} = \frac{65536}{59049}$. وعند طرح هذه النسبة وهي نسبة البقيتين الأولى والثانية من نسبة البعد الطنيني الذي نسبته كل وثمن كل $\frac{9}{8}$ فما يبقي هو نسبة الكوما الفيثاغورية والعملية هكذا.

$\frac{9}{8} - \frac{65536}{59049} = \frac{531441}{528288}$ وهي نسبة الكوما الفيثاغورية وتساوي $\frac{74}{72}$ تقريبا أما نسبة الكوما عند الأرموي فنسبتها ($\frac{81}{80}$) والعملية وهكذا :

$\frac{256}{243} + \frac{135}{128} = \frac{10}{9}$ وهي نسبة المجنب الأول $\frac{9}{8} - \frac{10}{9} = \frac{81}{80}$ وهي نسبة الكوما الأرموية.

وعلى هذا الأساس إذا توالى مجنبان في بعد ذى الأربع (التتركورد) يكون نسبتها كما يلي :

الأول ـ كل وتسع وهو ناتج من $\frac{256}{243} + \frac{135}{148} = \frac{10}{9}$ نسبة المجنب الأول.

الثاني ـ كل وجزء من خمسة عشر وهو ناتج من $\frac{256}{243} + \frac{81}{80} =$ $\frac{16}{15}$ نسبة المجنب الثاني.

وإذا توالت ثلاثة مجنبات في بعد ذى الأربع الواحد كما هو في القسم السابع من الطبقة الأولى عند الأرموي فتكون نسبة المجنب الثالث.

$\frac{2187}{2048}$ والعملية هكذا :

$\frac{135}{128} + \frac{81}{80} = \frac{2187}{2048}$ (الابـوتـوم) وهي نسـبـة فضـل الطنيني على البقية.

وأدناه مخطط إيضاحي بالمجنبات الثلاثة

المطلق | الزائد | المجنب | السبابة | وسطى الفرس | وسطى زلزل | البنصر | الخنصر

$\frac{256}{243}$ | $\frac{135}{128}$ | $\frac{81}{80}$ | $\frac{256}{243}$ | $\frac{135}{128}$ | $\frac{81}{80}$ | $\frac{256}{243}$

الخط

ربع الوتر (التتراكورد) كل وثلث كل ($\frac{4}{2}$ -)

أ (0) | ب $\frac{256}{243}$ | ج $\frac{10}{9}$ | د $\frac{9}{8}$ | هـ $\frac{32}{27}$ | و $\frac{5}{4}$ | ز $\frac{81}{64}$ | ح $\frac{4}{2}$

المجنب الأول ($\frac{10}{9}$) المجنب الثاني ($\frac{16}{15}$) المجنب الثالث ($\frac{2187}{2048}$) البقية ($\frac{256}{243}$)

وقد ذكرت هذا بصورة مفصلة في الصحيفة (19، 57) من كتاب (الأدوار).

أما قول الأستاذ عيدون في الصفحة (344) (وأظن شخصيا أن سبب هذا الخلط بين الأنظمة النظرية عند المحقق عن ما ورد في الجنس السابع من الطبقة الأولى حيث تتوالى ثلاثة أبعاد من صنف (ج)) فليس لي أن أقول فيه طالما موجود جنس بهذه الأبعاد (ج.ج.ج.ب) إذن أين الخلط يا أستاذ.

هذا وقد ناقض الأستاذ عيدون نفسه بنفسه إذ أنه ينفي وجود الكوما الأرموية التي نسبتها $\frac{81}{80}$ حيث ذكر في الصفحة (341) ما يلي :

(وحتى لو أكملنا العملية على كل الدساتين السلم فلن نجد الكوما التي يقول عنها المحقق إنها أرموية وان نسبها ($\frac{81}{80}$).

ثم في الصحيفة (343) يثبت وجود هذه الكوما في سلم الأرموي حيث يقول (ويتميز هذا النظام بوجود بعدين طنينين كبير ونسبته ($\frac{9}{8}$) وصغير ونسبته ($\frac{10}{9}$) بفارق ضئيل يسمى كوما البعدين ونسبته ($\frac{81}{80}$). وهكذا نسي عيدون أنه توصل إلى ذات الرقم لكنه لم يتأمل جيدا هذه القضية. ومهما يكن فإن ملاحظات عيدون تأخذ طابع المحاورة لكتاب مهم في تاريخ الموسيقى والأنغام... وأسجل احترامي لعيدون وآمل أن تتواصل المحاورات بين الباحثين.. فنحن نعرف في العراق أن أحمد عيدون يجتهد في جهده الموسيقي، وعسى أن نلتقي مرة أخرى على صفحات مجلتكم الغراء أو على صفحات مجلاتنا العلمية.

هذا ما اردت بيانه والله من وراء القصد.

بغداد — الحاج هاشم محمد الرجب

السلم الموسيقي عند صفي الدين الأرموي
ومحتوى طبقات الأدوار

أحمد عيدون

إني أشكر للأستاذ الحاج هاشم محمد الرجب إثارة انتباهي ثانية إلى مسائل نظرية ما كان ليتسع لها بحثي السابق حول كتاب الأدوار، وأعتبر ما جاء في رده وجيها في أغلبه، إلا أن نقطة الاختلاف بيننا تكمن في أسلوب التعامل مع كتاب الأدوار : يعتبر أستاذنا الرجب كتاب الأدوار حقيقة مطلقة لا تستوجب النقد وبالتالي يحاول التوفيق، على طريقته، بين منطلق المؤلف (طريقة تقسيم الوتر) ونتائجه (تكوين الطبقات في السلم النغمي)، بينما أعتبر شخصيا أن الأرموي قد انتهج طريقتين مختلفتين بالنسبة للفصل الثاني (تقسيم الوتر) والفصل الخامس (تكوين الطبقات)، وكان دقيق الوصف والحسابات في المسألة الأولى غامضه في الثانية. لذلك، إلحاقا بما سبق أن بينته من تطابق النظامين (نظام الأرموي ونظام فيثاغورس)، سأحاول في مبحثي هذا أن أبرز كيف أن الأرموي نفسه قد

ابتعد عما سطره لنفسه في بداية مؤلفه، وكيف أن تحليله، لطبقات بعد ذى الكل يشكو من وجود أجناس لا توافق الأبعاد الأولية، وانعدام وجود أجناس أخرى أغفلها المؤلف رغم أنها توافق مبادئ التأليف الملائم وتجتنب الأسباب الموجبة للتنافر. وبعد التطرق إلى موقع الأرموي في التاريخ الموسيقي العربي، وتحليل منهج الحاج هاشم الرجب في تحقيق كتاب الأدوار وخصوصا ما يتعلق منه بالسلم الموسيقي وبطبقات الأدوار، سأحاول أن أبرز القطيعة بين الفصل الثاني والفصل الخامس من المخطوط قبل أن أخلص إلى تقدير نسب الأبعاد المحصورة في نطاق البعد الطنيني ومن ضمنها بعد ج.

1 - موقع الأرموي وحدود إسهامه النظري فيّما يخص تركيب الطبقات :

اتبع الأرموي في مؤلفه خطة علمية مثيرة للإعجاب ولا غرو أن يسميه هـ.ج فارمر بإمام المدرسة المنهجية، تلكم المدرسة التي وصل صيتها إلى مغربنا العربي وطغت روحها على كل الكتابات العربية في الموسيقى بعد الارموي. اعتمد صفي الدين على تسلسل منطقي وتبويب ينطلق من البسيط إلى المركب، من النغمة كصوت منفرد إلى موقعها، إلى تآلفها وتنافرها إلى تكوين الطبقات ثم الأدوار إلى كيفية استخراج هذه النغمات والأدوار من أوتار العود، وذلك قبل أن يتطرق للعنصر الثاني وهو الإيقاع وعيا منه بأن الموسيقى أساسا هي نغمة وإيقاع إذا اعتبرنا جانب التأليف فقط، ثم هي إحساس جمالي وهذا ما يبرر الفصل الرابع عشر (تأثير النغم)، ثم ممارسة طويلة وذكية، لذلك جاء الفصل الخامس عشر والختامي خاصا

بمباشرة العمل، كما أرى أن طريقته في تكوين السلم (بعد ذى الكل) بديعة وتربوية وأحسن بكثير من طريقة تتابع العقود الرباعية المتبعة في النظرية الغربية (وربما ستتاح لي الفرصة للاستطراد في هذا الجانب الوضاء من نظرية الأرموي بمناسبة مقام آخر) أما ما يخص تركيب الطبقات فقد أتى الأرموي بأبعاد لم تذكرها قسمته للدساتين وبالأصح لم تصنفها بحرف واحد.

2 ـ منهج الحاج هاشم محمد الرجب :

يتطرق المحقق إلى الفصول الثلاثة الأولى من المخطوط بالشرح والتوضيح والرسوم البيانية وحساب النسب بين نغمات السلم، قبل أن ينتقل إلى الفصل الرابع الخاص بالأسباب الموجبة للتنافر ثم الفصل الخامس حيث سيظل حبيس تفسير غير صائب لطبيعة أبعاد ج الثلاثة، وهكذا، وانطلاقا من القسم السابع من الطبقة الأولى ونسبة دساتينه ج ج ج ب يبدأ التباين بين تفسير المحقق الفاضل وبين ما أراه شخصيا موجبا لمزيد من التمحيص والنقد، فهذا القسم يضم 4 أبعاد محصورة بين 5 نغمات، وبما أن أبعاد ج الثلاثة لا يمكن أن تكون بالنسبة التي أظهرها تقسيم الوتر في الفصل الثاني أي $\frac{65536}{59049}$ لأن مجموع نسب هذا القسم سيتمدى نسبة ذى الأربع، يرى المحقق في نطاق المنهج الذي اتبعه أن يميز بين ثلاثة أنواع من بعد ج ($\frac{10}{9}$، $\frac{16}{15}$، $\frac{2187}{2048}$) وسيكون بالطبع حاصل ضرب هذه النسب مع نسبة البقية ب هو $\frac{4}{3}$ أي نسبة بعد ذى الأربع، ويمكن استعمال نفس القياس للأقسام 7،8،9،10،11 في الطبقة الثانية وكلها تتضمن ثلاثة أبعاد ج.

أما كيف وجد المحقق النسب الثلاثة وعلى أي فقرة من المخطوط يعتمد، فهذا مالا يفصح عنه ومالا يقدم عليه أي دليل، وحبذا لو أمدنا بأساس استنباطه للبقيات الثلاث التي يذكرها في الإشارة 17 من الصفحة 57، وهو في رأيي استنباط ان لم يستند إلى صراحة نص المخطوط يجب أن نجد له مبررا في الفصل الثاني (أقسام الدساتين). وقد بينت بما يكفي أن قسمة الوتر لا تعطى النوعين الأولين من بعد ج.

3 ـ بين الفصل الثاني والفصل الخامس :

انتهيت في مقالتي السابقة إلى أن البعد الطنيني يتضمن ثلاثة أنواع من الأبعاد :

بعد الفضلة أو الكوما الفيتاغورية بنسبة $\frac{531441}{524288}$

بعد البقية (ب) بنسبة $\frac{256}{243}$

بعد ج بنسبة $\frac{65536}{59049}$

وهناك بالطبع بعدان آخران هما :

ـ الأبو طوم وهو طرح بعد البقية من البعد الطنيني ونسبته $\frac{2187}{2048}$

ـ والبعد الطنيني ويتكون اما من بعدين (ب) + كوما.
أو بعد ج + كوما أو بعد (ب) + أبو طوم ونسبته $\frac{9}{8}$

وقد اكتفيت بتحليل الفصل الثاني دون الانتقال إلى سواه حتى أدقق الحسابات واستخلص كل النتائج الممكنة، أما الفصل الخامس فلا أرى إلا

أن الأرموي قد أغفل التمييز بين عدد من الأبعاد سماها في القسم السابع للطبقة الأولى بأبعاد ج وما كلها ببعد ج كما سبق ذكره في الفصل الثاني من المخطوط وسنبين ذلك في حينه، لذلك جائت بعض أقسام الطبقات المذكورة عند الأرموي غير متفقة مع تقسيم الوتر وغير شاملة لكل أنواع الأقسام، فهناك في نفس الوقت افراط وتفريط :

أفراط في وجود الأقسام المعتمدة على تتابع 3 أبعاد ج وتفريط في عدم وجود أقسام تلتزم بموجبات التلائم وتجتنب كل موجبات التنافر. كان يمكن مثلا أن نضيف إلى أقسام الطبقة الثانية (بعد ذى الخمس) ثلاثة أقسام أخرى :

ج ط ط ج.
ط ط ج ج.
ط ط ط ب.

وهي الأقسام التي ستمكننا من إيجاد سلم الراست الحالي وسلم العجم والسلم الصغير اللحني الذي ترفع فيه العلامتان السادسة والسابعة صعودا، وتبيان ذلك في الجدول الآتي :

الطبقة الأولى / الطبقة الثانية	ط ط ب	ط ب ط	ط ج ج
ط ط ج ج			راست
ط ط ط ب	عجم	صغير لحني صاعد	

ومع الإشارة إلى آن المقامين الآخيرين ربما لم يستعملا في زمن الأرموي، لكن ملاحظتي تهم تكوين الطبقات فقط. ليس لنا إذا أن نعتمد على الفصل الخامس لتفسير الأبعاد وخصوصا أبعاد ج والكوما الأرموية كا لا يمكننا الاعتماد على تقديرات تقريبية موجودة في الفصل الثالث من المخطوط، وفيه (... وأما نسبة (أ) إلى (ج) فنسبة المثل وثلث الخمس **بالتقريب**، وأما نسبة (أ) إلى (ب) **فهي** كنسبة المثل وجزء من تسعة عشر **بالتقريب** ويسمى بعد بقية وأما بعد (أج) فلم أجد له اسما بين أرباب هذه الصناعة، فلنسمي بعد (أد) بعد (ط) وبعد (أج) بعد (ج) وبعد (أب) بعد (ب)...) وهذه النظرة التقريبية هي اللتي تحتم علينا كباحثين أن نرجع إلى أدق فصل وهو الفصل الثاني الذي اعتبره مفتاح طبيعة الأبعاد ودليل نسبتها الحسابية وما دمنا في صدد مراجعة الفصل الخامس فلنرجع إلى النص لنعرف حقيقة أبعاد ج الثلاثة.

القسم السابع من الطبقة الأولى ج ج ج ب نغماتها أ ج هـ ز ح :

القسم السابع من الطبقة الثانية ج ج ج ب ط نغماتها ح ي يب يديه يح.

القسم الثامن من الطبقة الثانية ط ج ج ج ب نغماتها ح يايج يه يزيح.

القسم التاسع من الطبقة الثالثة ج ط ج ج ب نغماتها ح ي يج يه يزيح.

(في الكتاب ص 68 خطأ مطبعي على ما أظن لذلك جاء.
هذا القسم خلاف ما هو موجود في نسخ المخطوط هكذا :
ج ط ج ج ج ب نغماتها ح ي يج يه يويح).
القسم العاشر ج ب ط ج ج نغماتها ح ي يايد يو يح.
القسم الحادي عشر ج ج ب ط ج نغماتها ح ي يب يج يو يح.
القسم الثالث عشر ط ج ب ج ج ونغماتها ح ي يج يد يو يح.

وقد اتضح لي بعد مراجعة النغمات المذكورة أن أبعاد ج المشار إليها فعلا من 3 أنواع ولكن لا توافق كلها بعد (ج) المذكور في الفصل الثاني والفصل الثالث، ولا علاقة لها كذلك بأبعاد ج التي يذكرها المحقق، وذلك راجع إلى الخلط بين بعد ج الحقيقي والذي يمثله بعد (أ - ج) والأبو طوم الفيتاغوري وهو تمام البقية إلى البعد الطنيني. ونجد في الجدول الآتي موافقة لنص الأرموي ونغمات أقسامه مع الأبعاد المحصورة في البعد الطنيني (ط) البقية (ب) بعد (ج) الأبو طوم (م) والكوما (ك).

القسم	الطبقة	الأبعاد في النص	النغمات	الأبعاد الحقيقية
7	1	ج ج ج ب	أ ج هـ ز ح	ج، م، م، ب
7	2	ج ج ج ب ط	ح ي يب يد يه يح	ج، م، م، ب، ط
8	2	ط ج ج ج ب	ح يا يج يه يزيح	ط، ج، م، ج، ك
9	2	ج ط ج ج ب	ح ي يج يه يزيح	ج، ط، م، ج، ك
10	2	ج ب ط ج ج	ح ي يايه يويح	ج، ك، ط، ج، م
11	2	ج ج ب ط ج	ح ي يب يج يويح	ج، م، ب، ط، م
13	2	ط ج ب ج ج	ح يايج يه يويح	ط، ج، ك، ج، م

(بالقسم الثالث عشر خطأ مطبعي في النغمات اقرأ يا عوض ي).
وقد استخرج هذا القسم الأستاذ هاشم الرجب.

إذن بعد قراءة متأنية للفصل الخامس تبين لي أن الأرموي قد أغفل التمييز بين بعد ج والأبو طوم وبين بعد البقية والفضلة أو الكوما، وقد اعتمد المحقق على هذا الفصل رغم نقصه وأضاف من عنده خطأ آخر في تقدير نسب أبعاد (ج) الثلاثة.

4 ـ بعد (ج) وتقدير نسبته :

لقد حصل الاتفاق بيني وبين الحاج هاشم الرجب على حساب البعد (ب) الذي نقدره ب $\frac{256}{243}$، لذلك سأتم الحساب إلى أن أجد نسبة بعد (ج)، وأعتمادا على الفصل الثاني من كتاب الأدوار نجد :

«... ثم تقسم (ب،م) أربعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه (ط)، ثم تقتسم (ط،م) أربعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه (يو)، ثم نقسم (يو،م) بقسمين متساويين ونضيف إليها قسما آخر مساويا لأحد القسمين من جانب الثقل ونعلم على نهايتها (و)، ثم تقسم (و،م) ثمانية أقسام ونضيف إلى الأقسام قسما آخر ونعلم على نهايته (ج)».

ولنقدم في ما يلي رسما توضيحيا للعلاقات الأربعة المذكورة أعلاه :

192 م	ب
256 م	ب
192 م	ط يو
216 م	........و
243 م	........و ج

وما دمنا قد اتفقنا على أن طول الوتر من المشط (م) إلى دستان (ب) هو $\frac{243}{256}$ من طول المطلق، فيمكننا إنجاز العمليات حتى إيجاد طول الوتر المحبوس عند دستان (ج) :

$$ط = \frac{3}{4} \times أ \frac{243}{256}$$

$$يو = ط \times \frac{3}{4}$$

$$و = يو \frac{3}{2}$$

$$ج = و \frac{9}{8}$$

إذن فالوتر المحبوس عند (ج) طوله.

$$\frac{59049}{65536} = أ \frac{243}{256} \times \frac{3}{4} \times \frac{3}{4} \times \frac{3}{2} \times \frac{9}{8}$$

أي أن نسبة اهتزازه إلى اهتزاز المطلق (أ) هي $\frac{65536}{59049}$ وليس $\frac{10}{9}$، كل وتسع كل، كما ورد في الحاشية 7 صفحة 47 من كتاب المحقق. واعتماد نسبة الكل وتسع الكل هي التي أدت إلى اختلاف أنواع بعد البقية عند المحقق والعملية عنده هكذا : بما أن البعد الطنيني (أ،د) تقابله نسبة $\frac{9}{8}$ وبعد البقية (أ،ب) تقابله $\frac{256}{243}$ وبعد (أج) هو $\frac{10}{9}$(وهنا الخطأ) فبعد (ب،ج) هو الفرق بين (أ،ج) و(أ،ب) والفرق في حساب النسب نترجمه كسرا والنتيجة تأتي $\frac{10}{9} \times \frac{243}{256} = \frac{135}{128}$. وكذلك الفضلة أو الكوما التي يسميها المحقق أرموية فرق بين البعد الطنيني وبعد (أ،ج) أي $\frac{9}{8} \times \frac{9}{10} = \frac{81}{80}$ وبما أننا أثبتنا عدم وجود نسبة $\frac{10}{9}$ يمكننا بكل سهولة أن نثبت خطأ نسبتي $\frac{135}{128}$ و $\frac{81}{80}$ ولم أتناقض مع نفسي حين قلت في الصفحة 343 من مقالتي السابقة أن هذه النسبة الأخيرة هي عنصر من عناصر النظام الارسطوكسيني وبالتالي فالكوما $\frac{81}{80}$ ليست أرموية ولا وجود لها عند الأرموي. وصلت فعلا إلى ذات الرقم، ولكن في نظام آخر غير

نظام الأرموي أوردته هنا للمقارنة ليس الا. وأود أن أعطي للأستاذ الرجب مبررا آخر لعدم اعتبار ما جاء به الأقدمون (أو على الأصح ما وصلنا منسوخا عن علمهم) شيئا مطلقا، قضية دساتين آلة العود المذكورة في الفصل الثامن وفي هذا الفصل بعض الأخطاء فحدة بنصر البم ليست هي مجنب الزير - كما ورد في الصفحة 94 - بل زائده، وكذلك بنصر المثلث ليس هو مجنب الحاد بل زائده.

والمسألة لا تعدو أن تكون خطأ عند الأرموي نفسه واما أن دستان المجنب يسبق دستان الزائد إلى المطلق وبالتالي سيفهم نص الأرموي ويطابق حقيقة تكوين السلم كما يلي :

	حاد	لو	له	لد	لج	لب	لا	ل	كط	
	زير	كط	كح	كن	كو	كه	كد	كج	كب	
المشط	مثنى	كب	كا	ك	يط	يح	يز	يو	يه	الأنف
	مثلث	يه	يه	يج	يب	يا	ي	ط	ح	
	بم	ح	ز	و		د	ج	ب	أ	

ولنا عودة للمقامات والأدوار ستلح فيها الضرورة على اتباع نفس المنهج النقدي للوصول إلى نتائج ملموسة. على كل حال فكتاب الأدوار بحجم ما يزخر به من معلومات سيطلب منا أكثر من وقفة وقد كنا في هذا المقال بصدد الحديث عن نقطة واحدة منه وهي نسب الأبعاد، أبديت فيها رأيي ثانية بمحاورة قصدها الافادة والاستفادة، ولا شك في انني أكن للحاج هاشم محمد الرجب أصدق التقدير لاسهاماته العديدة ولما استفدته شخصيا من تحقيقاته العلمية وأبحاثه في المقام العراقي وفي التاريخ وفي علم المصطلحات العربية وأتمنى لأستاذنا المزيد من العطاء.

أحمد عيدون